تاريخ الأدب الجاهلى

الأستاذ الدكتور
السيد محمد الديب

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

توزيع المكتبة الأزهرية للتراث
٩ درب الأتراك - خلف الأزهر الشريف



المقدمة

ترجع بدايات هذه الصحائف إلى أكثر من عشر سنوات عندما تيسرت لى سُبل الكتابة عن شاعر كِندة (الملك الضلّيل) امرئ القيس بن حُجْر ، وعن غيره من شعراء الجاهلية ، لكن تلك الكتابات القديمة أنارت لى بعض المسارات التى نفذتُ منها إلى عوالم رحبة فى أدب ما قبل الإسلام.

ولم أتمكن – رغم هذه المخاضات الطويلة – من بحث مجموعة من قضايا الأدب الجاهلى لازال الناس يلهجون بها فى أندية الأدب ودور العلم ، كإشكالية الوضع والانتحال فى الشعر القديم وبيان الطبع والصنعة ، وأيام العرب وأسواقها ، ومظاهر البيئة ودلائل الحياة الاجتماعية فى أدب الجاهليين ، تلك المسائل التى وكرت فىأعماقى ، وألهبت حماستى ، وشغفتنى لوهج الحرف وأمانة البحث وحمل القلم.

ويكشف التمهيد – فى أوراق آتية – عن إضائة غير مبهرة لحياة اللغة العربية فى طفولتها المبكرة مع أخواتها الساميات ، وعن استقلالها عنهن بجنوب الجزيرة ووسطها وشمالها ، وانقساماتها وانتصار اللهجة القرشية بتمثيلها للفصحى ونزول القرآن الكريم بها .

وجاء الحديث فى الباب الأول من خلال مجموعة من الفصول عن الشعر الجاهلى بين الرواية والتدوين ،ومصادره المختلفة ، وفنونه المتعددة ، وخصائصه المميزة وأعلامه البارزين .

وأبرزت فى الباب الثانى بعض الموضوعات التى يدور الحديث فيها عن كندة (قبيلة امرئ القيس) وحياة هذا الشاعر بين القدماء والمحدثين، وأولية الشعر الجاهلى لما لهذه الأولية من علاقة به، وخصائص شعره وروايات ديوانه.

أما الباب الثالث فكان عن بيئة أخرى وشعراء آخرين من مدينة الطائف التى كان لها فى الجاهلية شأن أى شأن.

ولسوف يجد القارئ لوحة بيانية عن أمية بن أبى الصلت شاعر ثقيف فى الجاهلية ينتظم منها الفصل الأول، ويأتى الثانى عن ذى الأصبع العدوانى شاعر الحكمة والسلام، وينتهى القول فى الفصل الثالث بالحديث عن مجموعة من الشعراء الآخرين.

وجاء الباب الرابع عن بعض الشعراء الذين يمثلون القبائل العربية.

وأتممت هذه الصحائف بكلمة موجزة عن النثر الفنى فى الأدب الجاهلى وما به من ضروب فى الحكم والأمثال والخطابة.

ولازلت متوشحاً بآمال عظام للعودة إلى البحث والمعاناة وإبداء الرأى فى همومنا المعاصرة عن تلك القضايا الشائكة والمشوقة فى الأدب الجاهلى، وما يعتوره من اختلاف فى الرأى واتهام بالجناية أو التبعية لأفكار المستشرقين.

والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل ،،،

أ.د. السيد محمد الديب

الأربعاء: ٢٢ من شوال ١٤٢١هـ.

الموافق: ١٧ من يناير ٢٠٠١م.

تمهيـــــد

اللغة هى وسيلة التفاهم والتخاطب بين الإنسان، كما أنها أداة التعبير عن العواطف والمقاصد والأفكار. ولعلماء اللغات كلام كثير حول تاريخ اللغة ونشأتها فى المرحلة التى أعقبت زمن سيدنا نوح عليه السلام، حيث ولدت لغات جديدة لم يكن لها – فيما نظن – أصول قديمة.

ومعالم اللغة قبل الطوفان غامض تماما، ولا يستطيع أحد أن يزعم أو يدعى المعرفة الكاملة والصحيحة عن اللغة فى ذلك الزمن، وأقول ذلك وأنبه عليه لأننى وقفت مشدوها – مثل كثيرين غيرى – لما قرأته من أشعار مدونة فى بعض كتب الأدب، ومكتوبة بلغة عربية صحيحة، ومنسوبة إلى سيدنا آدم عليه السلام، بل إن وجود مثل هذه الكتابات يشجع البعض على الإسراف فى الشك حول اللغات السامية وأخواتها، على أن تاريخ اللغة الإنسانية قد مر بمراحل كثيرة، وبقى حتى العصر الجاهلى – وهو السابق للإسلام بما يقرب من مائتى سنة على أكثر تقدير – بقى هذا التاريخ غير واضح المعالم تماما.... نعم أن هناك العديد من النقوش والكثير من الأدلة التى يستند إليها العلماء، ولكنها ليست كافية، وإلا لما وجدنا هذا الاختلاف البين بين العلماء... ومع ذلك يتوفر للباحث قد ر كبير من الحقيقة التى تحتاج إلى بحث وصبر وأناة.

اللغات السامية:–

اللغة العربية واحده من اللغات السامية التى يرجع تاريخها وسبب تسمتها إلى سام بن نوح، كما أن أختها الأخرى والتى تسمى بالآرية أو اليافثية ترجع إلى يافث بن نوح. وقد ذكر العلماء لغة أخرى تعرف بالطورانية، وهذه هى الأصول الثلاثة للغات التى تواجدت بعد الطوفان.

ومن الآرية تفرعت هذه اللغات " السنسكريتية ، وما خرج منها كالهندية والفارسية والأفغانية والكردية والبخارية ، وهى اللغات الجنوبية ، ثم اللغات الشمالية : ومنها اللاتينية وفروعها : من الفرنساوية ، والإيطالية ، والأسبانية ، والبورتغالية ، وكذلك الهيلينية : ومنها اليونانى القديم والحديث ، والوندية ، ومنها لغات روسيا ، وبلغاريا ، وبوهيميا ، والتيوتونية ، ومنها لغات انجلترا، وجرمانيا ، وهولاندا ، والدانمارك ، وإسلاندا "[1] فلغة جميع الأمم التى تنطق بالآرية ترجع إلى أصل واحد ، وكذلك اللغات السامية والطورانية .

وقبل أن نتحدث عن اللغات السامية ، لابد من متابعة شعوبها ، فأين كانت تعيش هذه الشعوب؟؟؟

تقول معظم الآراء أنهم كانوا يقيمون بالجزيرة العربية ، وخاصة فى جنوبها حيث ازدهرت حضارات قديمة ، ولم تلبث تلك الأمم السامية أن أصيبت فى مواردها وأسباب حضارتها ، فجلوا عن اليمن فى موجات متتابعة إلى الشمال حيث استقرت هذه الموجات فى الشام والعراق وبعض الأماكن فى شمال الجزيرة كنجد والحجاز . ولا بد من التأكيد على أن اللغات السامية تتقارب فى نواح كثيرة مما يؤكد توحدها فى الأصل القديم ، كما أن تواجد الساميين فى وطن واحد قديم سهل لهم هذا التوحد ، ولما توالت الأزمان ، وتعددت الهجرات ، وتقدمت أنواع الاختراع فى الحروف وطرق الكتابة صارت تلك اللغات تتباعد ولا تلتقى إلا على أوجه بسيطة من الاتفاق حصرها العلماء فى أبواب وأوزان وطرق معدودة.

---

[1] تاريخ آداب العرب – مصطفى صادق الرافعى جـ١ ص ٦٧ طبعة دار الكتاب العربى – بيروت .

وأول الموجات المهاجرة من جنوب الجزيرة فى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد وأوائل الثالث هم **الأكديون** (البابليون والأشوريون) الذين نزحوا إلى العراق وكونوا أول دولة سامية عرفت فى هذه المنطقة فى أعقاب التاريخ المذكور ، ثم أعقبتها فى تلك الأرض دولة جديدة وهى بابل فى أوائل الألف الثانى (ق.م) بينما كان الأشوريون وهم من الموجة الأكدية يقيمون دولة فى شمال العراق (بين النهرين) متخذين من نينوى حاضرة لهم. على أن الكلدانيين قد خلفوا البابليين فى الحكم حيث يوجدون إبان القرن السابع (ق.م) والموجة الثانية هى موجة **الكنعانيين** التى تركت موطنها فى جنوب الجزيرة فى أوائل الألف الثانى (ق.م) واستقرت فى الشام ، وعلى السواحل الشرقية للبحر الأبيض ، وقد عرفوا باسم الفنيقيين ، وكونوا لهم مستعمرات فى أفريقيا وآسيا الصغرى والأندلس . ومن الكنعانيين العبريون الذين استقروا فى فلسطين منذ القرن الثالث عشر (ق.م) إلى أن هدم بختنصر حاضرتهم (أورشليم) وأجلاهم عنها إلى بابل فى القرن السادس (ق.م) **والآرميون** هم الموجة الثالثة التى نزحت من الجزيرة العربية فى منتصف الألف الثالث (ق.م) وقد كونوا إمارة لهم بين بابل والخليج العربى عرفت باسم كلد ، ولذلك عرفوا بالكلدانيين ، ونزحوا بعد ذلك إلى شمال العراق ، ثم أغاروا على الشام واستولوا على دمشق ، كما استعانوا بأبجدية الفنيقيين فىكتابة أدبهم ، وصارت لغتهم اليومية للأشوريين والبابليين والعبريين والفينقيين ، وتأثروا بحضارات الفرس والروم إبان حروبهما ، كما كتبت الأناجيل بلغتهم الآرامية ، حيث كان حواريو المسيح يستخدمونها ويتعاملون بها .

ولها لهجات عدة ، أهمها اللغة السريانية التى كانت منتشرة فيما بين النهرين ، وقد اتخذتها المسيحية لغة أدبية لها ، وهى اللغة التى كان يدرس بها الطب والعلوم الطبيعية بجانب اليونانية فى مدارس الرُها فيما بين

النهرين ومدرسة جند يسابور الفارسية وغيرهما ، ومن لهجاتها أيضا لهجة الصابئة فيما بين النهرين . وقد ظلت بلهجاتها المختلفة لغة حية فى الشرق الأوسط إلى أن جاء الإسلام فقضت عليها وعلى لهجاتها لغة القرآن الكريم . وإن ظلت معرفة فى بعض البيئات»[١] .

والموجة الرابعة والأخيرة هى **الموجة العربية** (وما تفرع منها من حبشية) وذلك فى أواخر الألف الثانى (ق.م) ، واتجهت إلى بعض الأماكن فى الجنوب ، وإلى ساحل المحيط الهندى ، كما هاجر بعضهم إلى السواحل الأفريقية . ومن المعلوم أن بعض الشعوب كانت تنطق لغة أمم أخرى نتيجة لبسط النفوذ السياسى والثقافى ، ومن المعروف أيضا أن الأصول السامية القديمة هى العربية والعبرانية والآرامية ، وقد بقيت منها الأولى والثانية واللغة السريانية كفرع من الثالثة على ضوءماسبق تقديمه .

وقد توسع علماء اللغات فى بحث أوجه الشبه بين العربية وأخواتها الساميات ، ووضعوا بعض المعاجم فىاللغات السامية المندثرة كأنها من اللغات الحية . وليس من الضرورى الاستطراد فى بحث أوجه الشبه تلك خاصة فى مثل هذه الدراسات المختصرة .

واللغة العربية بخاصة إما أن تكون فرعا من الأصل الذى تفرعت منه سائر الساميات ، أو أن تكون مشتقة من بعض تلك الفروع ، ثم أكملت استقلالها بما أخذته من غيرها ، وكل ذلك لايتجاوز الرجحان إلى اليقين ، على أن الرأى الأول هو المختار والمأخوذ به عند علماء اللغات[٢] .

---

[١] تاريخ الأدب العربى – العصر الجاهلي د. شوقى ضيف جـ١ ص ٢٥ طبعة دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧م.

[٢] انظر تاريخ آداب العرب للرافعى جـ١ ص٨٣.

الأمة العربية ولغاتها:-

أرجع المؤرخون الجنس العربى إلى ثلاث طبقات :

الأولى : وهم العرب البائدة الذين درست أخبارهم ، وطُمست آثارهم ، وأشهرهم عاد وثمود وطسم وجديس.

الثانية : العرب العاربة " وهم اليمنيون المنتسبون إلى يعرب بن قحطان ، المذكور فى التوراة باسم (يارح بن يقطان) ويزعم العرب أنه أصل لسانهم ومصدر بيانهم "[1] .

أشهر قبائل اليمن العربية :

" ومن اليمنيين بطون حمير - وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك ، وبطون كهلان - وأشهرهم همدان وطيئ ومذحج وكندة ولخم . ومن لخم بنو المنذر فى الحيرة والأزد . ومن الأزد الأوس والخزرج فى المدينة والغساسنة فى الشام . وكانت لحمير السيادة على اليمن فمنهم الملوك والأقيال"[2] .

الثالثة : العرب المستعربة " وهم ولد إسماعيل عليه السلام ، نزل بالحجاز حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ثم صاهر ملوك جرهم ، فكان له بنون وأعقاب ، ضلوا فى مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلا عدنان وإليه ينتهى عمود النسب العربى الصحيح .

وأشهر قبائل هذه الطبقة ربيعة ومضر وأنمار وإياد...."[3] .

وقد أقام القحطانيون فى جنوب الجزيرة العربية القديمة ، وذهب ثعلبة ابن عمرو نحو الحجاز وهو من كهلان ، وغلب اليهود علىيثرب ،

---

[1] تاريخ الأدب العربى - أحمد حسن الزيات ص ٧.

[2] المرجع السابق - ص٧.

[3] المرجع السابق - ص٧،ص٨.

ومن أعقابه الأوس والخزرج ، واتجه عمران بن عمرو إلى عمان وسار بنو جفنة بن عمرو إلى الشام وكان منهم الغساسنة ، ونزل بنولخم بالحيرة ومنهم المناذرة .

أما الشماليون (العدنانيون) فقد سكنت منهم بطون قريش مكة وضواحيها ، وأقامت بطون كنانة في تهامة ..." واحتلت ذبيان مابين تيماء وحوران . وسكنت ثقيف الطائف ، وهوازن شرقي مكة ، ونزل بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة ، وبنو تميم بادية البصرة . واستوطنت قبائل تغلب الجزيرة الفراتية . وحلت سائر بكر بن وائل طول الأرض من اليمامة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق فالأبلة فهيت"[١] .

ومما سبق يتضح أن القبائل العربية (الجنوبية والشمالية على السواء) قد لجأت إلى الهجرة طلبا لمواضع الكلأ والعشب أو بحثا عن القوت والماء. وصار التفريق بين بطون هذه القبائل من الأمور العسيرة ، كما أصبح تاريخ اللغة في فترة ماقبل العصر الجاهلي مشوشا وغير واضح المعالم تماما.

ويكفي أن اللغة الحميرية وهي فرع من القحطانية قد ذكرت على أنها فرع من اللغات السامية أي أنها أخت للعربية وليست فرعا منها ، وهذا مجرد مثال فقط أسوقه لأدلل به على ما أنتاب اللغات السامية وفروعها من تشويش واضطراب ، ولكن هذا لايمنعنا من تعقب تاريخ هذه اللغات ، ومعرفة ألفاظها وعلائقها ببعضها.

وفي دراستنا للغة العربية لابد من التنبية على أمور أرى الحاجة ماسة إلى تبيانها ومعرفتها ، ومن ذلك التأكيد على مابين اللغة القحطانية

---

[١] المرجع السابق – ص ٧، و(هِيت) بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار – انظر معجم البلدان لياقوت الحموي جـ٥ ص ٤٢١ طبعة دار صادر بيروت، ولم يذكر ياقوت (الأُبُلَة) وهي على شاطئ دجلة زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة.

(الجنوبية) واللغـة العدنانيـة (الشـمالية) أو المضريـة أو النزاريـة مـن فـروق واختلافات كثيرة حتى قال أبو عمرو بن العلاء مقولتـه الشـهيرة : " مالسـان حمير وأقاصى اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا"[١]

ومن الثابت علميا أن اللغة العربيـة قد شـهدت تطـورا ملحوظـا إبـان عمرها المديد حتى وصلت إلى ماوصلت إليه فى العصر الجاهلى ، والمتمثل فى أدبه الحى المتجدد . وكانت هناك بعض اللهجـات العربيـة القديمـة التـى تمثل اللغة فى أولى مراحلها مثل اللهجات الثمودية واللحيانية والصفوية وقد كتبت هذه الثلاث بالخط المسند الجنوبى ، ومثل اللهجـة النبطيـة التـى كتبت بالخط الآرامى . ومع أن هـذه اللهجـات عربيـة إلا أنهـا أخـذت مـن اللغـات السامية بعض مقوماتها .

وتعد اللهجة الصفوية أقـرب إلـى عربيـة الجـاهليين مـن نـواح كثيرة بالنسبة إلـى اللهجتيـن الأخرييـن . أمـا النبـط فهم عـرب شـماليون ومثلهـم التدمريون الذين سـكنوا الباديـة ممـا يلـى الحجـاز ، كمـا تعـد النبطيـة شـديدة الصلة بعربية الجاهليين ، ويتوقف تاريخ اللهجات وما يحمله من نقـوش إلـى
الصلة بعربية الجاهليين ، ويتوقف تاريخ اللهجات وما يحمله من نقـوش إلـى
القرن الثالث الميلادى – ولا بد أن اللغة قد طـورت كثيرا عمـا كـانت عليـه هذه اللهجات حتى استوى بناؤها فى القرون التالية .

والمعلوم أن العربية (العدنانية) سارت فى طريق التهذيب والرقى إلى أن وصلت عبر تاريخها الطويل إلى العصر الجاهلى بما يحمـل مـن لهجـات كثيرة متعددة .

---

[١] طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجُمحى جـ١ ص ١١ تحقيق محمود محمد شاكر.

اللهجات العربية :

تطورت اللغة العربية تطورا كبيرا فى سبيل اقترابها من الفصحى فى القرون السابقة للإسلام ، وإن ظهر بين القبائل عدد كبير من اللهجات بصورة يصعب معها الوصول إلى رأى حاسم حول أسماء القبائل التى كانت تنطق بتلك اللهجات الجاهلية القديمة ، كما أنه من الصعب أيضا التأكد من شمول اللهجة لكل أفراد القبيلة أو تواجدها على ألسنة عدد منهم . ومن هذه اللهجات :

الكشكشة وهى : إلحاق حرف الشين بكاف المخاطبة فيقولون : رأيتكش ، وعليكش ، بكش . وانتشرت هذه اللهجة فى بعض بنى تميم وأسد .

العنعنة وهى : جعل الهمزة عينا فى بعض الكلمات كقولهم فى أنْ وأنّ : عنْ وعنّ . وانتشرت فى تميم وبعض قيس وأسد .

الفحفحة وهى : قريبة من اللهجة السابقة إذا يجعلون الحاء عينا فيقولون فى حتى عتى ، وكانت فى هذيل وبعض بنى ثقيف .

العجعجة : وكانت فى قضاعة حيث يجعلون الياء المشددة جيما فيقولون فى تميمى تميمج ومن تلك اللهجات أيضا :

الطمطمانية وهى : إبدال لام التعريف ميما فيقولون فى السهم أمسهم . وانتشرت فى حمير وأهل اليمن وبعض عشائر طيئ وبلغتهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" ليس من أمبر أمصيام فى أمسفر".

ومن اللهجات التى تنسب إلى قبائل اليمن الشنشنة وهى جعل كاف الخطاب شينا مطلقا فيقولون : لبيش اللهم لبيش فى لبيك اللهم لبيك .

وكان بعض الحميريين يجعلون السين تاء فى أخر بعض الكلمات فينطقون كلمة (الناس) النات.

كما امتد الاختلاف فى لهجات القبائل إلى ساحة قواعد اللغة والنحو ، وسجل اللغويون فروقا كثيرة بين الحجازيين والتميميين ، فيقول الحجازيون منذ ويقول التميميون مذ ، ويقول الأولون الوتر (بفتح الواو) ويقول الثانون الوتر (بكسر الواو) ، ويرجع الاختلاف بين القبائل من خلال ماسبق إلى أمور عديدة كإلحاق حرف بآخر الكلمة ، أو إبدال حرف مكان حرف أو حركة مكان حركة ، أو مجرد الاختلاف فى الحركة والسكون مثل قولهم (معكم) بفتح العين وتسكينها.

ونتيجة لكثرة اللهجات التى اجتزأنا بعضا منها ، ولتباعد القبائل عن بعضها وجد ماعرف بالترادف والتضاد.

والأول هو اختلاف الكلمات فى اللفظ واتفاقها فى المعنى مثل الأسد، والليث والغضنفر والهزبر والضرغام وغيرها ، ومثل القمح والحنطة والبر، ومثل تقاتلوا وتعاركوا وتحاربوا ، ولذلك كثرت مفردات اللغة كثرة كبيرة إذ المعنى الواحد تتعدد ألفاظه حتى تصل إلى الخمسين مثلا فى اسم كالسيف .

والتضاد هو أن يكون للكلمة الواحدة أكثر من معنى ، وربما يكون المعنى مغايرا للثانى عند قبيلة أخرى مثل جَلَل بمعنى عظيم وحقير ، والجون بمعنى الأبيض والأسود ، وشرى بمعنى اشترى وباع.

ولم نرد بما قدمنا من أمثلة إلا عرض بعض النماذج لاختلاف اللهجات بين القبائل ، وإن لم يكن الاختلاف عاما لكنه موجود على كل حال، فإن لم يكن فى كل القبيلة ففى بعض أفرادها . ونؤكد أن دراسة تاريخ اللهجات ليست من الأمور اليسيرة ، لأنها تحتاج إلى جهد ويقظة ، ويبقى الرأى النهائى فى هذه القضية غير مكتمل . ويكفينا فى أمثال هذه الدراسات القدر الأكبر من الحقيقة .

اللغة العربية (الفصحى)

كانت لهجة قريش أقرب اللهجات إلى الفصحى ، واستمرت فى رقيها وتطورها حتى نزل القرآن الكريم بها ، بل لاتعدو الحقيقة إذا قلنا إنها عين الفصحى التى سادت فى العصر الجاهلى من خلال الشعر والنثر . وقد كانت مكة المكرمة حارسة لبيت الله الحرام ، ولم يتعرض الحجاز فى العصر الجاهلى وماسبقه إلى ماتعرض له العرب فى الجنوب أو الشمال ، ثم كانت الأسواق الأدبية والتجارية كعكاظ وغيرها إلى جوار مكة وعلى مقربة منها حيث يفد إليها الشعراء والخطباء والحكماء ، فيقدمون نتاجهم بالفصحى التى هى لهجة قريش .

وبعد الإسلام ودخول الأعاجم إلى الحجاز ، واختلاطهم بالعرب تغيرت لغة قريش ، ودخلتها كلمات أعجمية ، ولذلك لجأ علماء اللغة عند جمعها وتدوينها إلى القبائل البدوية بنجد التى لم تختلط بالأمم الأخرى ،كما شاع أن أفصح العرب فى القرن الثانى من الهجرة عُلْيَا هوازن ، وسفلى تميم وأسد وكنانة وهزيل.

وهكذا استقرت اللغة العربية التى أَخَذت من الأعاجم بعض الكلمات مثل قرقاس ودينار وسجل وكرسى وغيرها ، ودخلت هذه الكلمات لغة العرب وجاءت فى الأدب الجاهلى وفى القرآن الكريم . وفى المقابل هجرت كلمات عربية صحيحة مع مجيئها فى الأدب الجاهلى ، كما جاء بعضها فى القرآن الكريم مثل(الحُبُك) بمعنى السحاب و (الوصيد) بمعنى الباب و(المِحال) بمعنى المكر، و(رأن) بمعنى غطّى وغيرها كثير.

أقول : استقرت اللغة العربية بنزول القرآن الكريم بها فى إطارها الفصيح الذى تمثله لهجة قريش التى صارت اللغة العربية الفصحى مع الأخذ فى الاعتبار بعض اللهجات (اللغات) الأخرى، فأبيحت قراءة القرآن الكريم على

سبعة أوجه مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :" أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرؤا ماتيسر منه" وقد فسروا الحروف باللغة أو اللهجة والمقصود بالسبعة أفصح القبائل التى كان اللغويون يرتحلون إليها ، مع اختلافهم فى بيانها وتحديدها ، وربما كان المعنى هو الترخيص لكل قبيلة بأن تقرأه بلهجتها متى " جاءت بها الرواية الصحيحة من مد وإمالة وتحريك للحروف وتسكين وتشديد تسهيلا عليهم وتيسيرا حتى لايجدوا مشقة وثقلا فى نطق بعض ألفاظه"[١] .

الأدب:

لم تكن كلمة الأدب معروفة فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام بالمعنى الذى عرفت به بعد ذلك ، وإنما وجدت فى العصر الجاهلى كلمة (الآدب) ومعناها الداعى إلى الطعام ، فقد قال طرفة بن العبد :

نحنُ فى المَشْتَاةِ ندعُو الجَفَلَى لاتَرَى الآدبَ فيناَ يَنْتَقِرْ[٢]

واتصل بالمعنى نفسه قولهم : المأدبة بمعنى الطعام ، وأدب يأدب بمعنى صنع مأدبة .

وصارت الكلمة فى عصر صدر الإسلام ذات مدلول أخلاقى ، ومن ذلك قول الرسول (ص) : " أدبنى ربى فأحسن تأديبى ".

وتقترب الكلمة خطوات أكثر نحو معناها الأصلى فى عصير بنى أمية إذ ظهرت طبقة المعلمين ، فأطلق عليم لفظ المؤدبين إذ أن هذه الفئة كان دورها التعليمى مقصورا علىالشعر والأدب والأنساب وغيرها.

---

[١] تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى ، د. شوقى ضيف – ص ١٣٥.

[٢] المشتاة : الشتاء . الجفلى : الدعوة العامة إلى الطعام . ينتقر : يدعو دعوة خاصة بمعنى يختار أناسا ويترك آخرين.

وفى أوائل العصر العباسى صارت الكلمة تتناول المعنيين معا وهما المعنى الأخلاقى والسلوكى (من عصر صدر الإسلام) والمعنى التعليمى (من عصر بنى أمية) ، وقد تجسد ذلك فى كتابات عبد الله بن المقفع إذ سمى رسالتين له تتعلقان بالمعنيين (الأدب الصغير) و (الأدب الكبير) ثم صارت الكلمة فى العصر العباسى تلازم معنى ثانيا وهو " معرفة أشعار العرب وأخبارهم "[١] ثم توسعوا بعد ذلك فى مدلول الكلمة ، وجعلوها تشمل وتتناول أكبر قدر من المعارف والعلوم مثل مسائل اللغة والنحو والأنساب . ومنذ القرن الرابع الهجرى صارت كلمة الأدباء لاتطلق إلا على الشعراء والكتاب ، وأصبح الأدب لايطلق إلا على مجموع الكلام الجيد المروى شعرا ونثرا ، إذ استقل كل علم بموضوعاته التى تميزه عن غيره مثل النحو واللغة والبلاغة والفقه والتفسير وغيرها . ولا أظن أن هذا المعنى يختلف عما هو عليه الآن.

وتاريخ الأدب هو :" فن من فنون المعرفة يتعلق بتعاقب أعصر الأدب وبتطور الخصائص الأدبية مع الإلمام بسير الأدباء وبإحصاء إنتاجهم، وبالتمييز بين خصائصهم"[٢] .

عصور الأدب :

لم تكن دراسة الأدب فى عصوره القديمة تعتمد على تقسيمه إلى عصور بالمنهج الذى نسلكه الآن ، وإنما كان تاريخ الأدب عبارة عن تراجم للأدباء والكتاب تخضع لنظام الطبقات أو القبائل أو الفنون ، وبعد الاتصال بأوربة فى العصور الحديثة والمعاصرة ، واهتمام المستشرقين بدراسة علوم الشرق وآدابه صار هذا الفن مقسما إلى عصور عدة ، وتطورت دراسته

---

[١] الأدب العربى فى العصر الجاهلى د. شوقى ضيف – ص ٩.

[٢] تاريخ الأدب العربى (الأدب القديم) عمر فروخ – ص٤٣.

تطورا ملحوظا، على أن مؤرخي الأدب وفي إطار هذا التطور المصحوب باهتمامهم بهذا الفن جعلوا تقسيمهم لعصور الأدب تابعا للعصور السياسية بما فيها من قيام الدول وسقوطها خاصة في الأزمنة القديمة . وعلى ضوء ذلك رأيناهم يقسمون تاريخ الأدب إلى هذه العصور :

١- العصر الجاهلي ، وهو السابق للإسلام بما يقرب من مائتي سنة على أكثر تقدير.

٢- العصر الإسلامي (ابتداء من الهجرة عام ٦٢٢م) إلى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) . وقد قسم البعض هذا العصر إلى قسمين الأول منها عصر صدر الإسلام ، والثاني عصر بني أمية ، ويفصل بينهما عام ٤٠هـ.

٣- العصر العباسي من ١٣٢هـ حيث قامت الدولة العباسية إلى سقوطها على يد التتار عام ٦٥٦هـ(١٢٥٨م) . وهذا العصر طويل جدا ، واعتورته مجموعة من الحوادث ، وقد قسمه البعض إلى قسمين يفصل بينهما عام ٣٣٤هـ(٩٤٥م) حيث استولى بنو بويه على الخلافة العباسية التي صارت مجرد اسم فقط وهذا ماسوف نسير عليه ونلتزم به . كما جعل البعض القسم الأول عصرين يفصل بينهما عام ٢٣٢هـ حيث انتهت خلافة الواثق ، وبالمقابل جعلوا القسم الثاني عصرين يفصل بينهما عام ٤٤٧هـ(١٠٥٥م) حيث دخل السلاجقة الأتراك بغداد . وهكذا صار العصر العباسي مقسما إلى أربعة أقسام أو عصور . كما توسع البعض فجعلوا عام ٣٣٤هـ ابتداء لعصر أطلقوا عليه عصر الدول والإمارات حيث استقلت بلدان كثيرة بمقاطعات كبيرة من الدولة العباسية مثل الحمدانيين في حلب والموصل ، والفاطميين في المغرب العربي ومصر والشام ثم الأيوبيين وغيرهم .

٤- العصر الأندلسي وقد بدأ مع القرن الثاني للهجرة ،واستمر لمدة ثمانية قرون وربما ذُكر مع العصر الأموي والعباسي.

٥- العصر العثماني ، ويبدأ بسقوط بغداد إلى النهضة الأدبية الحديثة التي تبدأ بنزول الحملة الفرنسية على مصر والشام عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) وربما سبق بالعصر المملوكي أو المغولي .

٦- العصر الحديث الذي يبدأ من التاريخ السابق إلى وقتنا الحاضر ، ونود أن نؤكد أن عصور الأدب الأخيرة ربما تختلف بين البلدان العربية الناطقة بالضاد ، ولكنها تمثل غالبيتهم خاصة تلك البلدان التي ابتليت بالاستعمار الغربي أو وقعت تحت سيطرة الخلافة العثمانية .

وقد رفض البعض – وهم قلة – نذكر منهم مصطفى صادق الرافعي- تقسيم الأدب إلى عصور حيث رأى في ذلك تبعية للغرب لأن هذا منهج المستشرقين ومن جاراهم من المستغربين وقال إن مايصلح لهم ليس بالضرورة صالحا لنا " فتاريخ الأدب في كل أمة ينبغي أن يكون منفصلا على حوادثها الأدبية لأنها مفاصل عصوره المعنوية "[١] .

ورأى الرافعي أن دراسة الأدب لاتكون وفق هذه العصور التي ذكرها في مستهل كلامه ، وإنما تكون وفقا للموضوعات والأبحاث والفنون، ففي دراسته لإحدى قضايا الشعر مثلا نراه يتتبع تلك القضية حتى يصل فيها إلى رأي معتمدا على عدد من الشعراء يطول الزمن بينهم ،وهذا مافهمته من كلامه الآتي إذ قال : " ولذلك رأينا الطريقة المثلى أن نذهب في تأليفنا مذهب الضم لا التفريق ، وأن نجعل الكتاب على الأبحاث التي هي معاني الحوادث لا على العصور ، فنخصص الآداب بالتاريخ ، لا التاريخ بالآداب

---

[١] تاريخ آداب العرب -جـ١- ص ١٨.

كما يفعلون"[١] ومع احترامى الكبير للإستاذ مصطفى صادق الرافعى رحمه الله ، وحبى له ، وإعجابى بكتاباته وآرائه ، ومؤلفاتـه الفريده كتاريخ آداب العرب، وإعجاز القرآن وتحت راية القرآن ووحى القلم وغيرها . نقـول مـع كل هذا الاحترام والتقدير نرى رأيه فى دراسة الأدب وتاريخـه صعبـا عسيرا، وأن التقسيم إلى عصور محددة قد بات به سهلا ميسورا ، ولا يمنـع ذلك من تعقب قضاياه مجردة من الزمن أو مسايرة له . وأما حكاية رفض هذا التقسيم لأنه من صنيع المستشرقين فإن ذلك أيضا غير مقنـع ، لأن رفض دراساتهم رفضا تاما ليس له مايبرره ، وإذا كان للمستشرقين جوانب سيئة (فى نظر البعض أو الكثيرين) فإن لهم بعض الجوانب التى استفدنا منها مثل تقسيمهم الأدب إلىعصور ، وإخراجهم للعديد مـن أمهات الكتب وهذه من البديهيات التى يعرفها المشتغلون بالأدب أو من أدركتهم حرفته فى العصر الحديث.

---

[١] المرجع السابق – ص ٢٤.

الباب الأول : دراسات في الشعر الجاهلي

الفصل الأول: الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين

الفصل الثاني: مصادر الشعر الجاهلي

الفصل الثالث: فنون الشعر الجاهلي

الفصل الرابع: خصائص الشعر الجاهلي

الفصل الخامس: أعلام الشعر الجاهلي

الفصل الأول

الشعر الجاهلى بين الرواية والتدوين

لقد كثُر الكلام ، وعمّ الخلاف بين مؤرخى الأدب حول تحديد المراد من الشعر ، وهذا شيئ طبعى ، لاعتماد الأدب على الذوق ، وخضوعه للميول والاتجاهات ، فيتعصب قوم للمعنى وآخرون للفظ ، وثالثون للمعنى واللفظ معا ، وزاد تقسيم القدماء وتحديدهم للشعر ، فوصل إلى ضروب أربعة كرأى ابن قتيبة[1] فى الشعر بعامة.

قال : " تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب...

ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه[2] "

ومما مثل به فى هذا الضرب قول أوس بن حجر:

أيتُها النفس أجْمِلى جزعاً إن الذى تَحْذَرينَ قد وقَعَا

وقول أبى ذؤيب الهذلى فى المفضلية التى يرثى فيها أولاده:

والنفسُ راغبةُ إذا رغبتها وإذا تُرُد إلى قليلٍ تقنعُ

ثم قال ابن قتيبة : " وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى ، كقول القائل :

ولما قضينا من منىً كلَّ حاجة ومسّح بالأركانِ من هوماسحُ

وشُدّتْ على حُدْب المهارى رِحَالُنا ولاينظر الغادِ الذى هو رائحُ

أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا وسَالتْ بأعناقِ المطىّ الأباطحُ

---

[1] هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المولود فى الكوفة سنة مائتين وثلاث عشرة من الهجرة والمتوفى سنة مائتين وست وسبعين ، وكان عالما باللغة والنحو وغريب القرآن ومن أشهر تصانيفه الشعر والشعراء، والمعارف، وأدب الكاتب، وعيون الأخبار.

[2] الشعر والشعراء جـ١ ص ٧٠ تحقيق أحمد محمد شاكر.

هذه الألفاظ كما ترى أحسن شئ مخارجَ ومطالعَ ومقاطعَ وإن نظرت (إلى) ماتحتها من المعنى وجدته : ولما قطّعنا أيام منى واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنعاء ، ومعنى الناس لاينتظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح"[1] .

وقال عن الضرب الثالث :" وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه كقول لبيد بن ربيعة :

ماعاتبَ المرءَ الكريم كنفسه والمرءُ يُصلِحه الجليس الصالح

هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق"[2] .

وذكر أمثلة أخرى ثم قال عن الضرب الرابع:

" وضرب منه تأخر معناه ، وتأخر لفظه ، كقول الأعشى فى امرأة

وفُوها كـأقـاحىّ غـذاه دائمُ الهَطْلِ

كما شيبَ براحٍ با ردٍ من عسل النَّحلِ"[3]

وذكر شواهد أخرى قال عن بعضها إنه منحول ، وعن البعض الآخر إنه بيّن التكلف ردئ الصنعة ، أو أنه من أشعار العلماء الذى ليس فيه شيئ جاء عن إسماح وسهولة.

وليس من منهجنا هنا أن نناقش كلام ابن قتيبة أو غيره، ولكننا نتساءل عن مدى إطلاق الشعر على منظومات النحو والصرف والمنطق وسائر العلوم ، وعند تأثير الوزن والقافية لدى متلقى الشعر ، وعن مقدار الإجادة فى المعنى الذى يمكن أن ينتهى إليه الأدباء والنقاد...

---

(١) السابق ص ٧٢ ،٧٣.

(٢) السابق ص ٧٤.

(٣) السابق ص ٧٥.

ونؤكد أن الشعر لايستقيم بدون المقياس الموسيقى الذى حدده العروضيون بعد أن انتهى العصر الجاهلى ، وأوشك عصر صدر الإسلام وبنى أمية على الانتهاء ... نعم لقد ظهرت موشحات وأزجال فيما بعد ذات تجديد فى الوزن ، وفى المعنى أيضا، لكن أصحابها لم يتخلوا أو يتحللوا تماما من موسيقى العروض ، وأوزان الخليل بن أحمد الفراهيدى (واضع علم العروض) ، ولم يتجاوزا الفرق الشاسع بين التجديد والتحلل .

أما منظومات النحو وغيره ، فيكفى القول فيها بأنها منظومات ، ولعل المعنى الجيد ، والخيال الوثاب واللفظ الحسن ، تفرق كلها بين النظم والشعر ، وما سمى الشعر شعرا إلا لمصاحبته للشعور والوجدان...

أما جودة المعنى فلها مقاييس عامة يمكن أن تعرض من خلال مايسمى بالنقد الموضوعى ، والمقاييس ليست كل شيئ ، فقد وجد النقد الذاتى الخاضع للذوق ، والذوق غير واضح ، وليس له تعريف محدد مثل الجمال تماما ... وإنما يخضع الاثنان لميول الإنسان نحو القراءة والفهم ، فضلا عن الاعتبارات الأخرى التى يؤمن بها ، وتشكل جزءا من توجهاته ومعتقداته فى ساحة النقد الأدبى .

وقد وضع الدكتور طه حسين تعريفا للشعر لم أر أخصر منه ، فلنكتف به ، ومن أراد مزيدا من البحث فليفعل ، قال .

" الكلام المقيد بالوزن والقافية ، والذى يقصد به إلى الجمال الفنى"[١] .

وكيف يتحقق الجمال الفنى ؟ بالمعنى الجيد واللفظ الراقى المعبر ، وبالخيال الوثاب المتدفق ، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا بمصادر الأدب فى عصوره المختلفة .

---

[١] من تاريخ الأدب العربى جـ١ ص٦٤ دار العلم للملايين.

والحديث عن الشعر الجاهلى يدفعنا إلى بعض التساؤل عن كلمة (الجاهلى) أو (الجاهلية) التى تطلق وصفا للشعر فى تلك الحقبة أو للعصر كله ونقول : إن الكلمة ليست من الجهل الذى هو بمعنى السفه والغضب والنزق ، وفى القرآن الكريم والحديث النبوى والشعر الجاهلى مايشهد على هذا المدلول ، قال تعالى:

" وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" (الفرقان ٦٣).

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى ذر الغفارى عندما عّير رجلا بأمه " إنك امرؤ فيك جاهليّة" (حديث رواه البخارى ومسلم).

وقال عمرو بن كلثوم:

ألا لايجهلن أحدٌ علينا   فنجهلَ فوقَ جهْل الجاهلينا

كما زاد الاضطراب فىعقيدة الجاهليين ، وبالغوا فى تعلقهم بأصنامهم التى لاتقدم ولا تؤخر ، فاستحق عصرهم لما امتلأ من معتقدات دينية باطلة ، وأمية عقائدية جاهلة ، أن يوصم بهذا الوصف ومن المؤكد أن الشعر العربى فى العصر الجاهلى قد سبق بالعديد من المحاولات قبل أن يستوى على هذه الصورة التى نقرؤه عليها الآن ، لكن هذه المحاولات – للأسف الشديد – لم تصل إلينا ، ولم نتعرف على كنهها وتاريخها.

أما بداية هذا الشعر فغير محدودة ، وطفولته مجهولة ضائعة ولتقرأ مقولة الجاحظ [1] " وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن أول من نهج سبيله، وسهل الطريق إليه : امرؤ القيس بن حُجْر، ومهلهل بن ربيعة ....

---

[1] أديب عباسى مشهور (ت ٢٥٥هـ) من رؤساء المعتزلة وله مؤلفات لايستغنى عنها باحث فىاللغة والأدب وسائر العلوم مثل (البيان والتبيين) و (الحيوان) و (البخلاء) وغيرها .

ثم قال: فإذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له . - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام "[١] .

ولقد تبوأ الشعر فى العصر الجاهلى مكانة كبيرة ، فلم يقتصر دوره على الوجدانيات والمشاعر وذكر الخمر ، بل تخطاها إلى ذكر المفاخر ، وتسجيل المعارك ، ورصد الحوادث ، وتصوير البيئة ، وتعقب الأنساب ، ولذلك سمى هذا الفن الراقى بحق (ديوان العرب).

ونكرر الأسف لضياع الكثير من هذا الشعر لعدم تدوينه ، ولا عتماد الجاهليين على الرواه فى حفظه ونقله إلى الأجيال التالية ، ولاستشهاد عدد كبير من هؤلاء الرواة بعد ظهور الإسلام ، ولانشغال الكثيرين عن هذا الفن بالفتوح الإسلامية التى سبقت مرحلة التدوين .

وقد حرصت القبائل والشعراء والكثيرون من الرواة الحفظة على التمسك به بقدر ما استطاعوا .... وإلا لضاع ما تبقى من هذا التراث الغالى ضياعا تاما.

قال ابن سلام:

" فلما كثُر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير "[٢] .

وحول المعنى نفسه قال أبو عمرو بن العلاء : " ما انتهى إليكم مما حاكت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير "[٣] على

---

[١] الحيوان جـ١ ص ٧٤ طبعة مصطفى الحلبى بمصر.

[٢] طبقات فحول الشعراء ص ٢٢.

[٣] السابق جـ١ص ٢٥.

أن هذه الكثرة موضع شك وارتياب عند بعض القدماء المنصفين من أمثال ابن سلام الجمحى الذى بحث قضية الانتحال فى الشعر الجاهلى بحثا فريدا متميزا.

رواية الشعر الجاهلى .

مارست بعض القبائل العربية القديمة نوعا من الحرص على الشعر الجاهلى لماله من قيمة ومنزلة عندهم ، وذلك بروايته وتقييده وتدوين القليل منه ، ولعل فى القول بتعليق مجموعة من القصائد المشهورة على أستار الكعبة المشرفة مايؤكد تلك البداية المتقدمة لكتابة الشعر وغيره من العهود والمواثيق .

وتنشط محاولات جمع الشعر وكتابته فى أوائل القرن الهجرى الثانى بعد اختيار مايصلح منه للتدوين ، ويبدأ الرواة المحترفون فى البصرة والكوفة مع أوائل العصر العباسى بتدوين هذا الشعر وتسجيل أخبار العرب وأيامها.

ويقول الدكتور شوقى ضيف عن هؤلاء المحترفين : " وأهم هؤلاء الرواة أبو عمر بن العلاء وحماد الرواية ، وخلف الأحمر ومحمد بن السائب الكلبى والمفضل الضبى ، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو ، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحيانا ليستقى الأشعار والأخبار الجاهلية من ينابيعها الصحيحة ، وكان بين البدو أنفسهم من هاجر إلى الكوفة والبصرة حيث هؤلاء الرواة العلماء ليمدهم بما يريدون"[1] .

وقد عرف الأدب العربى مجموعة من الرواة المتقدمين الذين قاموا بدور كبير فى إيصال هذا الفن إلى الأجيال التالية ، وكان الفرزدق وهو شاعر أموى من رواة الشعر الجاهلى الذين يحفظونه ويرددون أعلامه

---

[1] الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ١٤٨.

وأشعاره ، وكان زهير بن أبى سلمى رواية لأوس بن حجر ، كما كان الحطيئة وكعب بن زهير راويتين لزهير ، كما كان هُدْبه من خشْرَم راوية للحطئية، وكان جميل بن معمر راوية لهُدبة ، ثم روى كثير عزة شعر جميل، وهكذا وُجد للشعر الجاهلى رواة يحفظونه ويذيعونه فى الناس حتى وصل إلى مرحلة التدوين.

ولم يكن رواة القرنين الثانى والثالث على درجة واحدة من الأمانة والحرص مما دفع ابن سلام للتصدى لقضية الوضع والنحل فى الأخبار والأشعار الجاهلية ، ويأتى فى مقدمة الثقات أبو عمرو بن العلاء والمفضل الضبى والأصمعى ، وانتقلت الروايات والمدونات إلى كتب الشعر التى بقيت مصادر ومراجع للأدب الجاهلى كله.

الفصل الثانى

مصادر الشعر الجاهلى

ليس للشعر الجاهلى ديوان أو مصدر واحد يمكن أن يرجع إليه القارئ ، فيتعرف عليه ، وإنما نجد هذا الشعر موزعا فى العديد من المصادر وبخاصة تلك التى جمعها وأعدها الأدباء والرواة ابتداء من منتصف القرن الثانى للهجرة ، فالشعر الجاهلى - كما سبق القول - ضاع منه الكثير ، وبقى القليل .

وهذا القليل موزع بين عدة مصادر لايمكن أن نستوعبها ، وأن نأتى على آخرها ، وإنما سنعرض -بإذن الله- لأهم هذه المصادر.

أولا - المعلقات:-

تعد القصائد السبع الطوال التى عُرفت بالمعلقات أشهر عيون الشعر العربى فى الجاهلية ، وهى من أجمل الشعر الجاهلى وأعذبه ، وهى صورة لطبائع الحياة العربية القديمة .

وقد اختلف الناس حول سبب تسمية هذه القصائد بالمعلقات ، واختلفوا حول تعليقها على أستار الكعبة وعدم تعليقها ، واختلفوا أيضا فى رواياتها وأبيات كل منها وعدد شعرائها .

والمشهور أن الذى جمعها هو حماد الرواية (ت عام ١٥٥هـ)[١] .

وقال عنها : (هذه هى المشهورات) ، فسميت القصائد المشهورة ، وقال عنها :(السبع الطوال) نقلا واقتباسا من الحديث النبوى (أعطيتُ مكان

---

[١] تراجع ترجمته بمعجم الأدباء لياقوت الحموى جـ١٠ ص ٢٥٨.

التوراة السبع الطوال) وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والسابعة إما يونس أو يوسف أو الكهف). كما سماها حماد أيضا (السموط) أى القلائد ، وعرفت واشتهرت بالمعلقات ... لماذا ؟

قال مصطفى صادق الرافعى : (لأن العرب اختارتها من بين أشعارها فكتبوها بالذهب على الحرير وقيل بماء الذهب فى القباطى (جمع قبطية - بالكسر والضم - وهى ثياب إلى الرقة والدقة والبياض ، كانت تتخذ بمصر من الكتان) ثم علقوها على أركان الكعبة ، وقيل فى أستارها ، وزاد بعضهم أنهم كانوا يسجدون لها كما يسجدون لأصنامهم ...)[1] .

ولم يذكر حماد الراوية مسألة تعليقها على الكعبة ، كما لم يذكرها أيضا أبو زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب (ت ١٧٠هـ) كما لم يذكر المفصل الضبى (ت عام ١٦٨ هـ) شيئا حول تعليقها ، وسماها (السبع الطوال) .

ويُعد ابن الكلبى (راوية ونسابة) وتوفى (٢٠٤ هـ) أو (٢٠٦ هـ) أول من ذكر حكاية تعليق هذه الأشعار ، قال :

(أول شعر عُلق فى الجاهلية شعر امرئ القيس ، علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى يُنظر إليه)[2] ، ثم جاء الجاحظ والمبرد (وهما مشهوران) فلم يذكر أمر التعليق على الكعبة ، ولم يذكر ابن قتيبة (صاحب كتاب الشعر والشعراء) كلام بن الكلبى فى القول بتعليق شعر امرئ القيس ، وجاء أبو الفرج الأصفهانى (صاحب كتاب الأغانى) ، فلم يذكر شيئا حول هذه القصائد.

---

(١) تاريخ ادب العرب جـ٣ ص١٨٣.

(٢) السابق جـ٣ ص١٨٤.

وممن قالوا بتعليق هذه القصائد على الكعبة أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد ، قال :

(قد مضى قولنا فى أيام العرب ووقائعها وأخبارها ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ، إذ كان الشعر ديوان خاصة العرب ، والمنظوم من كلامها ، والمقيد لأيامها، والشاهد على حكمها ، حتى لقد بلغ من كلف العرب به ، وتفضيلها له ، أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة ، وعلقتها بين أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير . والمذهبات سبع ، وقد يقال كلها المعلقات)[1] .

وقال ابن رشيق فى كتابه العمدة :

(وكانت المعلقات تسمى المذهّبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت فى القباطى بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء ، وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشعر يقول : علقوا لنا هذه لتكون فى خزانته)[2] .

وقال ابن خلدون بالتعليق أيضا وهو (أديب ومؤرخ وفيلسوف اجتماعى) وقد نفى أبو جعفر (أحمد بن محمد النحاس) التعليق تماما ، ت(عام ٣٣٨) وكان معاصرا لابن عبد ربه ، وحمل على الذين قالوا به ، ومن كلامه عن حماد بن ميسرة بن المبارك (الرواية) ماذكره ياقوت قال :

---

[1] العقد الفريد جـ٦ ص١٠٣ تحقيق محمد سعيد العريان طبعة دار الفكر.

[2] العمدة جـ١ ص ٩٦ طبعة درا الجيل - بيروت ١٩٧٢ (الطبعة الرابعة).

(وذكر أبو جعفر أحمد بن النحاس أن حمادا هو الذى جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ماذكره الناس أن من أنها كانت معلقة على الكعبة)[١] .

وهكذا بدا لنا أن القدماء قد اختلفوا حول تعليق هذه القصائد وعدمه وإن مال أكثرهم وأسبقهم فى الزمن إلى النفى وعدم الإثبات ، ولم يقل بالتعليق إلا القليل من المتأخرين ، كما سرى هذا الاختلاف إلى الأدباء والنقاد من المستشرقين والعرب.

قال بروكلمان: (وزعم المتأخرون أنها سميت معلقات ، لأنها كانت معلقة على الكعبة لعلو قيمتها ، ولكن هذا التعليل إنما نشأ من التفسير الظاهر للتسمية وليس سببا لها كما هو رأى نولدكه)[١] أما أكثر المعاصرين فينفون التعليق ويرون أنه من الأخبار الموضوعة مثل مصطفى صادق الرافعى[٢] وشوقى ضيف[٣] ناهيك عن الدكتور طه حسين الذى شك وارتاب فى الشعر الجاهلى كله ، وليس تعليق مجموعة من القصائد على أستار الكعبة فحسب ، ويبقى بعض المحدثين فى الحكم على هذه القصائد فلا يستبعدون الكتابة والتعليق مثل ناصر الدين الأسد[٤] وعمر فروخ[٥] .

ولا أود أن أطيل فى بحث هذه القضية التى قتلها بحثا كثير (من المعاصرين) وأكتفى بما ذكرت من نقول عن القدماء والمحدثين لأصل إلى خلاصة الرأى فى هذا الموضوع.

---

(١) معجم الأدباء جـ١٠ ص٢٦٦.

(١) تاريخ الأدب العربى جـ١ ص ٦٧ طبعة دار المعارف.

(٢) تاريخ الأدب العربى جـ٣ ص ١٨٣.

(٣) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص١٧٦.

(٤) مصادر الشعر الجاهلى من ص ١٦٩ إلى ص١٧٢.

(٥) تاريخ الأدب العربى جـ١ ص ٧٥.

١- إن هذه القصائد سميت بالمعلقات ، لأنها كتبت بماء الذهب على القباطى، وعلقت على أستار الكعبة .

٢- أو أنها سميت بذلك لنفاستها وعلو قيمتها أخذا من كلمة العِلْق بمعنى الشئ النفيس.

٣- أو أنهم عَلَّقُوها فى الذهن بمعنى حفظوها عن ظهر قلب ، وبالأخذ بإحدى الوجهتين الثانية والثالثة تعد مسألة التعليق على الكعبة فرية أو أسطورة فسرت بها الكلمة تفسيرا خاطئا ، ثم راجت ، فتعلق الناس بها.

أما من قالوا بالتعليق فحجتهم أن تعليق المخطوطات على الكعبة ليس بمستنكر، فقد علق القرشيون (مثلا) صحيفة فى جوف الكعبة ، وهى التى قاطعوا فيها بنى هاشم إلى أن أكلتها الأرضة (حشرة) ولم يبق بها إلا اسم الله أما الذين نفوا التعليق فحجتهم أقوى إذ قالوا : لو وجد هذا التعليق لذكره الناس ، وأشاروا إليه فى القرنين الأول والثانى من الهجرة ، ولما احتاجت هذه القصائد إلى حماد حتى يجمعها ويعرف بها ، ويقدمها للناس على أنها السبع الطوال ، ولو علقت يقينا لما اختلف الناس فى عددها وأسماء أصحابها، ورأى هؤلاء الأقرب للقبول.

أما هذه القصائد السبع التى ذكرها حماد فأصحابها هم :

١- امرؤ القيس وأول معلقته :-

قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حبيبٍ ومَنْزِلِ ... بسِقْطِ اللِّوىَ بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فتُوضِحَ فالمِقْرَاةِ لم يَعْفُ رَسْمُها ... لِمَا نَسَجَتْهَا من جنوبٍ وشَمْألِ

٢- طَرَفَة بن العبد وأول معلقته :-

لخولةَ أطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تلوحُ كباقى الوشمِ فى ظاهِرِ اليَدِ

وقوفاً بها صحبي علىّ مطيّهمْ | يقولون : لاتهلكْ أسىً وتجلّد

٣- زهير بن أبى سلمى وأول معلقته:-

أمِنْ أم أوفى دِمنةٌ لم تكلّم | بِحَومانة الدرّاج فالمتثلم

ودارٌ لها بالرقمتَين كأنها | مراجيعُ وشمٍ فى نواشرِ معْصَم

٤- لبيد بن ربيعة وأول معلقته :-

عفتِ الدّيارُ محلُّها فمُقامُها | بمنًى تأبّد غَولُها فرِجامُها

فمدافعُ الرّيان عُرّىَ رسمُها | خلَقاً كما ضَمِنَ الوحِيّ سلامُها

٥- عمرو بن كلثوم وأول معلقته :-

ألا هُبّى بصَحنِكِ فاصبَحينا | ولا تُبقى خمورَ الأندَرينا

مُشعشَعةً كأن الحَصَّ فيها | إذا ما الماءُ خالطَها سَخِينا

٦- عنترة بن شداد وأول معلقته :-

هل غادَرَ الشعراءُ من متردَّم | أم هلْ عرفتَ الدارَ بعد توهُّم

يادارَ عَبْلَةَ بالجَواءِ تكلّمى | وعِمى صَباحا دارَ عبلةَ واسلَمى

٧- الحارث بن حلزة وأول معلقته :-

آذنتْنا ببينِها أسماءُ | ربَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثّواءُ

بعدَ عَهْدٍ لنا ببُرقةِ شمّا | ءَ فأدنى ديارِها الخَلْصاءُ

ولبيد بن ربيعة هو المخضرم الوحيد بينما الباقون كلهمْ جاهليون.

وقد جعل أبو زيد القرشى المعلقات سبعا أيضا ، ولكنه لم يذكر معلقتى عنترة والحارث بن حلزة ، ووضع مكانهما معلقتى الأعشى والنابغة.

٨- ومطلع معلقة الأعشى:-

وَدّعْ هُرَيْرَة إن الركْب مرتحِلُ

وهل تُطيق وَدَاعا أيها الرجلُ

غراءَ فَرعَاءُ مصقولٌ عوارضُها

تمشِي الهُوينَا كما يمشى الوَجى الوَحِلُ

٩- ومطلع معلقة النابغة الذبيانى :-

يادارَ مَيّةَ بالعـــلْيَاءِ فالسّندِ   أقْوَتْ وطالَ عليها سالِف الأبدِ

وقفت فيها أصيلا كى أسائِلها   عَيّتْ جوابا وما بالربْع من أحَدِ

وتعصب القرشى لرأيه فقال: (من قال إن السبع الطوال لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة).

ثم جاء التبريزى المتوفى عام (٥٠٢هـ) فجمع بين الروايتين أى أنه ذكر القصائد التسع ثم أضاف إليها واحدة وهى لعَبِيد بن الأبرص فصارت المعلقاتَ عنده عشر قصائد.

١٠- ومطلع قصيدة عبيد بن الأبرص :-

أقفَر من أهله ملحوبُ   فالقُطَبِيّاتُ فالذّنُوبُ

فـــرَاكِسٌ فَثُعالباتٌ   فذات فِرقَيْن فالقليبُ

وقد نهض كثيرون بشرح المعلّقات (مع مراعاة الاختلاف فى أعدادها) منهم أبو زيد القرشى (يقال انه من رجال القرن الثالث الهجرى) فى الكتاب المنسوب إليه (جمهرة أشعار العرب) وتسمى عنده (السُموط) وهى سبع قصائد .

وشرحها أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) والثعالبي (ت٣٥٦هـ) والبطليوسي (ت٣٩٤هـ) والزوزني (٤٨٦هـ) والتبريزي الذي قال في مقدمة شرحه :

(سألتني أدام الله توفيقك أن ألخص لك شرح القصائد السبع مع القصيدتين اللتين أضافهما إليها أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوي قصيدة النابغة الذبياني الدالية ، وقصيدة الأعشى اللامية – وقصيدة عبيد بن الأبرص البائية تمام العشر)[١] وشرحها غير هؤلاء كثيرون من القدماء والمحدثين .

ثانيا – المفضليات:–

المفضليات مجموعة من القصائد اختارها المفضل بن محمد الضبي (الكوفي) الذي يعد واحدا من أشهر الرواة في القرن الثاني للهجرة (ت١٦٤هـ) بعد أن طلب منه أبو جعفر المنصور اختيار مجموعة من القصائد لابنه محمد المهدي ونسبت إلى المفضل ، فسميت (المفضليات):

(وهي من أجود الشعر ، وتعد أقدم مجموعة صنعت في اختيار الشعر العربي ، فلم يؤثر عن العرب شئ من هذا الاختيار إلا مايروى من اختيار العرب في جاهليتهم للقصائد المعلقات ...)[٢] .

ورواها عن المفضل تلميذه أبو عبد الله محمد بن الأعرابي ، وشرحها أبو محمد القاسم بن الأنباري ، وأبو زكريا التبريزي.

---

[١] شرح القصائد العشر للتبريزي تحقيق عبد السلام الحوفي مطبعة دار الباز بمكة المكرمة .

[٢] من مقدمة التحقيق لشرح التبريزي للمفضليات الذي صنعة على البجاوي طبعة دار نهضة مصر .

ولم يتفق الرواة على عدد المفضليات ، فذكر ابن النديم فى (الفهرست) أنها مائة وثمان وعشرون قصيدة رواية ابن الأعرابى وهكذا شرحها التبريزى.

ويقال انها كانت ثمانين حسب رواية الأخفش (عند بداية الاختيار) ، ثم أضاف إليها الأصمعى (من البصرة) أربعين وأضاف إليها تلاميذه . ثمانى قصائد ولا يمكن معرفة الأصلى من الزائد فىالقول بهذا الرأى ، وقيل فيها غير ذلك[1] .

أما نسبة القصائد المذكورة إلى أصحابها فهى نسبة صحيحة غالبا ، ويلتقى مع (الأصمعيات)[2] فى تسعة عشرة قصيدة ، وهذا مايشفع للرأى القائل بتدخل الأصمعى بالإضافة إلى أصل المفضليات.

وشعراء هذه المجموعة سبعة وستون شاعرا منهم سبعة وأربعون جاهليا ، وعشرون مخضرما وإسلاميا.

ومن شعراء المفضليات مسيحيان ومجهول من اليهود وامرأة من بنى حنيفة وقد قال الدكتور شوقى ضيف منوها بقيمة هذه القصائد:

(ولو لم يصلنا من الشعر الجاهلى سوى هذه المجموعة الموثقة لأمكن وصف تقاليده وصفا دقيقا ، فقد مثلت جوانت الحياة الجاهلية ودارت مع الأيام والأحداث وعلاقات القبائل بعضها ببعض وبملوك الحيرة والغساسنة ، وانطبعت فى كثير منها البيئة الجغرافية وقد جاء فيها غير قليل من الكلمات المندثرة التى لم ترد فى المعاجم اللغوية على كثرة ما أثبتت من الألفاظ المهجورة مما يرفع الثقة بها ويؤكدها)[3] .

---

[1] انظر تاريخ الأدب العربى - كارل بروكلمان جـ١ ص٧٣ .

[2] أختيارات الأصمعى وسيأتى الحديث عنها.

[3] تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص١٧٧ ، ١٧٨.

ثالثا - الأصمعيات:-

تنسب الأصمعيات إلى راويها وجامعها وهو الأصمعي (ت٢١٦هـ) وعدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتان وتسعون لواجدو سبعين شاعرا منهم أربعون جاهليا حسب بعض الروايات[١] ، بينما اشتملت بعض مخطوطاتها على اثنين وسبعين قصيدة ومقطوعة ، وعدد شعرائها واحد وستون أكثرهم من العصر الجاهلي[٢] ، وكن الرشيد قد طلب من الأصمعي أن يختار قصائد من عيون الشعر القديم ليتعلمها ابنه الأمين ويدرب بها ، فاستجاب الأصمعي لهذه الرغبة ونسبت القصائد والمقطوعات إليه ولم تلق هذه المجموعة مالقيته المفضليات من الذيوع والشهرة ، وذلك لقلة غريبها وعدم ذكر القصائد كاملة إذ كان الأصمعي يختار من القصائد بعض أبياتها ، كما أنها اجتمعت مع المفضليات فى مخطوط واحد.

وهذا ما صنعه أيضا الأخفش الأصغر فجمع بين المفضليات والأصمعيات فى كتاب واحد ، وعلق عليها شرحا و يفسر الغريب ، ويوضح بعض المعانى البعيدة مكان ما سمى بالاختيارين[٣] .

رابعا - جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى:-

جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام كتاب مشهور لجامع رواية غير معروف هو أبو زيد محمد بن ابى الخطاب القرشى وهى تسع وأربعون قصيدة ، وكل سبع منها تحمل اسما خاصا بها وهى (المعلقات) ، وشعراؤها من الطبقة الأولى وأولهم امرؤ القيس ثم المجمهرات وأولها

---

(١) السابق ص١٧٨.

(٢) تاريخ الادب العربى (كارل بروكمان) جـ١ ص ٧٤.

(٣) انظر كتاب الاختيارين للأخفش الأصغر طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤.

قصيدة عنترة بن عمرو والتى لم يذكرها بين المعلقات ثم المنتقيات أى المختارات وأولها قصيدة للمسيب بن علس وتأتى بعدها المذهبات التى تستحق أن تكتب بماء الذهب وهى لشعراء الطبقة الرابعة ، وأولها قصيدة لحسان بن ثابت ثم المراثى وأولها قصيدة أبى ذؤيب الهذلى ، والتى تبدأ بقوله :-

أمِنَ المنَوُن ورَيْبها تتوجَعُ   والدهُر ليسَ بمُعْتبٍ مَنْ يَجْزَعُ

وأخر قصيدة فى هذه المجموعة من عيون المراثى لمالك بن الريب المازنى التى يرثى فيها نفسه ، فيقول :

ألاليتَ شعرى هل أبيتن ليلةً   بجنب الغَضَى أزجى القلاص النّواجيا

أما المشوبات فهن (اللائى شابهن الإسلام والكفر)[١] وأولها قصيدة النابغة الجعدى والتى تبدأ بقوله:

خليلىَّ عُوجا ساعةً وتهجَّرا   ولوما على ما أحدث الدهُر أو ذرا[٢]

والطبقة السابعة والأخيرة لشعراء الملحمات وهم سبعة الفرزدق وجرير والأخطل وعبيد الراعى (النميرى) وذو الرمة والكميت والطرماح بن حكيم وهم من الشعراء الإسلاميين .

أما ترتيب شعراء الجمهرة فى الطبقات المذكورة فلا يعبر إلا عن وجهة نظر أبى زيد القرشى أو راويه الذى لم يتفق عليه القدماء والمحدثون كما يتميز هذا المصدر المهم للشعر الجاهلى بوجود مقدمة أدبية نقدية مفيدة سبقت القصائد المختارة.

---

(١) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ٩٨ تحقيق على البجاوى طبعة دار نهضة مصر.

(٢) تهجرا : سيرا فى الهاجرة .

خامسا – دواوين الحماسة:-

وأشهر ديوان الحماسة لأبى تمام (ت٢٣١هـ) الذى اختار فيه نماذج عديدة لشعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وعمد فيه إلى الإيجاز فاكتفى من القصيدة بعدد من الأبيات ، فجاءت مختاراته فى صورة مقطوعات يقول عنها أحمد أمين :(ففى الحق أن اختيار أبى تمام كان اختيارا موفقا ، لأن جامعه شاعر ممتاز مكنه شعره من أن يختار أحسن ما تقع عليه عينه ، وما تسمعه أذنه ، وهو إلى جانب ذلك شاعر كبير من شعراء المعانى ، فكان هذا أيضا محور اختياره ولذلك فقد يقرأ القصيدة الطويلة كلها ، فيعجبه منها معنى أو معنيان ، فيختارهما من بين القصيدة الطويلة ، وإذا لم يكن بينهما رابط ربط بينهما ، وإذا كانت هناك كلمة نابية غيّرها بخير منها ، فكان مختارا ومنقِّحا فى وقت واحد)[1] .

وكان أبو تمام أسبق الذين اختاروا الشعر ، وقسموه إلى أبواب ، فقسم ديوانه فى الحماسة إلى عشرة فنون كانت الحماسة أشهرها وأكبرها من حيث النماذج ، وجمع إليها اختياراته من المراثى والأدب والنسيب، الهجاء ، والأضياف والمديح ،والصفات والسير والنعاس والملح ومعرفة النساء) وذلك فى ضوء تقسيم المقريزى للفنون المختارة بينما جعلها أبو الفتح عثمان بن جنى (ت٣٩٢) والمرزوقى (ت ٤٢١هـ) أحد عشر فنا ففصل فيها بين الأضياف والمدح حيث جعلا لكل منهما بابا خاصا به ، على أن أبا تمام لم يعتمد على الرواية فى اختياراته لهذا الديوان ، وإنما رجع إلى المراجع

---

[1] من مقدمة ديوان الحماسة بشرح المرزوقى تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧ط٢.

والدواوين التى كانت بخزانة الكتب عند أبى الوفاء بن سلمة فى العراق فى مناسبة ذكرها التبريزى فى مقدمة شرحه لهذا الديوان.

وقد عبّد أبو تمام الطريق لمن جاءوا بعده ، وساروا علىّ دربه فى اختيار الشعر تحت مسمى (ديوان الحماسة) مثل البحترى (ت٢٨٤هـ) وأبى عثمان سعيد الخالدى (ت٣٥٠هـ) وأبى بكر محمد الخالدى (ت٣٨٠هـ) صاحبى ديوان الحماسة المعروف بالأشباه والنظائر . وغيرهم .

سادسا – دواوين الشعراء.

قدم الأعلم الشنتمرى (ت٤٧٦هـ) شرحا لدواوين ستة شعراء جاهليين هم امرؤ القيس والنابغة ، وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة كما نقلت إلينا دواوين العديد من الشعراء الجاهليين سوى هؤلاءمثل أوس بن حجر وبشر بن أبى خازم والأعشى وعمرو بن قميئة وعبيد بن الأبرص ، وعمرو بن كلثوم ، والخرنق أخت طرفة والحارث بن حلزة ، وطفيل الغنوى ، وحاتم الطائى ، وقيس بن الخطيم وعروة بن الورد وعلقمة الفحل وعامر بن الطفيل ولبيد بن ربيعة العامرى وغيرهم ،فضلا عن دواوين القبائل مثل ديوان أشعار هذيل الذى شرحه أبو الحسن السكرى ، وأقل الشعراء فيه جاهليون وأكثرهم إسلاميون، ويمتاز بذكر الإسناد عند رواية القبائل.

سابعا – كتب الأدب:–

تمتلئ المكتبة العربية بالعديد من الكتب الأدبية التى تمثل إحدى مصادر الشعر الجاهلى مثل طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى والشعر والشعراء لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، والأمالى لأبى على القالى والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والعمدة لابن رشيق ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى

وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ، وغيرها من كتب الأدب والنقد واللغة والتراجم التى تعمر بالنماذج الأدبية الرائعة.

الفصل الثالث

فنون الشعر الجاهلى

يُعد أبو تمام أول من نهض بتقسيم الشعر إلى فنون أو موضوعات مختلفة عند جمعه لديوان الحماسة ، فقد قسمه إلى عشرة أبواب ، وجعل الحماسة واحدا منها ، ثم تتبعها القدماء أيضا ، فوصلوا بها إلى ثمانية عشر.

على أن القصيدة الجاهلية تشتمل فى الغالب على عدة فنون أو أغراض أو موضوعات مختلفة كالوصف والغزل والمدح والحماسة والفخر إلى غير ذلك من الأغراض التى تختلف اختلافا بسيطا من شاعر إلى آخر.

وقد توسع القدماء فى إحصاء هذه الأبواب وتوليدها حتى بلغت عند الشاعر ابن الحجاج (الهزلى) مائة وواحدا وأربعين باباً حسبما ذكر الثعالبى فى ترجمته[1] .

والقليل من الشعراء من جعل القصيدة فى فن واحد لايتعداه إلى سواه مثل قصيدة عروة بن الورد التى قال فيها.

اقلى علّى اللوم يابنه منذر   ونامى ،فإن لم تشتهى النوم فاسهرى

ذلك أن زوجة الشاعر قد عمدت إلى لومه وتقريعه لضيق رزقه ، فأجاب عليها مفتخرا ومعتزا بنفسه ، وقال لها : إنه لن يسعى إلى الغنى إذا كان منه مذلة له.

والقصيدة إذا كانت فى موضوع واحد قيل له فن ، وإذا اشتملت على عدّة موضوعات قيل لها أغراض ، وهذا الفرق البسيط ربما لايلتزم به أو أن

---

[1] راجع تيمة الدهر جـ٣ ص ٣٠ وما بعدها طبعة دار الكتب العلمية.

يكون الغرض أو الموضوع جزءا يتوصل به إلى الغرض الرئيسى وهو الفن فى ضوء ما ذكره عمر فروخ حيث قال : "الأغراض هى الموضوعات التى يتناولها الشاعر عرضا فى قصيدته، وهى عادة (أمور ممهدة) للفن (الغرض الرئيسى) الذى يرمى إليه الشاعر.

ولقد كان الوصف والنسيب فى القصيدة الجاهلية غرضين رئيسيين"[1] .

وقد تطلق الفنون ويراد منها الأبواب أو الموضوعات أو الأغراض

على أن الحديث عن الوحدة الموضوعية فى القصيدة الجاهلية من القضايا التى كثر الاختلاف حولها بسبب مايثار عن بعض القصائد التى يتناقض فيها الشاعر أحيانا ، فيقول كلاما فى أولها يتعارض به عما يثبته فى أخرها ، وليرجع من شاء إلى معلقة زهير بن أبى سلمى ، مع أنه واحد من عبيد الشعر ومحككيه فى الجاهلية .

وينظر البعض إلى القصيدة القديمة نظرة شاملة ، معتبرا مافيها من جزئيات ليس إلا تصورا عاما لهموم القبيلة ومشكلات الجماعة .

يقول الدكتور إبراهيم عبد الرحمن.

"فلم يكن النسيب والوقوف على الأطلال والرحلة إلا تعبيرا من خلال التجربة الفردية عن القضايا الوجدانية والروحية والحيوية للجماعة ولم يكن مادرج الدارسون على تسميته غرض القصيدة الأصلى ألا تصور لمشاركة الفرد فى أمور تلك الجماعة مشاركة مادية أو نفسية : فالنسيب والوقوف

---

[1] تاريخ الأدب العربى جـ١ص٨٠.

على الأطلال ووصف الرحيل والظعائن صور متكاملة لشعور عام بالفقد لم يكن خاصا بالشاعر وحدة بل كان شيئا من صميم حياة الجماعة نفسها "[١] .

ويخضع الحكم على موضوع القصيدة الجاهلية لكثير من الاختلاف فى وجهات النظر عند القدماء والمحدثين على السواء.

أهم الفنون الشعرية:-

١- الوصف

يعد الوصف أكثر الموضوعات أو الفنون ورودا فى الشعر العربى، فلا يكاد الشعراء يتركون شيئا يتصل بحيواتهم من قريب أو بعيد إلا وصفوه، وتناولوا جزئياته ، قال ابن رشيق:

" الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه "[٢] .

وقد وصف الجاهليون الخيل التى يركبونها ، والناقة التى يرتحلون عليها ووصفوا رحلاتهم إلى ديار المحبوبة ، وتوسعوا فىوصف الصيد إذ كانوا مغرمين به سواء أكان سبب رزقهم أم سبب لهوهم وعبثهم ، كما وصفوا الحروب وما يجرى فيها ، ونرى فى شعر أوس بن حجر وصفا دقيقا للسيف والرمح والقوس والدروع.

وأجاد أكثر شعراء الجاهلية فى وصف الطبيعة بما فيها من حياة أو جماد ، وتحدثوا عن الأطلال وجعلوها مطلعا لقصائدهم ، قال زهير فى أول معلقته.

---

[١] الشعر الجاهلى قضاياه الفنية والموضوعية ص ٣٥٤.

[٢] العمدة جـ٢ ص ٢٩٤ طبع دار الجيل الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م.

أمِنْ أم أوفى دِمنةٌ لم تكلَّم　　　بحَومــانة الــدُرّاج فالمتثَلم

ودار لها بالَّرقمتين كأنها　　　مراجيُع وشمٍ فى نواشرَ معصَم[1]

وقال عنترة :

هل غادر الشعراءُ من متَرّدم　　　أم هل عرفتَ الدار بعد توهم

أعياكَ رسمُ الدار لم يــتكلَّم　　　حــتى تــكلم كالأصم الأعجم

ولقد حَبَسْتُ بها طويلا ناقتى　　　أشكو إلـــى سُفْعٍ رواكد جُثَّم

يادارَ عبلةَ بالجَواء تــكلمى　　　وعِمِى صباحا دارَ عبلة واسلمى[2]

ووصفوا الخمر ومجالس الشراب ، وقد ابتدأ عمرو بن كلثوم معلقته بالحديث عن الخمر مختطا لنفسه منهجا متفردا فىمطلع القصيدة الجاهلية .

قال :

ألا هُبى بصحنِك فاصبَحيْنا　　　ولا تُبقى خمور الأندرينا

مشعشَعَةً كأن الحُصَ فــيها　　　إذا ما الماءُ خالطها سخينا

تجوُر بذى اللُّبانَة عن هواه　　　إذا ما ذاقَها حتى يلينا [3]

وتشهد بعنايتهم بوصف ما تقع أعينهم عليه فيما يعرف بالوصف الحسى ، وقد أجادوا فيه . وليرجع من شاء إلى ماقاله طرفة بن العبد عن

---

[1] ديوان زهير بن أبى سلمى ص ١٩ طبع المكتبة الثقافية بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٨م.

[2] ديوان عنترة ص ١١٧ طبع دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

[3] شرح القصائد العشر – للتبريزى تحقيق عبد السلام الحوفى ص ٢٥٤ طبع دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٥م.

ناقته ، حيث وصف كل أجزائها ، ولم يترك شيئا فى جسمها إلا ذكره وأبـان عنه.

كما يعد امرو القيس رائدا فى وصف الخيل ، ولعلنا لاننسى قوله :

وقد أغتدى والطيْر فى وكُناتها ** بـمنجردٍ قيد الأوابدِ هـيكل

مكّر مِفر مقبل مدبر معـا ** كجلمود صخر حطّهُ السيل من عل[1]

كما وصفوا الأشياء المتخيلة التى لاتدرك ، وأبرزوا كثيرا من خصائص النفس البشرية وما يعتريها من هموم وأحزان.

٢- الحماسة والفخر

أسهمت الحياة الجاهلية بما فيها من عقيدة مفككة وجفاف عام أن يشتد النزاع والقتال بين الجاهلين ، ولذلك صارت الحرب عندهم سنة متبعة ، وسجل التاريخ الأدبى عشرات الأيام التى أبلى فيها المقاتلون بلاء حسنا لصالح الجماعة أو القبيلة وتغنى الشعراء بأمجادهم وانتصاراتهم فى تلك الأيام ، كيوم ذى قار الذى كان بين قبيلة بكر (العربية) والفرس ، وكيوم حليمة الذى كان بين المناذرة (ملوك الحيرة) والغساسنة ملوك الشام ، وحليمة هى ابنة الحارث الغسانى التى كانت تُطيّب من مر بها من جند أبيها الذى تحقق فيها النصر لقومه ولذا قيل : (ما يوم حليمةَ بسر).

كما تعددت الأيام العربية فى حرب البسوس التى كانت بين بكر وتغلب ومكثت أربعين سنة ، ومثل يوم داحس والغبراء بين عبس وذبيان من قبيلة قيس ، وأشاد زهير بن أبى سلمى فى معلقته بالحارث بن عوف وهرم

---

[1] ديوان امرئ القيس – ص ١٩ طبع دار المعارف بمصر تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

ابن سنان اللذين سعيا بالصلح بين عبس وذبيان ، وذم الحرب ، ودعا للحب والسلام .

قال الأعشى فيانتصار العرب على الفرس في يوم ذي قار :

إذا أمالوا إلى النُشاب أيديهم ملِنا ببيضٍ فظل الهامُ يُختطف
وخيلُ بكر فما تنفك تطحنُهم حتى تولَوا وكاد اليُوم ينتصف
لو أن كل مَعَدّ كان شاركنا في يوم ذي قار ما أخطاهمُ الشرف[1]

وقد عمد كثير من الشعراء إلى بث القوة والشجاعة والبسالة في نفوس الأبطال ، ودفعهم إلى الحرب ، كما ساعد النظام الاجتماعي والصراع القبلي في توقد شعر الفخر عندهم ، إذ كان الشاعر يفتخر بنفسه ، أو بقومه، لما يتمتعون به من خصال حميدة كالشجاعة والكرم والنجدة وغيرها قال عمرو بن كلثوم (من بني تغلب):

لنا الدنيا ومن أضحى عليه ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا ما المَلْكُ سام الناس خسفا أبينا أن نُقر الخسف فينا
نسمَّى ظالمين وما ظلمنا ولكنّا سنبدأ ظالمينا
إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌ تخُر له الجبابرُ ساجدينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وظَهْر البحر نملُوه سفينا
ألا لايجهلن أحد علينا فنجهلَ فَوْقَ جهل الجاهلينا [2]

ويلاحظ توجه الشاعر إلى الفخر بقومه والإشادة بأمجادهم في أسلوب تسيطر عليه المبالغة والجهر بضمائر الجمع المتعاقبة .

---

[1] ديوان الأعشى ص ٣٦١ طبع مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٣م.
[2] شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٢٨٨.

٣- المدح:-

يُعد المدح من أكثر فنون الشعر انتشارا فى العصر الجاهلى وماتلاه من عصور ، وقد انقسم شعراء المديح إلى فريقين ، أولهما من يمدح الآخرين عن إعجاب واقتناع حيث يخلو كلامه من النفاق ، ويمثل هذا اللون المهلهل بن ربيعة وزهير بن أبى سلمى وهذا الأخير فضله عمر بن الخطاب، واعتبره شاعر الشعراء ...(لأنه كان لايعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه . قال الأصمعى: يعاظل بين الكلام : يداخل فيه . ويقال : يتبع حوشى الكلام، ووحشى الكلام والمعنى واحد)[1] .

وقال زهير فى قصيدة يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر :

أخى ثقة لاتتلف الخمر مالهُ ولكنه قد يهلك المالَ نائله

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله[2]

الفريق الثانى من شعراء المديح من يمدحون للتكسب مثل النابغة الذبيانى الذى تفرد بمدح النعمان بن المنذر ، والأعشى الذى كان ذا حظ عظيم ومقدرة متفردة فى هذا الفن ، فلم يمدح واحدا إلا رفعة ، ولا هجا أحداً إلا وضعه.

وقد تفرع عن المدح فن يسمى الاعتذار ، وتفوق فيه النابغة فى اعتذاره للنعمان ، قال فى المعلقة :

أنبئت أن ابا قابوس أوعدنى ولا قرارَ على زأرٍ من الأسد

---

[1] الأغانى جـ١ ص ٢٨٩ طبعة دار الكتب المصرية .

[2] الديوان ص٥٢ طبع المكتبة الثقافية بيروت .

مهلا فداءٌ لك الأقوامُ كلُّهمُ ... وما أثمِّرُ من مالٍ ومن ولدِ

لاتقذِفنِّى بركنٍ لاكِفاءَ له ... وإن تأثفك الأعداءُ بالرِّفَد[1]

كما نشأ من المدح فن آخر وهو العتاب الذى أجاد فيه المتلمس وذو الأصبع العدوانى.

٤- الرثاء :-

الرثاء بكاء على الميت ومديح له ، وقد كانت الفوارق بين المديح والرثاء قليلة ذكرها ابن رشيق فقال :

" وليس بين الرثاء والمدح فرق ، إلا أن يُخلط بالرثاء شئ يدل على أن المقصود به ميت"[2] .

وأجاد الجاهليون فى رثائهم لأبطالهم الذين قتلوا فى أيامهم المشهورة، أو الذين ماتوا بين أهلهم وذويهم .

ويعد دريد بن الصمة وأوس بن حجر وأبو داود الإيادى والخنساء من أشهر الشعراء الذين أجادوا فى العديد من المراثى، وقد حزن أوس بن حجر وبكى لفقد فَضَالة بن كَلَدَة ، فقال يرثية :-

أيتها النفسُ أجْمِلى جَزَعَا ... إن الذى تَحذرين قد وقَعا

إن الذى جمع السماحة والنـ ... جدة والحزم والقُوى جُمَعا

الألمعى الذى يظنُّ لك الظن ... كأنّ قد رأى وقد سَمِعا[3]

---

[1] الديوان ص ٥٢ طبع المكتبة الثقافية بيروت .

[2] العمدة جـ٢ ص ١٤٧.

[3] الديوان بتحقيق د/ محمد يوسف نجم ص ٥٣ طبع دار صادر سنة ١٩٧٩م.

ويرثى لبيد بن ربيعَة أخاه أرْبَدَ فى قصيدة جاء فيها :

وما المال والأهلون إلا وديعةٌ   ولا بدّ يوما أن تُرد الودائعُ

أما الخنساء فلم تبكِ على أحد مثل بكائها على أخيها صخر الذى رثته وحزنت عليه أشد الحزن.

٥- الهجاء:-

يعتمد الشعراء فى فن الهجاء على نزع الصفات الحميدة من القبائل أو الأفراد وإلصاق كل قبيح بهم خاصة إذا كان هذا القبيح منصرفا إلى خصالهم الخلقية، أما الصفات الجسمانية والخلقية فقد نزه الشعراء ألسنتهم عنها.

لقد كانت حياة العرب فى الجاهلية عامرة بالصفات الحميدة مثل الكرم والشجاعة والحلم ، ولذلك كان الهجاء موجها إلى سلب هذه الخصال من المهجويين ونفيها عنهم ، كما كان الشاعر الهجاء حريصا على معرفة تاريخ القبائل والأيام التى كانت عليهم ، والمساوئ التى لحقت بهم والنقائض التى ارتبطت بأنسابهم ، قال ابن رَشيق:

" وأجود ما فى الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض ، فأما ماكان فى الخلقة الجسمية من المعايب فالهجاء به دون ماتقدم"[١] .

فلم يكن الهجاء الجاهليّ يأخذ أسلوب السباب الذى ظهر عند شعراء النقائض فى العصر الإسلامى مثلا ،وإنما كانوا يهجون الأشراف .

---

[١] العمدة جـ٢، ص ١٧٤.

كمثل تلك الأبيات التى هجا بها النابغة الذبيانى عامر بن الطفيل (العامرى) فى رواية الأصمعى التى وردت بديوان النابغة وذكرها ابن رشيق فى العمدة وجاء فيها ما يأتى :-

قال عامر بن الطفيل للنابغة فى قصة :

ألا مَنْ مبلغ عنى زيادا | غداة القاعِ إذا أزف الضراب

وهى أبيات ، فلما بلغ هذا الشعر شعراء بنى ذبيان أرادوا هجاءه وائتمروا له، فقال لهم النابغة : إن عامرا له نجدة وشعر ولسنا بقادرين على الانتصار منه، ولكن دعونى أجبه ، وأصغر إليه نفسَه ، وأفضل إليه أباه وعمه ، فإنه يرى أنه أفضل منهما وأعيّره بالجهل ، فقال :

فإن يكُ عامر قد قال جَهْلاً | فإن مظنّة الجهل الشّبابُ[1]

فكن كأبيك ، أو كأبى براء | توافِقْكَ الحكومة والصَّوابُ[2]

ولا تذهبْ بحلمك طاميات | من الخُيلاء ليس لهن بابُ[3]

فإنك سوف تحلُم أو تناهى | إذا ماشبتَ أو شاب الغرابُ[4]

فإن تكن الفوارس يوَم حِسْيٍ | أصابوا من لقائك ما أصابوا[5]

فما إن كان من نسب بعيدٍ | ولكن أدركوك وهُم غِضابُ[6]

---

[1] الشباب مقرون به الجهل.

[2] أبو براء هو عم عامر بن الطفيل ، والحكومة : الحكم.

[3] طاميات : مرتفعات.

[4] يقصد بذلك أنه لايفلح حتى يشيب الغراب أى لايفلح أبدا .

[5] يوم حسى كان لبنى ذبيان على (عامر) وقتل فيه أخوه حنظلة بن الطفيل .

[6] لقد نال منهم مانالَه بسبب أنهم ليسوا من عشيرته ، وعاقبوه عندما أغضبهم .

فوارسُ من منوبِلةَ غير ميل ومُرَّة فوق جمعهُم العُقَاب[1]

وقد أثر هذا الشعر فى عامر بن الطفيل تأثيرا بالغا رغم خلوه من الفحش ، ولذلك قال : " ما هجانى أحد حتى هجانى النابغة جعلنى القوم رئيسا ، وجعلنى النابغة سفيها جاهلا وتهكم بى "[2] .

وقال الأعشى قصيدة يهجو فيها علقمة بن عُلاثة وكان من أشد الأبيات إيلاما له قول الأعشى:

تبيتون فى المشتى مِلاءَ بطونُكُم وجاراتكم غَرثَى يَبِتْنَ خمائِصا

حتى لقد زعم الرواة أن علقمة بكى حين سمعه وقال :

قاتله الله : أنحن كذلك "؟[3] أو أنه قال:" أنفعل ذلك بجاراتنا "؟

فالشاعر الجاهلى يحتاج فىهجائه إلى معرفة المثالب وكأنه مؤرخ يرصد حركة التاريخ وأيام القبائل التى كانت لهم أو عليهم ، ولذلك فالمغمورون منهم بعيدون عن ألسنة الهجائين لعدم تأثيرهم بالنفع أو الضر فى حركة الحياة.

ويعد زهير وطرفة والأعشى والنابغة أشهر الهجائين فى هذا العصر.

٦- الغزل والنسيب:-

بين الغزل والنسيب فرق بسيط ، فهما يتعلقان بالمرأة أو أنها موضوعهما ، لكن الغزل تعبير عن جمال المرأة، وذكر أوصافها الظاهرة والباطنة ، وغالبا ما يكون متعريا مكشوفا جارحا محرجا.

---

[1] منولة : امرأه من تغلب ، والعقاب الراية ، وانظر الديوان ص ١٠٩.

[2] العمدة جـ٢ ص ١٧٢.

[3] انظر ديوان الأعشى ص ١٩٨ ، ص ١٩٩ تحقيق الدكتور محمد محمد حسين.

أما النسيب فهو ذكر أخلاق المرأة ، والتعلق بها وتذكر أيامها ، وبثها الشوق والرغبة فى لقائها ، ووصف ما ظهر منها للأعين من غير تجريح.

فالحديث عن المرأة عند القدماء إما أن يكون مكشوفا فذلك هو الغزل، وإما أن يكون عفيفا فذلك هو النسيب.

ويمثل الغزل امرؤ القيس و المهلهل بن ربيعة والنابغة الذبيانى وطرفة بن العبد أما سائر الشعراء فلم يزيدوا (غالبا) على الأوصاف الطبيعية التى يشاهدونها وتقع أعينهم عليها . والعفة فى النسيب ترجع إلى عفة المعنى أو عفة اللفظ.

وذكر قدامة بن جعفر النسيب وفرق بينه وبين الغزل[1] وقال ابن رشيق : (والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد وأما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن)

وعنده أن الغزل غير التغزل ، ويرى أخرون أن الغزل والنسيب والتشبيب كلها بمعنى واحد أى أنها ألفاظ مترادفة ، وتطورت تلك الدلالة ، فغفل الكثيرون عن النسيب والتشبيب ، أوسكتوا عنهما واكتفوا بالغزل والذى كان معظمه فى الجاهلية بدويا عفيفا ، أما من تغزل من الجاهلين فكان يحب فى المرأة صفاتها الجسمية البارزة ، ويفضل أن تكون بدينة فخمة يضيق الباب عنها ، وكان الحضريون يحبون أن تكون المرأة رقيقة الخصر طويلة العنق ، بيضاء لاتصل إلى أن يضيق الباب عنها ، وكان بعض الشعراء يميل إلى امرأة واحدة ويسعى للظفر بها ، ويبقى على حبها حتى لو تزوجت مثل عنترة الذى أحب عبلة ، وأخلص لها ، وهام بها ، وبثها كل حبه وحنانه وكان يحدثها عن شجاعته وبأسه وكرمه من أجل أن يتقرب منها .

---

[1] انظر نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١٣٤ طبع دار الكتب العلمية بيروت .

قال امرؤ القيس :

مهفهفةٌ بيضاء غيرُ مُفَاضةٍ ترائبـها مـصقولةٌ كالسَّجنجل

كبكْرِ مقانِاة البياض بصُفرةٍ غذاها نميُر الماء غير المحَّلِل[1]

وقال عنترة :

يا دارَ عبلةَ بالجـواءِ تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

دار لآنسةٍ غضيضٍ طرفُها طوعَ العناقِ لـذيـذةَ المتبسَّم[2]

ويعد شعر الغزل من أكثر الفنون ورودا على ألسنة الشعراء فلا تكاد نجد شاعرا لم يتغزل سواء فى مطالع القصائد أم فى سائر أبياتها ، ذلـك لأن الغزل تعبير عن عواطف الرجل ومشاعره نحو المرأة ، وهى غريزة لاتنكر ولا تقاوم.

٧- فنون أخرى:-

فى الشعر الجاهلى فنـون أخـرى مثـل الشكوى ومثـل الأدب ويسـمى الحكمة وكان زهير بن أبى سلمى وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عَبَده وعبْده ابن الطبيب من أشـهر شـعراء الحكمـة فـى العصـر الجـاهلى ، وقـال علقمـة ملخصا رأيه وحكمته وتجاربه فى النساء:

فإن تسالونى بالنساء فإننى بصيرٌ بأدواءِ النساء طبيبُ

---

[1] مهفهفة : خفيفة اللحم لطيفة الخصر ، ضامرة البطن .
المفاضة : البدينة ، الترائب : جمع تربية وهى موضع القلادة من الصدر ، السجنجل : المرآة . البكر : البيضة الأولى من بيض النعام والـدرة لم تثقب ، والمقانـاة : الخلـط ، النمير : الماء العذب النامى فى الجسد ، المحلل : من الحلو أى لم يكثر حلـول النـاس عليه . الديوان ص ١٥.

[2] الديوان ص ١١٧.

إذا شاب رأسُ المرء أو قلّ مالُه فليس له فى وِدهن نصيب

وقال عبده:-

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يدركه والعيش شُحٌ وإنفاقٌ وتأميلُ

وقد زاد مؤرخو الأدب إلى تلك الموضوعات فنونا أخرى ، كما أرجع بعضهم تلك الموضوعات إلى لونين هما المدح والهجاء أو إلى موضوع واحد وهو الوصف ، كما سبق القول.

وإخيرا فإن إحصاء الموضوعات مسألة اعتبارية لايمكن البت فيها بالزيادة والنقص إذ أن الكثير منها يمكن أن يتلاقى ويمكن أن يتفرق ، وليرجع من شاء إلى كتاب العمدة لابن شيق أو إلى غيره من كتب القدماء والمحدثين ليرى مقدار الاختلاف فى الرأى حول مسألة بسيطة كتلك التى نتحدث عنها وهى تقسيم الشعر إلى موضوعات أو فنون .

الفصل الرابع

خصائص الشعر الجاهلى :

إن قدرا كبيرا من الخصائص الآتية لاترتبط بالشعر الجاهلى وحده، وإنما تسرى إلى هذا الفن فى عصوره اللاحقة ، فمثلا نرى مطالع القصائد فى الجاهلية تبتدئ بالغزل من واقع وصف الأطلال والديار التى كانت تسكنها المرأة المحبوبة ، ثم توالى هذا التقليد ، على أن هذه الخصائص يرجع بعضها إلى المعنى ، والبعض الآخر إلى اللفظ.

أولا : الخصائص المعنوية :-

١- الصدق الفنى :

أى أن يكون الشاعر صادقاً فى فنه ، مؤمنا به مقتنعا بما جاء فيه بصرف النظر عن مطابقته أو غير مطابقته ، فمثلا نقرأ فى معلقة عمروبن كلثوم:

قوله :

ونشربُ إن وردنا الماءَ صفوا ويشربُ غيرُنا كدِرًا وطينا

وقال :

ملأنا البحرَ حتّى ضاقَ عنّا وظهْر البحر نملؤه ، سفينا

إذا بلغ الفطامَ لنا صبىٌ تخرّ له الجبابُر ساجدينا

ذلك هو صدق الشاعر مع نفسه ، ولذلك أجاد التعبير عما تجيش به عاطفته ومشاعره وأحاسيسه ، وقد جاء الشعر البدوى أكثر صدقا من الشعر الحضرى ، لأن الأول يأتى نابضا صادقا بدون تصنع أو كلفة .

٢- *الغنائية :*

وهى صفة لازمة للشعر العربى ، إذ لم يعرف عند العرب الشعر القصصى أو التمثيلى اللذان عرفا عند الاغريق والرومان وغيرهما من الأمم الأوربية أما العرب فقد اتسم شعرهم بالغنائية التى تعنى اعتماد الشاعر على طبعه فى نقل ما يجيش به من أفراح وأتراح ، ولذلك صلح الشعر الجاهلى للغناء فقد تغنى الجاهليون بشعر السُلَيْك بن السلكة وعلقمة بن عبده والأعشى، وهذا الأخير بخاصة كان يعرف بصناجة العرب ، لأنه كان يوقع شعره على آلة موسيقية قديمة تعرف بالصَّنْج.

٣- *الإطالة والإستطراد:*

ربما يكون معنى الإطالة واضحا أما الاستطراد فالمقصود منه ، أن يخرج الشاعر من موضوعه الأصلى إلى موضوعات فرعية قد ترتبط بالمعنى الأصلى برباط ضعيف ، ونشأ عن ذلك التفكك الذى وصم به هذا الشعر ، وافتقد بالتالى إلى الوحدة الموضوعية حتى قيل إن القصيدة الجاهلية ليست قصيدة واحدة ، وإنما هى عدد من القصائد ضم بعضها إلى بعض ، ولعلك تلمس هذا بوضوح فى معلقة زهير بن أبى سلمى.

٤- *الإيجاز :*

قد تُفْهَم هذه الخاصية على أنها متناقضة مع سابقتها ، ولكن الإيجاز فى حدود المعنى المفهوم من الجملة أو البيت، أى التعبير عن الفكرة بقدر قليل من الكلمات ، أما الإطالة أو الاستطراد فهى تتلازم مع القصيدة كلها أو فى حيز عدد كبير من الأبيات ، فقالوا مثلا عن بيت امرئ القيس:

قفَا نبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

بسقْطِ اللوى بين الدخول فحوملِ

" إنه وقف وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى بيت واحد ".

٥-تكرار المعانى :

غلبت على الشعر الجاهلى نزعة المحاكاة والتقليد ، فربما تقرأ قصيدة وتتعرف على أفكارها ومعانيها ، ثم تأتى إلى أخرى فلا تجد فروقا كثيرة بين الاثنتين ، ولذلك كثر الاضطراب والشك فى نسبة العديد من القصائد إلى أصحابها ، ولو تفرد كل واحد منهم بمعانيه وأفكاره ، وصياغته، لما جرؤ واحد أن ينسب إلى نفسه ماليس له سواء أكان ذلك من صنيع الشعراء أنفسهم أو من فعل الرواة المتمرسين . فأوصاف الناقة والكلب والخيل وغيرها واحد لاتزيد ولا تنقص إلا بمقدار ضئيل ، وصارت معانيهم بذلك واضحة وبسيطة وغير معقدة .

٦- محدودية الخيال :

مع أن الشعر العربى شعر غنائى يعتمد على التشبيه والاستعارات، لكن الخيال فيه لايتجاوز حدود الطبيعة التى يتحركون فى دائرتها ، ولا ينفذون إلى ماوراءها، ولذلك لم تطل قصائدهم ، ولم يتجاوز المائتى بيت منها إلا القليل ، ولذلك ضاقت الزاوية أمامهم فعمدوا إلى التفصيلات الدقيقة فى أوصافهم ليستكملوا أجزاء الصور المركبة المترامية أمامهم ، وارجع إلى وصفهم، للمرأة والناقة والطبيعة فستجدهم لايتركون شاردة أو واردة إلا ذكروها ، وأمعنوا النظر فى تفصيلاتها .

<u>ثانيا : الخصائص اللفظية :</u>

١- غرابة الألفاظ وجزالتها :

لابد أن يكون معلوما أننا نحكم على ألفاظ الشعر الجاهلى من واقع معارفنا وإدراكاتنا فى العصر الذى نعيشه ، وإلا فالذى نحكم عليه اليوم

بالغرابة كان مألوفا ومستساغا للمتعاملين به سواء فى لغة الشعر أم فى لغة الحديث ، وقد حفلت المعاجم العربية بثروة لغوية كبيرة ، أهملناها بفعل الزمن وتطاول الأعصر ، وصار العرب فى موضع يستعملون قدرا بسيطا من الكلمات الصحيحة ، وأخرون فى موضع آخر يتعاملون بنفس القدر ، وثالثون فى مكان آخر يفعلون مثل غيرهم ، ويبقى قدر كبير من صحيح الألفاظ غريبا وغير مأنوس ، وكانت كلمات الشعر الجاهلى جزلة أى فخمة وذات جرس لتتلائم مع تلك الحياة الخشنة والطبيعة الجافة التى عاشها أجدادنا فى الجاهلية ، ولا شك فى أن للشعر الجاهلى قيمة كبيرة إن لم تكن فى معانيه ففى ألفاظه التى لازالت مادة أصيلة لشواهد اللغة والنحو والدين حتى اليوم.

٣- متانة التراكيب :

أى جريانها على قواعد اللغة والنحو. وهل استقامت علوم اللغة إلا من خلال هذا الشعر الذى اعتمد عليه اللغويون (وعلى غيره أيضا) فى تقعيد النحو والصرف والعروض وغيرها. على أن هذا مايجرى فى الغالب، إذ ورد فى الشعر الجاهلى بعض الأبيات المخالفة ، فصارت شاذة بين أخواتها على أن المخالفة للمقياس اللغوى ربما لاتؤثر فى فصاحة الكلمة من ناحية الاستعمال ، فكثير من الكلمات شاذة فى القياس فصيحة فى الاستعمال، ولو عمّ الاضطراب والمخالفة ، وسرت الفوضى فى المقاييس التى درج عليها الجاهليون.

أقول .... لو حدث ذلك لما صلح الأدب الجاهلى - والإسلامى أيضا- ليكون أساساً ومادة لقواعد اللغة الى تعامل معها العرب فى كل العصور.

٣ - التهذيب والتنقيح :

تتضح هذه الخاصية عند شعراء الحوليات الذين كانوا ينظمون قصائدهم ثم يحفظونها فى جعبتهم عاما كاملا ، يغيرون فى ألفاظها ويحككون فى صياغتها ، ولا يخرجونها للناس إلا بعد أن تستوى فى بناء متكامل ، وقد عرف هؤلاء الشعراء بعبيد الشعر نذكر منهم أوس بن حُجْر وزهير بن أبى سلمى والنابغة الذبيانى وطفيلا الغنوى وعلقمة الفحل . وظهرت ألقاب كثيرة لشعراء هذا الاتجاه ، فقد لقب امرؤ القيس بن ربيعة بالمهلهل ، ولقب عمرو بن سعد بالمرقش الأكبر ، كما لقب ابن أخيه (ربيعة ابن سفيان) بالمرقش الأصغر ولقب طفيل بالمحبّر ، وانتشرت ألقاب أخرى مثل النابغة (لأكثر من شاعر) والمثقب ، والمتنخل . وقد أُطلِقت هذه الألقاب على الشعراء الحريصين على الصقل والإجادة والتنقيح.

الفصل الخامس

أعلام الشعر الجاهلى وطبقاتهم

شغل القدماء بالمشاهير من شعراء الجاهلية ، فاختاروا أجود ما قالوا واهتموا به ، وتناقلوه ، أو احتفظوا به وسجلوه فى خزائنهم ، أو علقوه على أستار الكعبة كتلك القصائد المشهورة بالمعلقات ، وصار امرؤ القيس وزهير والنابغة محل اختلاف للتقديم عند العرب.

وقد صنف الأصمعى كتابا بعنوان (فحولة الشعراء) ، ولكن ليس له من القيمة مثل مالكتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحى الذى خضعت رؤيته فى تصنيف الشعراء إلى عامل الزمن ، فهم إما جاهليون وإما إسلاميون.

وقد قسم شعراء الجاهلية إلى عشر طبقات ، وذكر فى الطبقة الأولى امرأ القيس والنابغة (الذبيانى) وزهير بن أبى سلمى ، والأعشى ، جاعلا كل أربعة شعراء فى طبقة ، ثم أتبع هذه الطبقات العشر بطبقة أصحاب المراثى وعددها أربعة شعراء أيضا .

وجعل شعراء القرى العربية (المدن) فىطبقة وهم شعراء المدينة ومكة والطائف والبحرين ، ثم انهى اختياراته للشعراء الجاهليين بالحديث عن طبقة شعراء يهود ، وإن لم يلتزم فى بحثه عن هاتين الطبقتين بعدد الشعراء الذين حددهم فى الطبقات العشر الأولى ، ثم أكمل الكتاب بالحديث عن طبقات الشعراء الإسلامين .

لقد أخضع (الجمحى) اختياراته وتقسيماته للشعراء علىأساس المنزلة والمكانة – (حسب وجهة نظره) التى لم يضع منهجا ثابتا لها ، كما نظر

لعامل المكــان فـى اختياراتـه لشـعراء القرى ، ولعـامل الديـن فـى اختياراتـه لشعراء اليهود ، واشتهرت تلك الطريقة فى تقسيم الشعراء إلـى طبقـات إلـى أن تـم الانعتـاق منهـا فـى القرون التاليــة ، إلا أنــه مــن الثــابت أن بعــض الاختيـارات لمشـاهير الجاهليـة مـن الشـعراء لـم تتوقـف عنـد ذلـك المنهـج وظهرت العناية بشعراء القبائل وبالمشهورين من الشعراء الصعاليك.

وقد انصرف الناس (بعد عصر ابن سلام) إلى كتب الترجمة للشعراء والتى تجعل كل واحد منهم مستقلا بذاته ، وغير مقرون بمن يختلف معه فى المنزلة أو المكانة فى الفن الشـعرى ، ومـن تلـك الكتـب : الشـعر والشـعراء لابن قتيبة ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، وإرشاد الأريـب إلـى معرفـة الأديب والمعروف بمعجم الأدباء لياقوت الحموى.

إن أكثر المختارين فى طبقات ابن سلام هم الأعلام الحقيقيون للشـعر الجاهلى ، وقد كانت رؤية الرجل فى الترتيب والجمع بين عدد من الشـعراء فى طبقة واحدة غير واضحة ، فشعراء المعلقـات موزعـون بيـن العديـد مـن الطبقات ، فأربعة مجتمعون فـى الطبقـة الأولـى ، رغـم اختـلاف النـاس فـى الحكم عليهم ، ولبيد بن ربيعة فى الطبقة الثالثة ، وطرفة بـن العبـد ، وعبيـد ابن الأبرص فـى الطبقـة الرابعـة ، وعمـرو بـن كلثـوم والحـارث بـن حلـزة وعنترة بن شداد فى الطبقة السادسة .

الباب الثاني

امرؤ القيس في حياته وشعره

الفصل الأول

كندة بين القبيلة والدولة

كندة

عاش المناذرة اللخميون على مشارف العراق فى مملكة الحيرة ، التى دانت بالولاء لامبراطورية فارس العظيمة ، بينما استقر الغساسنة فى سورية بأرض الشام ، حيث اتجهوا بقلوبهم إلى إمبراطورية الروم ، فأمنوا بجوارها، ونعموا برعايتها.

ولم تكن المعارك بين الإمارتين العربيتين إلا من آثار التدخل البغيض من قبل الروم والفرس ، حيث لم يعرف العالم آنذاك من القوى غير هاتين الدولتين اللتين عاشتا فى حروب طويلة.

وفى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى تقريبا ظهرت قبيلة عربية – كواحدة من بطون كهلان بن سبأ التى انتشرت فى جبال اليمن مما يلى حضرموت – عرفت باسم (كندة) نسبة إلى ثور بن عفير. ويقال : إن ثورا هذا هو (كندة) ، وقد سمى بذلك ، لأنه كند أباه أى عقه كما يقول أبو الفرج فى كتابه الأغانى عند ترجمته لامرئ القيس , وعرف المكان الذى أقاموا به وتجمعوا فيه باسم (كندة) وامتد نفوذ ثور فشمل منطقة الأحقاف بأسرها . وذكر علماء التاريخ أن هذه القبيلة قد غلبت على أمرها ، فانتقلت إلى حضرموت، ثم دبت الخلافات بينها وبين الحضرميين ، ولم تصمد كندة فى محاربة جيرانهم الحضارمة فكانت لهم وجهة أخرى.

وعندما تواجدت هذه القبيلة بأرض اليمن كان التبابعة الحميريون يستعينون ببعض الأكفاء من كندة فيولونهم بعض المناصب فى الدولة ، حتى

صارت العلاقة بين التبابعة وزعماء كندة تقارب العلاقة التى بين الفرس والمناذرة أو بين الروم والغساسنة .

وقد هاجرت كندة إلى الشمال فى منتصف القرن الرابع الميلادى ، واستقرت فى موضع بنجد يقال له (بطن عاقل) وتوالى الزعماء الكنديون على هذه القبيلة كما تقول بعض الروايات . وأولهم رجل اسمه (مرتع بن معاوية بن ثور) فملك عشرين سنة ثم ملك ابنه (ثور) ثم ابنه (معاوية بن ثور) ثم (الحارث بن معاوية) وكان ملكه أربعين سنة ، ثم ملك (وهب بن الحارث) عشرين سنة ، وملك بعده (حُجْر بن عمرو) المعروف بآكل المرار[1] .

واستمر زعماء كندة على وفاق مع تبابعة اليمن حتى يتسنى لهم فيما بعد مهاجمة الحيرة ومحاربة ملوكها ، وهكذا صارت كندة قوة عربية فى وسط شبه الجزيرة وشرقها ، وصارت ندا قويا لكل من المناذرة والغساسنة.

وتقول بعض الروايات أن حُجْر بن عمرو هو أول ملوك الكنديين عندما استقروا فىالشمال وخالطوا العدنانيين ، وكانو قبل هذا الرجل بدون ملك حتى أكل القوى الضعيف .

" فلما ملك حُجْر سّدد أموالهم وساسها أحسن سياسة ، وانتزع من اللخميين ما كان بأيديهم من أرض (بكر وائل) وبقى حُجْر كذلك حتىٰ مات . فـ(حُجْر)على هذه الرواية أول ملك من ملوك كندة ، وأول زعيم من زعمائها

---

[1] انظر : د/ جواد على . (المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام) جـ٣ ص ٣١٩،٣٢٠ الطبعة الثالثة عام ١٩٨٠ م دار العلم للملايين.

تمكن من توحيد صفوفها ومن تغليبها على قبائل أخرى ، ومن توسيع رقعة أراضيها حتى بلغت حدود مملكة لخم"[1] .

ويقال إن الخلاف الذى دبّ بين قبيلة بكر التى كانت تسكن شمالى نجد هو الذى جعلها تنهض إلى حسان بن تبع ملك اليمن ليختار لهم ملكا يسوس أمورهم ، ويتولى حمايتهم ، والفصل بينهم ، والدفاع عنهم فاختار لهم (حُجْر بن عمرو) زعيم الكنديين فى منتصف القرن الخامس الميلادى الذى تحولت بفضله قبيلة كندة إلى دولة تحكم منطقة نجد لمدة قرن من الزمان.

وسواء أكان حُجْر مسبوقا ببعض الملوك أم واحدا منهم ، فإنه أشهر وأظهر من عرفت أخباره ، وتكاثرت حروبه لدعم دولته ، وتوسيع رقعتها ، والإغارة على الحيرة ، ومحاربة اللخميين (المناذرة) . وقد دام ملكه ثلاثا وثلاثين سنة ، واستطاع التوفيق بين كندة وربيعة ، وتمكن من انتزاع ما استولى عليه اللخميون من أرض بكر بن وائل ، وكثرت حروبه فى الجنوب والشمال والشرق حتى أغار على مملكته أثناء غيابه زياد بن عمرو بن الهبالى القضاعى الذى كان رئيسا لقوم من العرب على أطراف الشام ، وأخذ أموالا كثيرة لحُجْر ، وأستولى على زوجته (هند) أو على قينة له تسمى بهذا الاسم ، وقد عاد حُجْر إلى بلاده ، واسترجع زوجته أو قينته ، وقتلها لخيانتها ، وقيل إنه أحرقها . ويقال إن الذى غزا أرض نجد أثناء غياب حُجْر هو الحارث بن الأيهم الغسانى.

ولقد عرف حُجْر بآكل المُرار ، لأنه من شدة غيظه وكمده أكل المُرار الذى تأكله الأبل فتقلص مشافرها وتزبد ، وقيل إنه كان فى سفر

---

[1] المرجع السابق جـ٣ص ٣٢٠ ،٣٢٢.

فأكل المرار حتى شبع ،وقيل إنه إذا غضب أزبدت شفتاه كأنه بعير أكل مُرارا.

ويذكر الأخباريون لحُجْر ثلاث زوجات كما يقول الدكتور جواد على وهن: هند الهنود التى قتلها وأم أناس بنت عوف الشيبانى وواحدة من حمير[1] .

ومات حُجْر ، ودفن ببطن عاقل عاصمة ملكه فى نجد بعد انتصاف القرن الخامس تقريبا ، وترك من الأبناء اثنين أولهما : عمرو بن حُجْر المعروف بالمقصور ، لأنه اقتصر على ملك أبيه ، أو لأن ربيعة قصرته عن ملك أبيه ، وقتله الحارث بن أبى شمر الغسانى . وثانيهما : معاوية الجون (الأسود) بن حُجْر الذى كان ملكا على اليمامة ، ولم تتوسع كتب التاريخ فى تفاصيل حياته ، لبعده عن نجد التى كانت مسرحا للأحداث السياسية فى تلك الفترة ، بينما أفاضت بعض الشيئ عن أخيه عمرو بن حُجْر الذى كان ميالا إلى السلم حيث وثق صلاته باليمن وتزوج بنت حسان بن تبع، كما تحسنت علاقته بالغساسنة فى عهد الحارث الثانى ابن أبى شمر الغسانى ووثق صلاته مع المناذرة فى الحيرة فزوج بنتا له للأسود بن المنذر ملك الحيرة كما تقرب إلى قبيلة بكر بن وائل ، وإن كان ظهور كليب بن ربيعة فى قبيلة تغلب لم يكن لصالح عمرو (المقصور) إذ التقيا فى حرب بديار بنى أسد قتل فيها عمرو بن حُجْر ، وتحررت قبيلة تغلب من نفوذ الكنديين حتى حين ... وربما كانت نهايته بغير هذه الحرب التى ذكرناها.

وقد انتقل الملك إلى ابنه الحارث بن عمرو (جد الشاعر امرئ القيس) فى حوالى عام ٤٩٠للميلاد . بطريق الميراث الذى أحكم القبضة

---

[1] انظر المرجع السابق جـ٣ ص ٣٢٥.

عليه . أو بفضل ملوك اليمن الذين ساعدوه إلى أن بسط نفوذه على كندة وبكر بن وائل ، وعلى بعض القبائل الأخرى . وتميز الحارث بعنفه وقوته وجبروته ، وكان هذا المنطق السياسى يسود كثير بين القبائل العربية فى الصحراء ، ولذلك لقب بأبى الملوك ، وعرف بالحارث الحرّاب حسب بعض الروايات ، وكما جاء فى قول الشاعر لبيد:

والحارثَ الحرّابُ خلّى عاقلا   داراً أقام بها ، ولم يتنقل

ويفهم من البيت المذكور أنه أقام فى الموضع الذى يقال له (عاقل) واتخذه مقرا لحكمه فى معظم الأوقات.

وتوالى على الحيرة كثير من أمراء المناذرة ، ومنهم المنذر بن ماء السماء الذى قيل إنه تزوج بهند بنت الحارث بن عمرو وهى أم عمرو بن هند وعمة الشاعر امرئ القيس . وفى أثناء ذلك وفد على امبراطور الفرس (قباذ بن فيروز) رجل يقال له مَزْدَك أخذ يدعو الناس إلى الزندقة وإباحة الحرام ، وألا يمنع أحدٌ غيره مما يريد من ذلك وربما تتضح الرؤية عن هذه الديانة التى اعتنقها قباذ بعد ذكر الأخبار الآتية التى نقلها وعلق عليها الدكتور جواد على ، قال "وكان مزدك وأصحابه يقولون : إن الناس تظالموا فى الأموال والأرزاق ، فاغتصبها بعضهم من بعض ، وأن الأغنياء قد اغتصبوا رزق الفقراء ، وأنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وأنه من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة ، فليس هو بأولى به من غيره . فافترض السفلة ذلك ، واغتنموه ، وكانفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره. فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ،

لايستطيع الامتناع منهم"[1] وكان قباذ قد دعا المنذر بن ماء السماء إلى هذه الديانة الجديدة فلم يستجب له ، ووجد قباذ فى ذلك إهانة له بسبب عصيانه والامتناع عن رغبته من قبل حاكم الحيرة - واهتبل الحارث بن عمرو الفرصة ، وشايعه ، ودخل فى المزدكية ، وتمكن بفضل تأييده ومعاونته من دخول الحيرة ، والإحاطة بالمنذر . وهكذا امتد نفوذ الكنديين ليشمل بلاد نجد والحيرة.

وتعددت الروايات التى تتناول استيلاء الحارث على الحيرة ، وما ذكرناه هو الراجح من القول إذ لايتيسر للحارث أن يفرض نفوذه على الحيرة من غير مساعدة من الفرس.

وأقام الحارث آنذاك فى الحيرة أو فى الأنبار إبان الفترة التى ضمّ الحيرة لى مملكة بنى آكل المرار . وأغلب الظن أن ذلك لم يدم طويلا ، وربما كان بين سنة ٥٢٥م،وسنة ٥٢٨م.

ويبدو أن الحارث قد اتخذ من المَزْدكية وسيلة ليحتال بها على ضم الحيرة إذ لم تذكر الروايات التاريخية انتقال مبادئ المزدكية إلى حياته أو إلى قبيلته ودولته .

كما استثمر خروج قبيلتى بكر وتغلب منهكتين من حرب البسوس ، ففرض نفوذه على قبائل ربيعة فى نجد ، وامتد -كما سبق القول- هذا النفوذ إلى ملك اللخميين فى الحيرة . ولم تتوقف طموحاته عند ذلك ، بل تجاوز بها وسط الجزيرة فبعث ابنه حُجْرا على رأس جيش لفتح فلسطين ومحاربة الروم البيزنطيين ، غير أن هذه الحملة لم تسفر إلا عن معاهدة بين كندة والروم يتعاونان بعدها على محاربة الفرس .

---

[1] المرجع اسابق جـ٣ص ٣٣٣.

وقد بدأت دولة كندة فى الضعف منذ أن إستولى الأحباش على اليمن فى عام ٥٢٥م[1] إذ كانت هذه الدولة تستمد نفوذها وسلطانها من تبابعة اليمن ، ولذلك تحول الحارث عن الجنوب ، وانصرف بكل إهتماماته إلى الشمال والشرق حيث الروم والفرس .

وانتشر الضعف فى مناحى الدولة ، لابسبب مليكها ، وإنما للمتغيرات الجديدة التى هبت على الفرس الذين عاونوا الحارث فى بسط نفوذه على الحيرة إذ توفى قباذ، وأعقبه ابنه (كسرى أنو شروان) الذى ألغى المزدكية التى اتخذها والده دينا للدولة ،وصمم على الانتقام من الحارث الذى جارى والده فى التمذهب بهذا المجون الآثم ، وعزم على إعادة المنذر إلى الحيرة . ولما علم الحارث بذلك وهو بالحيرة أو بالأنبار خرج "هاربا فى صحبته وماله وولده ، فمر بالثوية فتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء ، فلحق بأرض كلب ، ونجا، وانتهبوا ماله وهجائنه ، وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نَفْساً من بنى آكل المرار، فقدموا بهم على المنذر ، فضرب رقابهم بـ(جَفْر الأميال) (جفر الأملاك) فى ديار بنى مَرينا العباديين بين دير بنى هند والكوفة"[2] .

وقد تناول امرؤ القيس هذه المأساة فى شعره إذ قال :

ألا يـــاعـين بكّى لى شنينا	وبكى لى الملوكَ الذاهبينا
ملوكا من بنى حُجْرِبن عمرو	يســاقـون العشيّة يقتلونا
فلو فى يوم معركة أصيبوا	ولكن فى ديار بنى مَرِينا

---

[1] استمر الأحباش فى اليمن إلى عام ٥٧٥م.

[2] جواد على المفصل فى تاريخ العرب جـ٣ ص ٣٣٩.

فلم تغسل جماجمهم بغِسْلٍ | ولـــكن بالـــدماء مُرَمَّلينا
تظل الطير عاكفةً عليهم | وتنتزع الحواجبَ والعيونا[١]

وهكذا عضد الشعر واحده من الروايات المختلفة التى تحدثت عن مقتل الحارث أو موته.

حيث تدخلت أهواء الرواة والمؤرخين فى تحديد أسباب الوفاة . وقيل إن ذلك كان فى عام ٥٤٠م.

واستعان الحارث بأبنائه قبل وفاته فوزعهم على القبائل النزارية (العدنانية) يحكمونها ، ويسوسون أمورها ، وكان نصيب حُجْر (والد امرئ القيس) حكم قبائل بنى أسد وغطفان، وظفر أبناؤه الآخرون بحكم ما بقى من قبائل كنانة وربيعة وأنمار وإياد، وهم شراحبيل ومعد يكرب وسلمة وعبد الله ، وقد ملكهم تلك القبائل أثناء انشغاله بأمور الحيرة ، وبعد اتساع مملكة كندة.

ولقد كثرت الأخبار التى رويت عن حُجْر بسبب مكانة ابنه الشاعر بينما تقاتل الأبناء الأخرون ، وتفانوا بعد موت أبيهم الحارث.

كان حُجْر ملكا على بنى أسد وغطفان وهما من القبائل العدنانية :" وتقع مواطن (أسد) الرئيسية فى القرن السادس للميلاد فى جنوب جبلى (أجأ) و(سلمى)، ويسميان جبل شمر فى الزمن الحاضر على جانبى بطن الرمة (وادى الرمة) غير أن بطونها متفرعة منتشرة فى مناطق واسعة تمتد من المدينة إلى نهر الفرات"[٢] وذكرت الروايات أن علاقة حُجْر بمحكوميه

---

[١] محمد أبو الفضل ابراهيم . ديوان امرئ القيس ص٢٠٠ الطبعة الرابعة بدار المعارف عام ١٩٨٤م.

[٢] المرجع السابق جـ٣ ص ٣٤٩.

كانت سيئة للغاية ، إما بسبب الإتاوات التى فرضت عليهم ، أو بسبب استعمال القسوة والعنف فى جبايتها ، أو بسبب كراهتهم أصلا لحكم هؤلاء الجنوبيين من بنى آكل المرار، وأسفرت هذه الكراهية عن قتلهم لحُجْر بن الحارث ، وهدم ماتبقى من ملك لآل كندة فى الشمال . أما تفاصيل هذه النهاية فليست محل اتفاق عند المؤرخين ، فقد ذكر أبو الفراج أربع روايات لمقتل حُجْر ، تقول إحداها وهى لابن الكلبى رغم الحكم عليه بالتجريح من قبل العلماء: أن حُجْرا كان فى بنى سد، وكانت له عليهم إتاوة ، وبعث إليهم وهو بتهامة من يجيبهم ، فمنعوه ذلك ، وضربوا رسله وضربوهم ضربا شديدا قبيحا ، ولما علم بذلك سار إليهم بأجناد كثيرة ، وأخذ يقتلهم بالعصا فسموا عبيد العصا، وأمر بنفيهم إلى تهامة ، وحبس منهم عمرو بن مسعود والشاعر عبيد بن الأبرص ، ثم قام هذا الأخير ، وتحدث إلى حُجْر ، فقال:

ياعينُ ما فابكى بنى ... أسدٍ هُمَ أهلُ الندامهْ
أهلَ القباب الحُمر والنَّـ ... ـعيم المؤبل والمدامه
وذوى الجياد الجُرْد والْـ ... أسل المثقفة المقامه
حِلا أبيت اللعن حلاَّ ... إن فيما قلت آمه
فى كل واد بين يثـ ... ـرب فالقصور إلى اليمامه
تطريب عان أوصيا ... ح محرق أو صوت هامه
ومنعتهم نجدا فقد ... حلّوا على وَجَلٍ تهامه
بَرِمَتْ بنو أسدٍ كما ... بَرِمَتْ ببيضتها الحمامه
جعلت لها عودين من ... نشم وآخر من ثمامه
إما تركت تركت عفْـ ... ـواً أو قتلت فلا ملامه
أنت المليك عليهمُ ... وهم العبيد إلى القيامه
ذّلوا لسوطك مثل ما ... ذّل الأشيقر ذو الخِزَامه

وأثّر الشعر فى حُجْر ، ورق لهم . أما الذين نفوا منهم إلـى تهامـة فقد بعث إليهم بعفوه ، وبدؤوا فى العودة إلى ديارهم ، وأخبرهم كاهنهم ، وهو عـوف ابن ربيعة بن عامر الأسدى أنهم سيقتلون حُجْرا وسينتقمون منـه، وصدقـوا بنوءته وركبوا كل صعب وذلول ، فما أشرق لهم النار حتى أتوا على عسكر حُجْر ، فهجموا على قبته ، فمنعتهم الحراس ، ثم انقضوا عليهم ، وتقدم إليـه عِلْباء بن الحارث الكاهلى فقتله تأثرا لأبية الذى قتله حُجْر ، ثم نهبوا هجائنه، ومـا كـان فـى عسكره ، ولفوه فـى رَيطـة بيضـاء ، وطرحـوه علـى ظهـر الطريق، ووثب عمرو بن مسعود فضمّ عياله ، وقال أنالهم جار.

وتذكر رواية أخرى وهى لهيثم بن عدى أن بنى أسد قد تآمروا عليه، وتقدمهم علباء وحمل على حُجْر فقتله ، وتضيف هذه الرواية أن امرأ القيـس كـان موجـودا فـى هـذه المعركـة ، وأنـه هـرب علـى فـرس لـه شـقراء ، وأعجزهم، وانهزمت كندة فى هذا اليوم ولابن السكيت رواية تذكر أن حُجْرا كان قد وفد على أبيه (الحارث) قبل موته ليعوده ، وأقام عنده حتى مات ، ثم رجع حُجْر إلى ديار بنى أسد ، فلما عرفوا بمقتل أبيه وضعفه باقتتال إخوته، وتفانيهم تجمعوا له ، وتعاضدوا على قتله ، وكان صاحب أمرهم علبـاء بـن الحارث الذى دعا ابن اخت له ليثـأر لأبيـه الذى قتلـه حُجْر أيضـا ، فـأجهز عليه الغلام وقتله.

والرواية الرابعة لأبى عمرو الشيبانى ، وهى قريبة من تلك الروايات المذكورة ، ويُنسب قتل حُجْر فيها إلى علباء بن الحارث.

ولانرى تعارضا كبيرا بين هـذه الروايـات مـع تعددهـا ، وربمـا وقـع الاختلاف فى التفاصيل والاستطرادات ، ولكن النتيجة واحدة ، وهى قتل بنى أسد لحُجْر بن الحارث.

ويذكر بعض المؤرخين أن حُجْرا لما علم باقتراب نهايته دفع بوصية له إلى رجل وأمره "أن ينطلق إلى أكبر أولاده (نافع) فإن بكى ، وجزع ، فليذهب إلى غيره حتى يصل إلى أصغرهم وهو امرؤ القيس ، فأيهم لم يجزع يدفع إليه الكتاب فكان ذلك امرؤ القيس"[1] .

وافتخر الشاعر بشر بن أبى خازم فى أكثر من قصيدة بقتل بنى أسد للملك الكندى حُجْر بن الحارث . وهكذا تناول امرؤ القيس بن حُجْر ، وعبيد بن الأبرص وبشر بن أبى خازم بعضا من تاريخ كندة فى عهد حُجْر بن الحارث.

وبمقتل حُجْر وأخوته انتهت كندة كدولة ، وتقهقرت كقبيلة إلى موطنها الأصلى فى حضرموت بأرض اليمن . أما محاولة امرئ القيس لاستعادة ملك أبيه وحضارة أجداده فلم يكتب لها التوفيق ، ولم تسفر إلا عن بعض المعارك والدماء التى أريقت فى الصحراء.

ولم يقتصر دور كندة على النواحى السياسية ، فقد حفل تاريخها بالمشاهير من الأعلام والشعراء الذين كانوا شعراء ، وذكر لهم لويس شيخو نماذج من شعرهم فى كتابه (شعراء النصرانية) كما ذكر الآمدى أربعة شعراء من كندة في كتابه (معجم الشعراء) إلا أن الغالبية من هؤلاء الكنديين الشعراء الذين ذكرتهم كتب الأدب لم يرد لهم من الشعر ما يكفى لتقويمه ودراسته والحكم عليه . أما امرؤ القيس فلا يختلف اثنان على إمارته للشعر الجاهلى فى العصر القديم.

---

[1] جواد على المفصل فى تاريخ العرب جـ٣ ص ٣٥٢.

الفصل الثانى

حياة امرىء القيس بين القدماء والمحدثين

امرؤ القيس :

ليس الحديث عن حياة امرىء القيس مقصودا لذاته ، لأن هذه الحياة بتفاصيلها مبثوثة فى كتب الأدب واللغة والتاريخ قديمها وحديثها، عربيها وأعجميها ، كما لا آمل من هذا الفصل أن يضيف جديدا لم يتعرض له القدامى والمحدثون . بل إن الموقف الواحد من مواقف حياة هذا الشاعر يؤخذ بأكثر من رواية حتى تضاربت الروايات ، ووصم البعض منها بالانتحال، وصار الحديث عن امرىء القيس محوطا بالريب والظنون لاعتبارات كثيرة ومتغايرة. ولا يعنينا من الأخبار التى تناولت حياته إلا ما اتصل منها بفن الشعر سواء تحدثنا عنها فى هذا الفصل أم فى غيره من الفصول ، فقد نتكلم عن اليوم الذى قضاه بدارة جلجل ، وعن سرقة إبله فى بنى نبهان ، وعن قتاله لبنى أسد وعن رحلته إلى القسطنطينية، وعن أمور أخرى كثيرة ،

فأبو الفرج الأصبهانى — وهو واحد من القدماء — يعتمد فى حديثه عن امرىء القيس على الروايات المتعددة ، والتى تختلف فى بعض الأمور ، وربما أضاف إلى بعض الروايات شيئاً من شعر امرىء القيس ، فتقوى بذلك رواية على أخرى ، ولنأخذ حديثه عن مقتل حجر بن الحارث (والد الشاعر) مثالا على ذلك .

أما المحدثون فقد تعاملوا مع هذه الروايات بحذر شديد ، فهم

يخضعون الراوى لمقاييس الجرح والتعديل ، ويحاول بعضهم التنظير بين الروايات العربية وكتب الأعاجم القديمة ، وقد أفاد الشعر بعض الروايات على حساب الأخرى ، وظهر الوضع أو الانتحال كقضية خطيرة فى التراث التاريخى والأدبى ، فتأثرت به مثلاً بعض الروايات التى نسبت إلى ابن الكلبى لاشتهاره بكثرة الوضع والتلفيق .

ونؤكد أن الحقيقة صعبة المنال ، وتحتاج إلى بحث وجهد وتأن ، كما أنه لا يقبل إطلاقا عند التأريخ لشاعر كامرىء القيس أن يكون جل الاعتماد على الشعر ، فلم تكن وظيفة هذا الفن فى يوم من الأيام أن يكون بوقا للحوادث أو صحيفة لوقائع الحياة .

وتتمحور هذه الإشكالية حول العديد من الروايات القديمة التى تحدث فيها الأدباء والمؤرخون عن حياة ذى القروح ، ولا نظن أن أمرا واحداً فيما يتصل بحياته أمكن التسليم به والإقرار بصحته . فقد تعددت الروايات حول اسمه ونسبه ولقبه وكنيته وكثر الاجتهاد فى تحديد سنى حياته ووفاته ، واختلفت الأخبار التى اتصلت بنشأته المبكرة إلى أن اكتمل شبابه ، وبدأ فى توجيه فنه إلى النساء ، وتصاحب على مجموعة من الصعاليك الشذاذ . كما أن معظم أخباره عن المرحلة الأولى من حياته قد استقاها المؤرخون من شعره ، فإذا وصم بعض هذا الشعر بالوضع فلابد أن تنسب الأخبار المستقاة منه إلى الوضع أيضاً .

وتتناول الروايات المتعددة والمختلفة أيضاً تفاصيل حياته عند مقتل أبيه ، وسواء حضر الشاعر تلك النهاية أم كان بعيداً عنها ، فالنتيجة واحدة وهى أن امرأ القيس تحمل عبأ استرجاع الملك ، والثأر لأبيه والانتقام لقبليته .

حياته الأولى :

أقل ما يقال فى نسب امرىء القيس ما ذكره الأصمعى، ونقله كثيرون من بعده كابن قتيبة فى الشعر والشعراء، وأبى الفرج فى الأغانى أنه : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن معاوية ابن ثور وهو كندة، ولامرىء القيس أسماء كثيرة مثل حندج وعدى ومليكة وسليمان. أما ألقابه فكثيرة أيضاً وأشهرها امرؤ القيس الذى عرف به، كما يلقب بالملك الضليل وذى القروح، ويكنى بأبى وهب وأبى زيد وأبى الحارث. وإياه عنى الفرزدق بقوله :

وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا
وأبو يزيد وذو القروح وجرول(١)

ومعنى امرىء القيس وهو اللقب الذى اشتهر به شاعرنا : رجل الشدة، وقيل إن القيس من أصنام الجاهلية : ولكن لم يرد اسم لهذا الصنم فى كتاب الأصنام لابن الكلبى مما يضعف من هذه الوجهة التى أريد منها جعل الوثنية هى الديانة لهذا الشاعر. ولم يكن هذا اللقب خاصا بامرىء القيس ابن حجر بل شاركه فيه العديد من الشخصيات المعروفة فى العصر الجاهلى.

وقد ولد بأرض نجد فى ديار بنى أسد فى أول القرن السادس الميلادى. وأمه من قبيلة تغلب المعروفة، وأسمها فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير أخت كليب والمهلهل، وقيل فى رواية يتيمة : إن أمه هى تملك بنت عمرو بن زيد من مذحج أى أنها يمنية وليست عدنانية.

---

(١) أبو يزيد : المخبل السعدى، ذو القروح : امرؤ القيس : جرول : الحطيئة.

ويعد امرؤ القيس أصغر إخوته ، أما أكبرهم فهو نافع، وبين الاثنين أولاد كثيرون مجهولو التسمية ، وله أخت تسمى هند ، وقد انحازت إلى عوير بن شجنة بعد مقتل حجر حيث ارتحلت إلى أخيها امرىء القيس بأرض اليمـــن .

وذكر المحدثون أكثر من تاريخ لولادته منها عام ٤٩٧ م(١) وعام ٥٠٠ م(٢) وعام ٥٢٠ م(٣)

وفى شعر امرىء القيس مايدل على طبيعة الحياة التى نشأ فيها بديار بنى أسد إذ جمع بين الترف واللذة والمتعة ، كشرب الخمر ، ومصاحبة الشذاذ من القبائل وسعيه إلى الصيد وإنشاده للشعر واستماعه للغناء من بعض القيان وتغزله بنساء القبيلة وفتياتها ، وكم من مرة نهاه أبوه فيها عن قول الشعر ، ولكنه لم يستجب حتى طرده من ديار بنى أسد إلى أرض اليمـــن .

وتعود أسباب الخلاف الرئيسية بين الشاعر وأبيه إلى أمور كثيرة، فقد كان حجر مشغولا بأمور الملك وتبعة الرئاسة بينما تحول الشاعر إلى حياة العبث والمجون وكم من مرة أراد فيها والده النجع له ، ولكنه لم يوفق ، فقد صرفه إلى رعى الإبل والخيول ، ثم وجهـــه إلى رعى الغنم فكرهها وانصرف عنها ، ثم كان الطرد إلى خارج ديار بنى أسد . ويقال إنه خرج إلى عمه سلمة بن الحارث الذى كان ملكا على قيس غيلان بشرق نجد ، أو انتقل إلى دمون ذلك الجبل الشامخ فى أرض اليمن.

---

(١) ذكره الزركلى فى كتابه (الأعلام)
(٢) ذكره جواد على نقلا عن كتاب (أوليندر) (OLINDER)
(٣) ذكره لويس شيخو فى كتابه (شعراء النصرانية)

لكن أين كان امرؤ القيس وقت مقتل أبيه؟ تقول رواية للهيثم بن عدى إنه كان حاضرا وقت المعركة التى نشبت بين والده وبنى أسد، وعندما أحس بانهزام قومه فر على فرس له شقراء وتمكن من النجاة.

وجاء فى رواية أخرى للهيثم أن امرأ القيس لما قتل أبوه كان غلاما قد ترعرع، وكان فى بنى حنظلة بأرض اليمن فى موضع يسمى (صيلع) وهو كثير الوحش والظباء، فلما بلغه ذلك قال:

يالهف هند إذ خطئن كاهلا ... القاتلين الملك الحلاحلا

تالله لا يذهب شيخى باطلا ... ياخير شيخ حسبا ونائلا

وخيرهم قد علموا فواضلا ... يحملننا والأسل النواهلا

وحى صعب والوشيج الذابلا ... مستثفرات بالحصى جوافلا(١)

وروى ابن الكلبى أن امرأ القيس كان بدمون من أرض اليمن عندما وصله خبر مقتل أبيه جاء به رجل يقال له (عامر الأعور) فلما أتاه، قال:

تطاول الليل علينا دمون

دمون إنا معشر يمانون

وإننا لأهلنا محبون(٢)

ثم قال: ضيعنى صغيرا، وحملنى دمه كبيرا، لاصحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر، ويقال إن الرسول الذى جاءه بالخبر وجده يلعب بالنرد فلم يفسد عليه دوره إلى أن انتهى منه فسأله امرؤ القيس عن أبيه فأخبره بمقتله فقال: الخمر على والنساء حرام حتى أقتل من بنى أسد

---

(١) أبو الفرج، الأغانى حـ ٩ صـ ٨٨

(٢) الديوان صـ ١٤٠ وأبو الفرج، الأغانى حـ ٩ صـ ٨٨

مائة وأجز نواصى مائة وهكذا تعددت الروايات عن الجفوة بينه وبين أبيه بمثل تعددها فى ذكر الموضع الذى تواجد فيه شاعرنا ابن حجر أثناء مقتل والده .

وإذا كانت رواية الهيثم بن عدى التى تقول بتواجده مع والده فى المعركة الأخيرة مؤيدة بشعر عبيد بن الأبرص الذى كان معاصرا لهذه النهاية، وشاهدا على أحداثها حسب استشهاد البعض به ، فإن رواية ابن الكلبى مع تجريحه مؤيدة أيضا بشعر لامرىء القيس نفسه فضلا عن اتساقها مع ما يعقبها من أحداث .

أما الروايات الأخرى فتفتقر إلى الحجج القوية التى تتجاوز حدود الاجتهاد إلى اليقين .

وقد حرص القدماء على ذكر كل الروايات التى تتناول هذه المرحلة من حياة امرىء القيس ، بدون أن يفاضلوا بين رواية وأخرى ، بينما حرص المحدثون على تعقب هذة الروايات ، والموازنة بينها ، واختيار المتلائم مع الشعر منها ، وربما رفضوها رفضا كليا كما حدث من الدكتور طه حسين .

حياته الثانية :

عاش امرؤ القيس بأرض اليمن يقاوم أحزانه ، ويتحسر على حاضره ومعه جمع من رفاقه وقيانه ، حتى جاءته أخته هند عند وادى عارض ، وفى صحبتها ما تبقى من ميراث حجر ، وأهم ما كان معها الأدرع الخمسة التى يتوارثها بنو آكل المرار ملكا عن ملك وهى : الفضفاضة والضافية والمحصنة والخريق وأم الذيول .

وذكر أبو الفرج في رواية عن الهيثم بن عدي أنه لما قتل حجر انحازت بنته وقطينه إلى عوير بن شجنة فلما كان الليل حمل هندا وقطينها، وأخذ بخطام جملها، وأشأم بهم في ليلة ظلماء مدلهمة، ثم رمى بها النجاد حتى أطلعها نجران وقال لها: إني لست أغني عنك شيئا وراء هذا الموضع، وهؤلاء قومك، وقد برئت خفارتي، فمدحه امرؤ القيس بعدة قصائد منها قوله:

ألا إن قوما كنتم أمس دونهم
هم منعوا جاراتكم آل غدران

عوير ومن مثل العوير ورهطه
وأسعد في ليل البلابل صفوان

ثياب بني عوف طهارى نقية
وأوجههم عند المشاهد غران

هم أبلغوا الحي المضلل أهلهم
وساروا بهم بين العراق ونجران

فقد أصبحوا والله أصفاهم به
أبر بميثاق وأوفى بجيران(١)

وله شعر آخر يمدح به عوير بن شجنة.

وقيل إنها انحازت إلى عامر بن جوين، وقيل غير ذلك، والرواية الأولى هي الأقرب إلى الصحة. لتأييدها بأكثر من قصيدة، ولأن عامرا من الفتاك الذين لا يؤتمنون على مال ونساء.

---

(١) الديوان ص٨٣، ٨٤

وقد اجتمع بنو أسد بعد قتلهم لحجر، واتفقوا على اللقاء بامرىء القيس للاعتذار له والاتفاق معه حول قضية مقتل والده، وارتحل إليه جماعة فيهم المهاجر بن خداش (ابن عم عبيد بن الأبرص) وقبيصة بن نعيم، وكان مقيما في بني أسد فلما وصلوا إلى مكان ابن حجر باليمن أمر بإنزالهم والإفضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثا، ثم خرج في قباء وخف وعمامة سوداء، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا في الثرات، فلما نظروا إليه قاموا له، ثم تحدث إليه قبيصة حيث خيره بين ثلاثة أمور وهي أن يختار واحدا من أشرف بيوت بني أسد ليقتله ثأرا بأبيه، وإما أن يتقبل الفداء من نعم بني أسد فهي ألوف تجاوز الحسبة، وإما أن يتفق معهم على المدنة والموادعة حتى تضع الحوامل، وتتهيأ الجيوش للقتال.

قال الخليل بن أحمد راوية هذا الخبر: «فبكى (امرؤ القيس) ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وإني لن أعتاض به جملا ولا ناقة فاكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد.

وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سببا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك، تحمل القلوب حنقا، وفوق الأسنة علقا(١):

إذا جالت الخيل في مأزق
تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا بل ننصرف بأسوأ الاختيار، وأبلى الاجترار لمكروه وأذية، وحرب وبلية. ثم نهضوا عنه، وقبيصة يقول متمثلا:

---

(١) علقا: دما

لعلك أن تستوخم الموت إن غدت
كتائبنا في مأزق الموت تمطر(١)

« فقال امرؤ القيس : لا والله لا استوخمه ، فرويدا ينكشف لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير : ولقد كان ذكر غير هذا أولى بك إذ كنت نازلا بربعى ، ولكنك قلت فأجبت ....»(٢) .

ثم ارتحل إلى ديار بكر وتغلب للاستعانة بهم في مقاتلة بني أسد ، والثأر لأبيه واسترجاع ملك أجداده ، وإحياء مجد كندة ، وقد سيروا معه جيشا ليقوى به على حرب الأسديين الذين أدركوا ما يدبر لهم فارتحلوا إلى بني كنانة للاحتماء بهم ، ولكن علباء بن الحارث وهو العقل المدبر لبني أسد أنذاك أخبرهم بتعقب امرىء القيس لهم ، وكان أن أشار عليهم بالرحيل ليلا بدون أن يعلم بنو كنانة :

ثم أقبل امرؤ القيس بمن معه على كنانة ، فأوقع بهم ، وأعمل السلاح فيهم وهو يحسبهم بني أسد ، وكان يهتف صائحا : يالثارات الملك ، يالثارات الهمام ، وهكذا تحملت كنانة ما كان موجها إلى بني أسد ، ولم يتوقف القتال إلا بتدخل عجوز من بني كنانة تصدت لامرىء القيس وقالت له : أبيت اللعن لسنا لك بثأر ، نحن من كنانة ، فدونك ثأرك فاطلبهم فإن القوم قد ساروا بالأمس .

وحاول امرؤ القيس اللحاق ببني كنانة ، ولكنه لم يدركهم فحزن لتلك الفرصة الضائعة ثم قال :

---

(١) استوخم الشيء : لم يستمرئه .
(٢) أبو الفرج ، الأغاني ج٩ ص١٠٥

ألا يا لهف هند إثر قوم ... هم كانوا الشفاء فلم يصابوا
وقاهم جدهم ببني أبيهم ... وبالأشقين ما كان العقاب
وأفلتهن علباء جريضاً ... ولو أدركنه صفر الوطاب(١)

وتختلف الروايات فيما أعقب هذه الواقعة ، فبعضها يذكر أن امرأ القيس لحق ببني أسد ظهراً ، وقد تقطعت خيله ، وأثر فيها العطش . بينما بنو أسد مجتمعون حول الماء ، وقاتلهم قتالا شديداً ، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ، ثم حجز الليل بين الفريقين ، فعاودت أسد الهروب . . وأراد شاعرنا اللحاق بهم ، وإشباع نهمه من التأثر ولكن جيوش بكر وتغلب اعترضت على المسير ما دام قد ثأر لأبيه فقال لهم : والله ما فعلت ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم أحدا . قالوا بلى ، ولكنك رجل مشئوم ، وكرهوا قتال بني أسد، وانصرفوا عنه . ويقال، إن بكراً وتغلب تركته بعد قتالهم لبني كنانة ، ولم يوقع ببني أسد ، ولم يثأر منهم ، والنتيجة واحدة وهو أنه لم يشف غليله ، ولم يرو عطشه من دمائهم .

وذهب الشاعر إلى أزد شنوءة فأبوا أن ينصروه ، وقالوا : إخواننا وجيراننا ، فنزل بقيل يدعى (مرثد الخير بن ذي جدن) الحميري مستنصراً به على بني أسد ، فأمده بخمسمائة رجل من حمير ، ومات مرثد قبل أن يرحل امرؤ القيس ، وقام بالملك من بعده رجل يقال له (قرمل بن الحميم) فأنفذ له الجيش ، وتجمع حول الشاعر بعض صعاليك العرب، وذؤبانهم،

---

(١) الديوان ص ١٣٨ . والجد : الحظ . جريضا : غاصا بريقه . صفر الوطاب : أي أنهم إذا أدركوه قتلوه ، وساقوا إبله، فصفرت وطابه من اللبن .

وفيهم المستأجر وغيره ، ثم سار بهم إلى بنى أسد ، ومر فى طريقه بصنم كانت العرب تعظمه يقال له : ذو الخلصة فى وادى تبالة(١) ، فاستقسم عنده بأزلامه وهى ثلاثة أقداح : الآمر والناهى والمتربص ، فلما أجالها خرج الناهى ثلاث مرات ، فغضب امرؤ القيس ، وجمعها وكسرها ، وضرب بها وجه الصنم وقال له : لو أبوك الذى قتل ما عقتنى . وواصل سيره حتى ظفر ببنى أسد وثأر منهم وقال مفتخراً(٢) :

يا دار ماوية بالحائل فالسهب فالخبتين من عاقل

صم صداها وعفـا رسمها واستعجمت عن منطق السائل

قولا لدودان عبيد العصا ما غركم بالأسد الباسل(٣)

قد قرت العينان من مالك ومن بنى عمرو ومن كاهل

ومن بنى غنم بن دودان إذ نقذف أعلاهم على السافل

وكان الانتقام من بنى أسد — إذا صح وقوعه — سبباً للعديد من النكبات التى منى بها امرؤ القيس فيما بعد ، فقد عاود المنذر تعقبه له خوفاً من عودة السيطرة إلى كندة من جديد ، حيث أعانه كسرى أنو شروان على ذلك ، فأمده بجيش من الأساورة ، وسرحهم فى تعقبه وطلبه ، وتفرقت عن امرئ لقيس جيوش حمير التى شاركته فى الظفر ببنى أسد ، ثم لجأ إلى بنى حنظلة ، ونزل على واحد منهم وهو الحارث بن شهاب

---

(١) موضع بين مكة واليمن على بعد مسيرة سبع ليال من مكة .

(٢) الديوان ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) دودان : قبيلة من بنى أسد .

من بني يربوع ، الذي لم يكن له من القوة والشجاعة بحيث يحمى امرأ القيس ، واضطر إلى تسليمه هو ومن معه من بني آكل المرار إلى المنذر ، وتمكن الشاعر من الهرب ومعه أخته ويزيد بن معاوية بن الحارث والأدرع الخمسة ، وبعض المال المتبقى فى حوزته. وأعدم المنذر اثنى عشر فتى من أمراء كندة فى بئر الأملاك ، وضرب الشاعر المثل ببنى الضباب الإيادى الذى أكرمه وأجاره ، ومدحه فقال (١) :

لعمرك ما سعد بخلة آثم ولا نأنأ يوم الحفاظ ولا حصر

لعمري لقوم قد نرى أمس فيهم
مرابط للأمهار والعكر الدثر

أحب إلينا من أناس بقنة يروح على آثار شائهم النمر

يفاكهنا سعد ويغدو لجمعنا
بمثنى الزقاق المترعات وبالجزر

ثم تحول عن سعد بن الضباب ، لاستمرار المنذر فى تعقبه ، ونزل فى أرض طيء ، وأقام عند المعلى بن تيم من جديلة ، وأحس عنده بالأمن والطمأنينة فقال يمدحه(٢) :

كأنى إذ نزلت على المعلى
نزلت على البواذخ من شمام

فما ملك العراق على المعلى بمقتدر ولا ملك الشآم

أصد نشاص ذى القرنين حتى
تولى عارض الملك الهمام

---

(١) الديوان ص ١١٢ ، ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٠ ، ١٤١ .

أقر حشا امرىء القيس بن حجر
بنو تيم مصابيح الظلام

ويلاحظ أن امرأ القيس بعد أن أوقع ببنى أسد، وأخذ يتنقل بين القبائل خوفا من المنذر تحول بشعره إلى المديح، وتخلى عن القصائد الغزلية التى كان يتغنى بها فى دمون وعندل وغيرها من جبال اليمن ووديانه . أما المقدمات الطللية أو الغزلية لهذه القصائد — إذا وجدت — فلم تكن إلا من قبيل التقليد أو الصناعة الشعرية .

ولقد حفلت إقامته فى طىء ببعض الإشكالات التى يحسن أن نعرض لها فى شىء من الإيجاز ومن خلال ما يذكره فى شعره أيضاً .

تعرضت إبله للغصب فى جديلة أثناء إقامته عند المعلى، وبدا أن بنى زيد وهم قوم من جديلة قد ضاقوا به، فاغتصبوا إبله، حتى يبتعد عنهم، ثم انتقل إلى بنى نبهان من طىء، ونزل على خالد بن أصبع النبهانى، وتحمس له فى استرجاع إبله، وركب خالد وجماعة معه رواحل امرىء القيس، واتجهوا بها إلى بنى جديلة، فما كان من بنى جديلة إلا أن أنزلوا خالدا ومن معه عن تلك الرواحل، وأخذوها أيضا، وعاد هؤلاء النفر من بنى نبهان إلى امرىء القيس بلا إبل أو رواحل وقدموا له معزى يحلبها فسخر منهم، ومن نفسه أيضا وقال(١) :

ألا إن لا تكن إبل فمعزى
كأن قرون جلتها العصى

وجاد لها الربيع بواقصات
فآرام وجاد لها الولى

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٦، ص ١٣٧

إذا مشت حوالبها أرنت ... كأن الحي صبحهم نعي
فتوسع أهلها أقطا وسمناً ... وحسبك من غنى شبع وري

ثم خرج من بني نبهان ، ونزل على عامر بن جوين الطائي ، وهو يومئذ من الفتاك الخلعاء في بني جرم ، ولم يكن امرؤ القيس جاهلا بطبيعة عامر ، ولكنه اضطر للنزول عليه بعد خروجه من بني نبهان ، ثم خاف منه على نفسه وأهله وماله وسلاحه ، فتركه ونزل على رجل من بني ثعل يقال له حارثة(١) ابن مر بن حنبل (الطائي) ، وغضب عامر من ذلك ، وتعقب امرأ القيس ، وحارب بني ثعل من أجله ، ولكن بني ثعل لم يتوانوا في الدفاع عنه ، فشكر لهم صنيعهم ، ومدحهم بقصيدة بدأها بالسخرية من خالد النبهاني للمرة الثانية ، وكشف هذا الشعر عن الألم الذي عاشه امرؤ القيس أثناء إقامته في بني نبهان ، فلم يخطر على باله وهو سليل بيت الملوك أن تنهب دوابه ، ويعجز عن استرجاعها ، ثم تقدم إليه معزى يحلبها ... وقد وازن في هذه القصيدة بين إقامته في بني نبهان وإقامته في بني ثعل حيث تمرح إبله عند هؤلاء ، ولا يستطيع أحد أن يمسها أو يقترب منها ، قال(٢) :

دع عنك نهبا صيح في حجراته
ولكن حديثا ما حديث الرواحل

كأن دثارا حلقت بلبونه ... عقاب تنوفى لا عقاب القواعل

تلاب باعث بذمة خالد
وأودى عصام في الخطوب الأوائل

---

(١) أو جارية . انظر جواد علي . المفصل في تاريخ العرب ، قبل الإسلام حـ ٣ ص ٣٧٣

(٢) الديوان ص ٩٤ ، ص ٩٥

وأعجبني مشي الحزقة خالد ... كمشي أتان حلئت بالمناهل

أبت أجأ أن تسلم العام جارها ... فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

تبيت لبوني بالقرية أمنا ... وأسرحها غبا بأكناف حائل

بنو ثعل جيرانها وحماتها ... وتمنع من رماة سعد ونائل

تلاعب أولاد الوعول رباعها ... دوين السماء في رءوس المجادل

مكللة حمراء ذات أسرة ... لها جبك كأنها من وصائل

ولم يهنأ بإقامته في بني ثعل حيث وقعت الحرب في طيء بسببه مرة أخرى، فتحول إلى موضع آخر، وكان هذه المرة في بني فزارة، حيث نزل على رجل فيها اسمه (عمرو بن جابر بن مازن) وعرفه هذا الرجل على وسيلة يسترجع بها ملك أجداده، إذ لفت أنظاره إلى الاستعانة بقيصر الروم، وذلة على رجل من فزارة يمكن أن يوصله إلى السموءل بن عاديا، في تيماء الذي يوصله بدوره إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، ومن ثم إلى القيصر .. وهكذا كانت إقامته في فزارة مشحونة بالآمال والطموحات الكبار التي بدأت تنتعش في قلبه بعد لقائه مع عمرو الفزاري. وذكر صاحب الأغاني ما دار في هذا اللقاء، قال: «فقال له الفزاري: يابن حجر إني أراك في خلل من قومك وأنا أنفس بمثلك من أهل الشرف، وقد كدت بالأمس تؤكل في دار طيء، وأهل البادية أهل بر لا أهل حصون تمنعهم، وبينك وبين أهل اليمن ذؤبان من قيس، أفلا أدلك على بلد! فقد جئت قيصر وجئت النعمان فلم أر لضيف نازل ولا لمجتد مثله ولا مثل صاحبه. قال: من هو وأين منزله؟ قال: السموءل بتيماء، وسوف أضرب لك مثله، هو يمنع ضعفك حتى ترى ذات عينك، وهو في حصن حصين وحسب كبير. فقال له امرؤ القيس: وكيف لي به؟ قال: أوصلك إلى من يوصلك إليه، فصحبه إلى رجل من بني فزارة يقال له الربيع بن ضبع

الفزارى بمن يأتى السموءل فيحمله ويعطيه »(١) . ثم أكمل أبو الفرج ما أعقب ذلك فقال : « ثم مضى القوم حتى قدموا على السموءل فأنشده الشعر ، وعرف لهم حقهم ، فأنزل المرأة فى قبة أدم ، وأنزل القوم فى مجلس له براح ، فكان عنده ما شاء الله ، ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام ليوصله إلى قيصر ، فاستنجد له رجلا ، واستودع عنده المرأة والأدرع والمال ، وأقام معها يزيد بن معاوية بن الحارث ابن عمه فمضى حتى انتهى إلى قيصر »(٢) .

وقد هدأت نفس امرىء القيس أثناء تنقله من فزارة إلى قصر الأبلق بتيماء حيث التقى بالشاعر الجاهلى السموءل ، وتيسرت له الإقامة عنده ، وتجدد الأمل فى استرجاع ملك كندة . وجاء على ألسنة الرواة ما يحكى بعضاً من مسامرات شاعرنا فى تلك المدة ، وبخاصة أثناء انتقاله إلى تيماء ، إذ نعم بالهدوء ، وأحس بالأمان اللذين افتقدهما منذ مقتل والده . ثم كانت وفادته على الحارث الغسانى فى جلق بالشام ، والذى شجعه على الرحلة إلى قيصر ، إذ يجمعهما هدف واحد وهو محاربة المناذرة (الخصم اللدود للاثنين) ويلتقى معهما فى الهدف المشترك الإمبراطور البيزنطى ، الذى يحرص على ضرب اللخميين والفرس معاً ، ولذلك لا نستنكر أبداً أن يكون امرؤ القيس قد قام برحلته إلى قيصر طالباً النجدة على بنى أسد والمناذرة . أما ما قيل بأنه أرسل وفداً إلى قيصر إبان إقامته فى طىء أو فزارة ، وكان من بين الوفد ابنه معاوية فهذا مما لم تتواتر أخباره ، كما لم تتواتر أيضاً عما قيل حول كتابة قيصر إلى النجاشى يدعوه إلى معاونة امرىء القيس ، ولكن الأحباش كانوا على خلاف مع الكنديين ، وكانوا أيضاً مشغولين فى اليمن بالدفاع عنها من الغزو الفارسى . وسواء حدثت

---

(١) أبو الفرج . الأغانى حـ ٩ ص ٩٦ ، ص ٩٧ .

(٢) المصدر السابق حـ ٩ ص ٩٩ .

هذه الوفادة أم لم تحدث فإن شاعرنا قد صمم على الذهاب بنفسه إلى القيصر عندما تهيأت له الوسائل والأسباب .

الرحلة إلى قيصر :

تعد رحلة امرىء القيس إلى قيصر الروم (justinien — جوستنيان) آخر المطاف فى طريق حياته ، وإذا كان البعض قد أنكر الرحلة جملة وتفصيلا فإنه — بالطبع — لم يذكر الأسباب الأدبية والعلمية والتاريخية التى استند إليها فى هذا الانكار والرفض ونعتقد أن الحجج الواهية لاتشكل أهمية كبيرة فى مجال الدراسات الأدبية والتاريخية والنقدية ، وقد قالت الأغلبية بهذه الرحلة ، واطمأنت إلى الروايات التى قيلت عنها لأنها — أى الرحلة — مؤكدة بجملة من الحقائق التى لاتحتمل التأويل ، ولعل منها بل من أهمها : حديث الشاعر نفسه عنها فى أكثر من قصيدة ومقطوعة ، كما أن الكثير من هذا الشعر الذى تناول الذهاب إلى قيصر قد رواه واحد من المشهود لهم بالأمانة والصدق وهو الأصمعى الأديب الناقد والرواية المعروف .

وإذا طالعنا الروايات القديمة التى تناقلتها كتب الأدب والتاريخ فإننا نراها تكاد تجمع على ذهاب امرىء القيس إلى قيصر ، وتتفق أيضا على أنه قد مات (أو قتل) بأنقرة عند عودته ، وأنه لم يجن من رحلته شيئا ، أما ماعدا ذلك من التفاصيل فتختلف الروايات فيما بينها اختلافا ينم عن نوع من التدخل فى سرد هذه الوقائع . ثم هناك من المصالح التى تجمع بين امرىء القيس والقيصر مايجعل القول بهذه الرحلة أمرا مقبولا ، وذلك فيما يختص بمقاومة المناذرة والفرس لهما كما لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يرتحل فيها بعض العرب إلى قيصر للتحالف أو التصالح ، فضلا عما ذكرته الروايات التاريخية عن الرحلة .

ولقد تحدث الشاعر عبيد بن الأبرص عن ذهاب امرىء القيس إلى الروم مع ما بينهما من عداوة وخصومة وكراهية ، قال :

أزعمت أنك سوف تأتى قيصرا ... فلتهلكن إذا وأنت شآمى

على أننا سنعرض لبعض ماقيل فى هذه الرحلة من شعر امرىء القيس فى غير هذا الموضع من الكتاب .

ذكر الدكتور جواد على الطريق التى سلكها شاعرنا للذهاب إلى القسطنطينية فقال : «ويظهر من شعر لامرىء القيس ، أنه سلك طريق الشام فى طريقه إلى (قيصر) وأنه مر بـ (حوران) وبعلبك وحمص وحماه وشيزر ، أما ما بعد ذلك حتى عاصمة الروم . فلا نعرف من أمره شيئا »(١) وذكر أنه ليس فى شعر امرىء القيس ما يدل على أنه ذهب إلى الغساسنة رجاء التوسط فى الوصول إلى قيصر مع أن هذا الأمر ليس داخلا فى الرحلة ، ولا يذكر إلا على أنه مقدمة من مقدماتها . وذكر الإخباريون أنه اصطحب فى رحلته إلى الروم اثنين من رفقائه أولهما عمرو بن قميئة ، وثانيهما جابر بن حنى التغلبى ، وقيل إن من وفدة فى الرحلة رجلا اسمه (الحارث بن حبيب السلمى) .

أما عمرو بن قميئة(٢) فكان شاعرا جاهليا معروفا . وهو أكبر من امرىء القيس . وأول من قال الشعر من نزار ، وقد مات فى الطريق إلى القسطنطينية ، ولذلك سمته العرب (عمرا الضائع) ، لأنه مات فى غير أرب ولا مطلب . وكان عمرو قد ضجر وبكى لما طال بهما المسير ، وذكر ذلك أمرؤ القيس فى أطول قصائده عن الرحلة ، قال(٣) :

---

(١) جواد على المفصل فى تاريخ العرب جـ ٣ ص ٢٧٠

(٢) هو عمرو بن قميئة بن سعد الضبعى البكرى أحد بنى قيس بن ثعلبة ، وكان من خدم (حجر) والد امرىء القيس .

(٣) الديوان ص ٦٥ وما بعدها .

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما
نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقال فيها :

أرى أم عمرو دمعها قد تحدرا
بكاء على عمرو وما كان أصبرا

ويؤكد هذا الشعر أن آمال امرىء القيس في الرحلة تتمثل في استرداد ملك آبائه متجاوزا بذلك حدود الثأر والانتقام من بني أسد.

ولامرىء القيس في قصيدة أخرى تتصل بالرحلة عن شخص آخر كان برفقته وهو جابر بن حني التغلبي الذي كان يحمله على عنقه، وهو مريض في طريق العودة إلى أنقرة قال(١) :

فإما تريني في رحالة جابر على حرج كالقر تخفق أكفاني
فياربّ مكروب كررت وراءه وعان فككت الغل عنه ففداني

وبقي معه حتى مات، وربما كان جابر المذكور هو الذي روى أخبار امرىء القيس وأشعاره قبيل وفاته.

أما ثالث الرجال الذين ورد ذكرهم فهو الحارث بن حبيب السلمي الذي مات في الطريق إلى القسطنطينية بالقرب من بصرى بديار الشام، وبكاه امرؤ القيس فقال(٢):

---

(١) الديوان ص ٩٠.
(٢) الديوان ص ٣٤٧

ثوى عند الودية جوف بصرى
أبو الأيتام والكل العجاف
فمن يحمى المضاف إذا دعاه
ويحمل خطة الأنس الضعاف

وليس يبعد أن يجتمع هؤلاء الثلاثة حول شاعرنا فى رحلته ، بل ربما ضم ركبه أكثر من هؤلاء سواء أكانوا رفاقا أم خدما أم معاونين، حتى يكون ذلك لائقا به عند دخوله على قيصر الروم.

تختلف الروايات التاريخية فيما بينها حول معاملة قيصر لامرىء القيس، كما تختلف أيضا حول موته بأنقرة . ونرتضى من هذه الروايات مالا يتعارض مع الشعر أو العقل ، إذ يرفض العقل أن يذهب امرؤ القيس إلى هذا الامبراطور ثم ينشغل بحب ابنته عن المهمة التى ارتحل بسببها أو أن يصل به الحال إلى حد دخوله الحمام مع قيصر ، أو أن يكون الهدف من زيارته زواج ابنة هذا الامبراطور . أما الخبر الذى استند إلى الشعر استنادا غير قوى فهو ذلك الرجل المعروف بالطماح ابن قيس الأسدى الذى أرسله بنو أسد ليفسد على امرىء القيس خطته، وقد جاء ذكره فى بيت لامرىء القيس وهو(١):

لقد طمح الطماح من بعد أرضه
ليلبسنى من دائه ما تلبسا

وربما كان (الطماح) رمزا أو كناية عن شخص عدو لامرىء القيس، ويتصل بذكر الطماح ما قيل إنه وشى إلى قيصر وشايات مختلفة نتج عنها إرساله حلة مسمومة إلى امرىء القيس بعد تركه القسطنطينية :

---

(١) الديوان ص ٣٥٧.

وكانت سببا فى وفاته حيث تسرب السم فى جسمه ، فتهتك بدنه ، وتناثر لحمه ، وقتل بها فى أنقرة . وهذه الزيادات من منحولات الرواة إذ كيف يكون الطماح عدوا لامرئ القيس ، وعاملا فى الجيش الذى أمــده به قيصر فى الوقت نفسه !

ونعود لنؤكد أن شاعر كندة قد استقبل فى القسطنطينية استقبال الأمراء وأن القيصر قد أكرمه ، وأنزله منزلا حسنا ، وأمده بجيش فيه بعض الأمراء وأن امرأ القيس قد تحرك بهذا الجيش جنوب فلسطين ، واشتد عليه مرض الجدرى ، فتقرح جسمه ، وزادت علته عندما اقترب من أنقرة ، ولم يستطع إكمال عودته ، فبقى فى أنقرة حتى مات ، وتفرق الجيش الذى كان معه ، وكانت وفاته فى نحو عام ٥٤٠م . وقيل إنه توفى فى غير هذا التاريخ . على أن تحديد سنة الوفاة ليست محلا للإتفاق عند القدماء ، ولذلك نكتفى بالتاريخ المذكور ، ولا داعى لذكر سواه .

وذكرت أكثر الكتب القديمة أنه عندما أحس بنهايته قال بعض الأبيات مثل قوله(١) :

أجارتنا إن المزار قريب   وإنى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا   وكل غريب للغريب نسيب

وقوله(٢) :

رب طعنــة مثعنجره
وجفنــة متحــيره
وقصيــدة محــبره

---

(١) الديوان ص ٢٥٧ (٢) الديوان ص ٣٤٨

تبق غدا بأنقره(١)

ولا نذكر هذا الشعر لنؤكد به على شيء أو نستخلص منه مذهبا فنيا للشاعر إذ لا نتجاوز بذكره حدود الإخبار عما استشهد به القدماء، ولأن هذه المرويات لا تلقي منا سوى الشك والارتياب.

ويتصل بحياة امرىء القيس جوانب أخرى كزواجه وعقيدته، ونفضل أن نعرض لهذه الأمور من خلال شعره في الفصول التالية.

(٢) المثعنجرة: السائل دما، المتحيرة: الممتلئة طعاما ودسما، الحبرة: الحسنة.

الفصل الثالث

أولية الشعر الجاهلي

عندما عرض القدماء للبكاء على الأطلال فى افتتاح القصائد ذكروا امرأ القيس الذى كان أميراً للشعر فى عصره ، حيث سبق الشعراء إلى ابتداع المعانى والتعبير عنها ، وافتتح أبواباً من الشعر ، وطرق موضوعات كثيرة لم يسبق إليها ، وعبر عن كل ذلك بعبارة جزلة وسبك محكم وأسلوب رصين . ولكنه ذكر بيتا أثار العديد من الأقوال والتكهنات وهو قوله :

عوجا على الطلل المحيل لأننا ... نبكى الديار كما بكى ابن خذام

(عوجا : اعطفا ، المحيل : الذى أتى عليه الحول فتغير ، لأننا : بمعنى لعلنا) .

من هو ابن خذام أو ابن حمام كما تقول بعض الروايات ؟ لا ندرى . إذ لم يتحدث القدماء أو المحدثون عن هذا الرجل الذى بكى على الديار قبل امرىء القيس حديثا شافيا مفيداً . ويبقى تاريخ الشعر فى العصر القديم قبل امرىء القيس محوطا بالضبابية والخفاء ، وكل ما يقال عن هذه المرحلة لا يعدو أن يكون ضربا من الحدس والتخمين الذى يفتقر إلى الأسس العلمية والمعايير الصحيحة ، كما أنه ليس هناك من النقوش والوثائق ما يخدم تلك الفترة ، ولذلك اضطرب القدماء فى حديثهم عن هذه الأولية اضطرابا يبعث على الضحك أحيانا ، وعلى التوقف والعجب فى أحيان أخرى .

مرويات القدماء :

ذكر (كارل بروكلمان) مقولة لأبي عمرو بن العلاء جاء فيها « إن امرأ القيس أول الشعراء وذا الرمة آخرهم »(١) .

وليس المقصود بالأولية هنا السبق والتقدم ، وإنما يراد بها الإجادة والتفوق . فليس ذو الرمة آخر الشعراء كما هو معروف ، ومثلها ما جاء بالعمدة من قولهم « بدىء الشعر بكندة يعني امرأ القيس ، وختم بكندة يعني أبا الطيب »(٢) .

ويعد ابن سلام من أوائل من بحثوا باهتمام عن أولية الشعر العربي ، حيث تحدث في أول الطبقات عن أوائل الشعراء الجاهليين ، وكان يرى أن الشعر في أول عمره عبارة عن مقطوعات صغيرة يقولها الرجل فيما يعرض له ، قال :

« ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته ، وإنما قصدت القصائد ، وطول الشعر على عهد عبد المطلب ، وهاشم بن مناف ، وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع .. »(٣) .

ثم قال : « وكان أول من قصد القصائد ، وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل ، قتلته بنو شيبان ، وكان اسم

---

(١) كارل بروكلمان . تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٢٢٢ دار المعارف

(٢) ابن رشيق . العمدة ج ١ ص ٨٨ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

(٣) ابن سلام . طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٦ تحقيق محمود شاكر .

المهلهل عديا ، وإنما سمى مهلهلا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب ، وهو اضطرابه واختلافه »(١) .

وهكذا يرى ابن سلام أن الشعر الجاهلى قد بدأ فى صورة مقطوعات ثم تطور وتحول إلى الشكل المتعارف عليه ، وهو القصيدة بفضل المهلهل ابن ربيعة الذى عاصر أحداث حرب البسوس .

وقد أكد الجمحى رفضه للأوليـــة المشبوهة التى قال عنها : « فنحن لا نقيم فى النسب ما فوق عدنان ، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعراً ، فكيف بعاد وثمود ؛ فهذا الكلام الواهن الخبيث ، ولم يرو قط عربى منها بيتا واحداً ، ولا راوية للشعر ، مع ضعف أسره وقلة طلاوته »(٢) .

وهكذا طعن فى مرويات ابن إسحاق من الشعر المنسوب إلى عاد وثمود .

ثم جاء الجاحظ فحدد مائتى سنة كأقصى عمر للشعر العربى قبل الإسلام قال : « وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه إمرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة ، ... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له — إلى أن جاء الله بالإسلام — خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام »(٣) .

وهكذا يرجع الجاحظ ولادة هذا الفن إلى مائتى سنة قبل الإسلام على أكثر تقدير ... ونعتقد أن رأى الجاحظ الذى تناقلته الرواة يحجب مرحلة كبيرة من عمر هذا الفن كانت بالطبع مشحونة بالمحاولات

(١) المصدر السابق حـ ١ ص ٣ (٢) المصدر السابق حـ ١ ص ١١ .
(٣) الجاحظ . الحيوان حـ ١ ص ٧٤ (الحلبى) .

من التجارب والإرهاصات التى انبثق من مخاضها شعر امرىء القيس ورفاقه المعاصرين له أو المتقدمين عليه ببعض السنين مثل المهلهل وأبو داود الإيادى ، وكليب بن ربيعة وعبيد بن الأبرص وعمرو بن قميئة وغيرهم .

ولكن المرحلة المتقدمة التى سبقت هذا الجيل غامضة ، وغير واضحة المعالم والشخصيات، ولهذا يعد ما يقال عنها من باب الشك الذى لا يرقى إلى اليقين .

أما ابن قتيبة فقد عقد فصلا حدث فيه عن هؤلاء الاوائل بإيجاز ، وهو تابع فى ذلك لإبن سلام قال : « لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة »(١) .

ثم ذكر نماذج شعرية لبعض الشعراء القدامى الذين يمثلون المرحلة الأولى التى تسبق عصر امرىء القيس ، ويلاحظ على النماذج الشعرية التى تمثل هذه المرحلة أنها مقطوعات قصيرة لا تأخذ شكل القصائد المطولة ، ولكنها تعبر عن طفولة هذا الفن ، وأنها البداية الحقيقة للمرحلة الثانية التى تميزت بعدد من الشعراء النابغين ، إذ أن واقع الأشياء والقانون الطبيعى للتطور يؤذن بسبق ظهور القصيدة فى أيام المهلهل بالعديد من المحاولات والتجارب الجادة ... ولا يعقل أن تكون النشأة أو الولادة قد تمت فى حدود الزمن الذى حدده الجاحظ فى مقولته السابقة ، ولكن الآثار الأدبية التى تصور المرحلة الأولى غير كافية ، ولذلك تضاربت الأقوال عن الشعر فى هذه الفترة وشابتها شوائب عديدة ، ولذا قنع الكثيرون بما قاله الجاحظ ، وارتضوا تأريخه لحياة الشعر العربى ، وغضوا

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ صـ ١١٠ تحقيق أحمد شاكر ط ٣ عام ١٩٧٧ م

أبصارهم عما اكتنف المرحلة الأولى من خلط وتشكيك واضطراب، ومما ساعد على القناعة برؤيه الجاحظ — مع عدم الرضا بها والموافقة التامة عليها — ما أوردته بعض كتب الأدب من أشعار منسوبة إلى آدم وإبليس وبعض الملائكة وبعض العماليق وعاد وثمود، بل تجاوزت هذه الآثار القديمة حدود الضحك والعبث، والإفك أيضا، فنسبت الأشعار إلى الجن. ولا يليق بنا فى العصر الحاضر أن نعرض لهذه المرويات القديمة والتى لا يخفى على أحد ما فيها من نحل وعبث وافتراء.

آراء المحدثين :

نظر المحدثون إلى الفترة التى سبقت المائتى سنة، والتى ارتضاها الجاحظ كبداية للشعر الجاهلى نظرة شك وارتياب، ولم تكن أقوالهم على درجة من اليقين الذى يرقى فوق رؤية ابن سلام وابن قتيبة ومن صادق على وجهتيهما.

ورأى (بروكلمان) أن العرب عرفوا السجع فى تلك المرحلة الأولى وهو النثر المقفى المجرد من الوزن فقال: «والسجع هو القالب الذى كان يصوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقوالهم كما جاء فى القرآن»(١).

ثم ترقى السجع إلى بحر الرجز المتألف من تفعيلة واحدة، ومن هذا البحر نشأ البناء العروضى للشعر، حيث تكون البيت من مصراعين وقافية فى نهاية الشطر الثانى. وتتجه نظرة بركلمان — كما سبق — إلى القوالب الوزنية للشعر العربى مع نفيه القاطع لأن يكون العروض العربى قد نشأ على أساس شعر اليونان. ويمسك الدكتور شوقى ضيف عن الخوض فى تلك المرحلة الأولى حيث يقول: «والحق أنه ليس بين

---

(١) بروكلمان. تاريخ الأدب العربى جـ١ صـ ٥١

أيدينا شيء من وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلي وحقبه الأولى ، وكيف تم له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التى تلقانا منذ أوائل العصر الجاهلي »(١) .

ويعرض لما قاله بعض القدماء والمحدثين حول ظهور الرجز كأقدم أوزان الشعر العربي ، وأنه تولد من السجع مرتبطا بالحداء ووقع أخفاف الإبل فى أثناء سيرها وسراها فى الصحراء ، ثم تولدت منه الأوزان الأخرى ... وهو بذلك يشير إلى رأى بروكلمان الذى ذكرناه آنفاً . ثم قال: « وكل ما يمكن أن يقال هو أن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعا فى الجاهلية ، كانوا يرتجلونه فى كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم فى السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى إنما يعنى أنه كان وزناً شعبياً لا أقل ولا أكثر (٢) .

ويرى الدكتور يوسف خليف فى كتابه عن الشعر الجاهلي أن القصيدة العربية التى ظهرت أيام حرب البسوس هى قصيدة مكتملة التقاليد ، ويؤكد على ضرورة سبقها بمحاولات كثيرة ، وتجارب متعددة قام بها الرواة الأوائل من الشعراء الجاهليين ، ثم يعرض لآراء القدماء والمحدثين من خلال ما أسماه بالنظرية العربية القديمة وبالنظرية الحديثة ، ولم يرتض النماذج التى ذكرها القدماء عن المرحلة المتقدمة حيث يكتنفها الشك والاتهام ، ويرى أن ما قاله المحدثون لا يرقى — أيضاً — إلى اليقين وأنه مجرد فرض مثلما قال شوقى ضيف . ويرى أن الشعر العربي « قد بدأ غناء

---

(١) د / شوقى ضيف . تاريخ الأدب العربي فى العصر الجاهلي ص١٨٦ دار المعارف

(٢) المرجع السابق ص ١٨٦ .

وأن هذا الغناء بدأ رجزاً ، وأن هذه البداية كانت بداية طبيعية مرتبطة بحياة البادية التى ظهر فيها هذا الشعر أول ماظهر (١).

وهكذا اقتنع بما رآه (بروكلمان) حول هذه الأولية . أما عن البداية الحقيقية فقد أرجعها إلى المهلهل بن ربيعة بطل حرب البسوس الذى يعد الرائد الأول ، والذى أعطى القصيدة صورتها المعروفة وشكلها التقليدى . ويعد ما كتبه يوسف خليف عن أولية الشعر العربى من أوسع ما كتب حول هذا الموضوع .

وأخيراً :

لقد مر الشعر العربى بمرحلة طويلة من عمر الزمن كانت مليئة بالتجارب الفنية سواء من خلال المقطوعات كما قال القدماء ، أو من خلال الرجز كما ذكر المحدثون ، وأن هذه المرحلة التاريخية مليئة أيضا بالاضطراب لما اعتورها من شك واتهام حيث يرفض العقل كثيرا من النماذج التى رواها القدماء من شعر يرجع بعضه إلى مرحلة لم تكن اللغة العربية قد ولدت هى وأخواتها الساميات .

أما المحاولات الأولى مع الإقرار بأهميتها والاعتراف بها كتعبير عن منطق التطور إلا أنها لا تستند إلى أدلة قوية لإقرارها والتأريخ لها ، وكل ما يمكن قوله لايتجاوز حدود الظن والافتراض ، ذلك لأن القبائل فى عصر التدوين كانت معنية بنسبة الأشعار إليها ، ولذلك لا نستبعد ما قاله القدماء حول إمكانية الإضافة أو النحل للكثير من الأشعار التى تأتى تعبيرا عن عصبية قديمة أو عن أحداث تعوزها الأدلة والبراهين . فعمر الشعر أكبر بكثير مما قاله الجاحظ ، ولكن هذا الكبر غير واضح لنا تماما وكل

---

(١) يوسف خليف . دراسات فى الشعر الجاهلى ص ٤٤ .

ما قيل حوله غير معروف كجهلنا بحقيقة ابن خذام الذى ذكره امرؤ القيس فى بيته السابق .

أما ما ذكره القدماء من شعر عربى لآدم وإبليس والعمالقة القدماء مثل الهكسوس الذين أغاروا على مصر فى العصور القديمة والجن والملائكة فإنه من الأمور التى تثير الإشفاق على من تعقبوا هذه الأشعار وتحدثوا عنها ، وأفردوا لها الصفحات تلو الصفحات من غير أن يحترموا العقلية العربية فى القديم والحديث على السواء .

الفصل الرابع

شعر امرىء القيس

لا نود أن نتجه فى حديثنا عن شعر امرىء القيس إلى قضية الانتحال وما أثير حولها قديما وحديثا، إذ أن هـذه القضية سوف تبحث فى فصول أخرى، وإنما يعنينا هنا أن نؤكد أن شعر امرىء القيس لم يسلم من الطعن والتشكيك فى القديم والحديث سواء من ناحية النقاد والمؤرخين أو من ناحية الرواه أنفسهم.

وقد انتقلت القضية من القدماء إلى المحدثين، وتجاوزت امرأ القيس إلى الشعر الجاهلى كله، وبدأ المستشرقون هذه الحملة، وجاراهم بعض المحدثين العرب. وبدأ الشك فى شعر امرىء القيس منذ القدم لأسباب عامة ذكرها ابن سلام وبعض القدماء كالعصبية القبلية، وعدم تدوين الشعر الجاهلى، إلا ما قل منه مثل المعلقات — فى رأى البعض — والاعتماد على بعض الرواة المشهورين بكثرة الوضع والنحل مثل حماد الراوية وخلف الأحمر، وذلك عند تدوين الشعر الجاهلى فى القرن الثانى الهجرى، إلى غير ذلك من الأسباب التى قالها القدماء والمحدثون، تأكيدا أو نفيا لقضية الانتحال.

أما ما يعود إلى امرىء القيس نفسه فيرجع إلى كثرة من تسموا باسمه فى العصر الجاهلى، وكان معظمهم من الشعراء، كما التف حـوله بعض الشعراء الفتاك مثل عمرو بن قميئة، وأبى داود الإيادى، وعامر بن الجون وغيرهم، حيث اختلطت أشعاره بأشعارهم، وعجز الرواة عند التفريق

بين ما قاله كل واحد منهم ، غير أن شعر أمرىء القيس — مثل أكثر الشعراء — لم يكن على وتيرة واحدة ، فسهل على نقدة الشعر أن يميزوا بعض ماله مما نسب لغيره ، أو يميزوا ما دخل فى ديوانه وليس من شعره ، ولا يعبر عن موهبته وفنه ومذهبه وطابع حياته .

ولقد اعتنى القدماء بشعره فعكفوا على روايته وتمحيصه بمستوى لم ينله شاعر مثله ، فقد رواه حماد وأبو عمرو الشيبانى ، والأصمعى ، والمفضل ، وخالد بن كلثوم ، ومحمد بن حبيب ، وأبو العباس الأحول ، وابن السكيت ، ثم صنعه أبو سعيد السكرى من جميع الروايات .(١)

وهؤلاء الرواة منهم البصرى ، ومنهم الكوفى ، ومنهم الثبت الثقة كالأصمعى ، ومنهم من اشتهر بالوضع مثل حماد .

وهذا الأخير سيبقى ورقة رابحة فى يد كل طاعن فى الشعر الجاهلى حيث نهض برواية القدر الأكبر من الشعر قبل تدوينه ، ويذكر الأصمعى أنه روى شعر امرىء القيس عن حماد ، وسمع القليل منه عن أبى العلاء وبعض الأعراب ، ومع ذلك حذر منه . وبين فساد مروياته . وأظن أن الأصمعى لم يرتض من شعر امرىء القيس إلا القليل الذى أحكم نقده وتمحيصه ، وهو ثمان وعشرون قصيدة ومقطوعة مع إبداء شكوكه فى بعض الرواة .

وتناول القدماء أيضا شعر امرىء القيس بالشرح والتفسير والبيان ، ومن هؤلاء الأصمعى والطوسى ، وأحمد بن حاتم ، وأبو حاتم السجستانى ، وابن قتيبة وأبو على القالى ، والوزير أبو بكر البطليوسى ، والأعلم الشنتمرى ، وابن عصفور النحوى وغيرهم .(٢)

(١) محمد أبو الفضل - مقدمة الديوان ص٦

(٢) المصدر السابق ص٦

وبهذا يشكك بعض القدماء في شعر امرىء القيس : ولم يتصوا كل ما يروى له ، فقال أبو حاتم السجستاني ، وهو راوية للأصمعي في آخر ما رواه عن أستاذه في الديوان « بهذا آخر ما صح للأصمعي من شعر امرىء القيس ، والناس يحملون عليه شعرا كثيرا وليس له »(١) . ولعتقد أنه يقصد بعض الكوفيين الذين يتساهلون في الرواية ، ولا يصنعون ما يصنعه علماء البصرة من التمحيص والتثبت . ويقول الرياشي : « ويقال إن كثيراً من شعر امرىء القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره »(٢)

أما ابن رشيق فقال : « وكان امرؤ القيس مقلا ، كثير المعاني والتصرف ، ولا يصح له إلا نيف وعشرون شعرا بين طويل وقطعة . ولا ترى شاعرا يكاد يفلت من حبائله وهذه زيادة في فضله وتقديمه »(٣)

موقف المحدثين من شعر امرىء القيس

لقد اعتنى المحدثون بشعر امرىء القيس عناية فائقة ، وتجلى ذلك في الطبعات العديدة للديوان ، إلا أن موقفهم من هذا الشعر قد اختلف من واحد إلى آخر . وبدأ المستشرقون في القرن التاسع عشر الميلادي حملة على الشعر الجاهلي كله ، وشككوا في شعر امرىء القيس أيضا ، ثم جاء الدكتور طه حسين فأثار القضية في كتابه (في الشعر الجاهلي) الذى اعاده طبعة باسم (في الأدب الجاهلي) حيث أضاف إليه بعض الفصول .

---

(١) المصدر السابق ص١٤٩

(٢) المرزباني ، الموشح ص ٣٢ أخرجه محب الدين الخطيب . المطبعة السلفية عام ١٣٨٥ هـ

(٣) ابن رشيق . العمدة ج١ ص ١٠٥

وحذف بعض الفصول ، وذكر الأسباب التى أستند إليها فى الشك فى الشعر الجاهلى ، وإن ارتضى لامرىء القيس قصيدتين هما اللامية المعروفة (بالمعلقة) واللامية الثانية (ألا عم صباحا أيها الطلل البالى) ويرأى أن الشعر المتصل بسيرته إنما هو من عمل القصاص ، وقد أثارت هذه الآراء وغيرها بعد أن كتبها الدكتور طه حسين — ردود فعل عنيفة ولذلك نرجىء الحديث عنها إلى موضع آخر .

أما الدكتور شوقى ضيف فقد تابع الدكتور طه حسين فى معظم آرائه، وارتضى من شعر امرىء القيس ثلاث قصائد ومقطوعة ، وشك فى تسع قطع ، ورد الباقى من مجموع رواية الأصمعى . بل إن بعض ما رده قد اجتمع البصريون والكوفيون على روايته .

أما الدكتور ناصر الدين الأسد فقد ارتضى ما اجتمع الأصمعى والمفضل على روايته وهو عشرون قصيدة ومقطوعة ، لتكون أصلا صحيحا للديوان أو أقرب إلى الصحة ، على أن يتم دراسة هذا القدر ويستخرج منه الخصائص الفنية لشعر امرىء القيس ويتخذ كمنهاج للحكم من خلاله على الجزء الذى تفرد الأصمعى بروايته ، والجزء الآخر الذى تفرد المفضل بروايته(١) .

أما الدكتور على الجندى فقد قبل ما رواه الأصمعى والمفضل وهو سبع وأربعون قصيدة ومقطوعة ، واستثنى منه سبع قصائد ومقطوعتين ، فرفضها لما وجه لها من شك واتهام . وأبقى من هاتين الروايتين ثمان وثلاثين قصيدة ومقطوعة إذ رآها صالحة لأن تتخذ أصلا للديوان (٢) ، ويتفق مع ناصر الدين الأسد فى ضرورة استخراج بعض المعايير الفنية

---

(١) انظر ناصر الدين الأسد . مصادر الشعر الجاهلى ص٥١٤

(٢) د/ على الجندى . تاريخ الأدب الجاهلى ج٢ص٧٥ الأنجلو المصرية الطبعة الثالثة ١٩٦٩م

لشعر امرىء القيس من واقع القدر الذى ارتضاه . مع الاحتكام إليه فى قبول الباقى من شعره أو رفضه رفضا تاما .

أما الدكتور الطاهر أحمد مكى فقد ارتضى روايتى الأصمعى والمفضل كلا . ولم ير فيهما ما يجزم العقل الحديث باستحالة أن يكون لامرىء القيس ، كما أسقط كل شعر نسبه الأقدمون إلى آخرين مع امرىء القيس ولم يقطعوا فيه برأى ، وقال : « ووقفنا من زيادات الطوسى والسكرى وابن النحاس وأبى سهل موقفا متحفظا ، لأن معظمها لا يشاكل شعر امرىء القيس شكلا ومضمونا ، لم نقبلها جمله وفيها ما يستحيل أن يكون لشاعرنا ، ولم نرفضها كلا ، لأن بين ما تضمنته شعرا يدعمه واقع الأحداث ويرجح فيه جانب اليقين ، وأسقطناها من الاعتبار عند تعادل الظن وتساوى المرجحات (١) .

وقد تفاوتت آراء بقية المعاصرين ممن تحدثوا عن شعر امرىء القيس وهى فى مجموعها لا تصل إلى رؤية طه حسين بما فيها من تعميم الرفض ، وإغفال الرواة ، وطرح كل شعر يتناول حياته ورحلته إلى قيصر .

كما لا ترضى هذه الآراء بقبول ما جاء فى نسخ الديوان إذ أن بعض القصائد تنعدم صلتها تماما بامرىء القيس ولعل منها القصيدة التى تعرض لها الأستاذ مصطفى صادق الرافعى (٢) وأولها .

لمن طلل بين الجدية والجبل   محل قديم العهد طالت به الطول

على أن هذه القصيدة لم ترد فى نسخ السكرى للديوان ، والتى تعد أصلا لكتاب (العقد الثمين) الذى وجدت به القصيدة المذكورة (٣) .

---

(١) د/ الطاهر مكى ، أمرؤ القيس ص ١٢٢ طبعة دار المعارف

(٢) فى كتابه (تاريخ آداب العرب) .

(٣) أخرجه هلوارد على نسخة السكرى ، وأضاف إليه ما وجده من شعر لامرىء القيس فى الكتب الأخرى .

لقد روى الأصمعي شعر امرىء القيس عن حماد الراوية وأبي عمرو ابن العلاء وبعض الأعراب قال : كل شيء في أيدينا من شعر لامرىء القيس فهو عن حماد الرواية ، إلا نتفا سمعناها من الأعراب وأبي عمرو ابن العلاء . .

والمعروف أن حمادا أول من جمع أشعار العرب ، وشكك ابن سلام في مروياته ، ولم يكن منهج الأصمعي ليسمح بقبول كل ما روى عنه . ونعتقد أن الأصمعي قد روى عنه أكثر مما رواه عنه تلميذه أبو حاتم ، ولكنه أخضع هذه المرويات لاعتبارات نقدية كثيرة ، ولذا وصل عددها إلى ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة ، بل إنه شك في بعضها ، ودفع الكوفيون بعض هذه المرويات . أما مقطوعة امرىء القيس التي شك فيها الأصمعي فهي(١) :

ألا إن لا تكن إبل فمعزى   كأن قرون جلتها العصي
وجاد لها الربيع بواقصات   فآرام ، وجاد لها الولي
إذا مشت حوالبها أرنت   كأن الحي صبحهم نعي
فتوسع أهلها أقطا وسمنا   وحسبك من غنى شبع وري

لم يكن شك الأصمعي في هذه المقطوعة منصرفا إلى الرواة ، أو إلى الخصائص الفنية التي يتميز بها شعره ، ولكنه قال : «امرؤ القيس ملك ، ولا أراه يقول هذا » .

وأظن أنه لا يخفى على الأصمعي ، أو على من جاء بعده أن امرأ القيس بمقتل جده وأبيه لم يعد ملكا أو خليفة الملك ، وإنما صار شريدا

---

(١) الديوان ص١٣٦

طريدا بين القبائل ، خائفا من المنذر أو من غدر جديد ينهض به بنو أسد أو بعض المعاصرين له كعامر بن الجون ، أو غيره ، وكانت عبارة الأصمعي السابقة وبالاعلى هذه المقطوعة ، فاحترس النقاد منها ، وأدخلوها في دائرة الشك والارتياب ، على أن شهادة الأصمعي ليست دوما محل اعتبار عند المتأخرين بخاصة . ففي الديوان مقطوعة أشترك فيها أمرؤ القيس والتوءم اليشكري (١) ورواها الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء ورواها أبو عمرو عن ذي الرمة وكلهم ثقات ، ومع ذلك وقع هذا النص في مخالب الشك ، وقالوا عن هذه القطعة إنها من صنع الرواة .

ولقد اشتدت حملة التشكيك في الشعر الجاهلي بعامة ، وفي امرىء القيس بخاصة في العصر الحديث ، فرفض البعض معظم شعره ، لأن بعض هذا الشعر يتحدث عن رحلته إلى قيصر ، وما داموا قد نفوا الرحلة لأن ابن هشام الكلبي كان واحدا من رواتها ، فلابد أن ينفوا كل ما يتعلق بها حتى لو كان ذلك قصيدة من عيون الشعر الجاهلي ، ومن الأفضل أن يكون هذا الرفض مبنيا على مواصفات من ناحية الألفاظ والمعاني والأخيلة مع عدم إغفال الرواية في صحة الشعر ونحله . ولو أسلمنا شعر امرىء القيس لدواعي الانتحال واستبعدنا كل قصيدة يتسرب إليها الشك بدون أن نبحث عن أسباب ذلك لما بقي لهذا الشاعر ماينسب إليه حتى المعلقة نفاها بعض الناس عنه .

« من الغريب أن بعض الرواة زعم بأن هذه القصيدة (المعلقة) ليست لامرىء القيس ، وأنها ألحقت بشعره ، وإنما هي من شعر بعض

---

(١) الديوان ص ١٤٧ (القطعة رقم ٢٨) .

النمريين ، وهذا بلا شك زعم باطل ...»(١) وهل نملك بعد ذلك إلا أن ندافع عن شعر الرجل حتى لا يتحول من الحقيقة إلى الأسطورة ، على أن هذا الدفاع لا يجعلنا نقبل كل ما نسب إليه من شعر ، فهناك بعض القصائد التي لم يروها الأصمعي أو المفضل لا يمكن أن تكون لامرىء القيس ، وتبدو فيها مظاهر الصنعة والتكلف ، ولهذا نود أن يكون نقد شعره مبنيا على أسس فنية وقواعد مستوحاة مما رواه الأصمعي والمفضل فما رواه هذان الرجلان هو الأصل لشعر امرىء القيس إلا إذا تكاثرت الشكوك حول بعض القصائد فينبغي التوقف عن القول بتمثيلها لشعره ، كما يضاف إلى هاتين الروايتين بعض القصائد والمقطوعات مما رواه غيرهما والتي تتفق مع شعره من وجوه كثيرة وما عدا ذلك مما يتباعد في خصائصه عن شعره فليس لنا أن نستشهد به ، أو ننسبه إلى هذا الشاعر . ولعل هذه الوجهة تقارب إلى حد كبير ما قال به الدكتور علي الجندي في الحكم على شعر امرىء القيس ، ولا نود أن يكون حديثنا عن هذا الشعر مشحونا بقدر من التعاطف معه ، فينعكس ذلك على مقدار الحقيقة التي نسعى إليها ولكن ذلك غير وارد ، فامرؤ القيس مهما تعرض شعره للشك والاتهام من القدماء والمحدثين لم يستطع أحد أن ينزله من الربوة السامقة التي سما إليها وأقام فيها ، وبقي محتفظا — منذ مئات السنين — بإمارة الشعر الجاهلي ، ولم تتأخر معلقته عن الصدارة التي قبعت فيها منذ أن علقت بصدور الناس .

---

(١) حسن السندوبي . الديوان ص ٣٤ .

الفصل الخامس

امرؤ القيس بين التأثير والتأثر

روايات القدماء لديوان امرئ القيس

لقد روى شعر امرئ القيس من القدماء ما يقرب من ستة عشر راويا من بصريين وكوفيين وغيرهيم، وبعض هؤلاء الرواة قاموا بشرح الديوان إلى جانب روايتهم لعدد من قصائده حسب الرواية التى يعتمدون عليها ، وأن أشهر هؤلاء الرواة اثنان هما الأصمعى (أبو سعيد عبد الملك بن قريب) (ت ٢١٦ هـ) والمفضل بن محمد الضبى (ت ١٧٨ هـ).

وقد أخذ عن الأصمعى تلميذه أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلى (ت ٢٣١هـ) وأبو حاتم سهل بن محمد السجستانى (ت ٢٥٥هـ) ، وقد جاءت رواية السجستانى كاملة واعتمدها الأعلم الشنتمرى فى نسخه لديوان امرئ القيس ، وهى ثمان وعشرون قصيدة ومقطوعة بينما أخذ عن المفضل الضبى تليمذاه أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيبانى (ت ٢٠٦هـ) وابن الأعرابى (أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابى) (ت ٢٣١هـ) ولم تصل روايتهما كاملة .

أما ما تبقى من قصائد الديوان ومقطوعاته فقد اختيرت من روايات لتلاميذ هاتين المدرستين ، مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة.

وقد ظهرت نسخ كثيرة لمخطوطات الديوان القديمة ، وهى تختلف فى عدد القصائد والمقطعات ، كما تختلف فى الرواة الذين اعتمد عليهم . وقد عرف الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم فىمقدمة الديوان الذى أخرجه فى طبعة علمية محققة بأشهر هذه النسخ ، وأشار إلى ما بينهما من فروق ،

مع إن بعض النسخ لم تصل إلينا ، ولم تتجاوز معرفتنا لها أكثر مما كتب عنها ، وهذه هى أهم النسخ:

١- نسخة الأعلم الشنتمرى:-

اعتمد الأعلم الشنتمرى (يوسف بن سليمان بن عيسى) (ت٤٧٦هـ) رواية أبى حاتم السجستانى لديوان امرئ القيس ، وهى ثمان وعشرون قصيدة ومقطوعة وقد أخرج الديوان ضمن (أشعار الشعراء الستة الجاهليين).

ومع أن الأصمعى قد روى هذا العدد إلا أنه شك فى مقطوعة منها ، وهى التى تبدأ بقول امرئ القيس:

ألا إن لاتكن إبل فِمِعْزَى ... كأن قرون جلتها العصىّ[1]

ولنا تعقيب سيأتى فيما بعد حول شك الأصمعى فى هذه القطعة، ومع ما عرف عن هذا الرجل من نقد وتمحيص للروايات إلا أن المفضل الضبى لم يرو سبعا من هذه القصائد والمقطوعات ، وبذلك يتفق كل من الأصمعى والمفضل حول رواية عشرين قصيدة ومقطوعة من هذا القدر الذى جعله الأعلم الشنتمرى أصلا لديوان امرئ القيس.

والقصيدة التى تبدأ بقوله:

أعنِّى على بَرقٍ أراه وميض ... يُضيئ خبيًا فى سماريخَ بيض[2]

رواها الأصمعى والمفضل ، ومع ذلك قيل إنها لأبى داود الإيارى الذى كان امرؤ القيس راوية له .

---

[1] النص الثانى والعشرون فى الديوان ص ١٣٦.

[2] هى القصيدة الخامسة فى الديوان بتحقيق أبى الفضل ص ٧٢ ، وفى أشعار الستة الجاهليين ص ٧١، وفى الديوان بتحقيق حسن السندوبى ص ٤٠.

والقصيدة التى تبدأ بقوله :-

أماويّ هل لى عندكم منُ مَعّرسِ

أم الصرمِ تختارين بالوصل نيئس[١]

من جملة ماروواه الأصمعى إلا أن المفضل لم يروها، ويقال : إن أبا عمرو الشيبانى قدرواها لبشر بن أبى خازم . وهكذا اتضح أن رواية أبى حاتم السجستانى لم تسلم من طعن الكوفيين الذين عرفوا بالتسهيل فى الروايات والتكثير من الشعراء .

وأضاف الأعلم إلى رواية أبى حاتم عن الأصمعى أربع قصائد من رواية المفضل ، وقصيدتين من رواية أبى عمرو الشيبانى ، وهذه القصائد لم يرؤها الأصمعى .

ووضح لنا أن نسخة الأعلم قد روى الأصمعى فيها سبعا وعشرين نصا وشك فى واحدة منها ، وروى المفضل وأبو عمرو ست قصائد[٢] ، واتفق الأصمعى والمفضل على رواية عشرين قصيدة ومقطوعة .

٢- نسخة الطوسى وما ألحق عليها :

تعد نسخة الطوسى (أبو الحسن الطوسى) (ت٢٥٠هـ) من أكبر النسخ، وذلك لأنها تشتمل على عدد كبير من القصائد والمقطوعات . وقد التقى فى رواياتها المفضل وتلميذاه (أبو عمرو الشيبانى) و(ابن الأعرابى) ،

---

[١] هى القصيدة الثانية عشر فى الديوان ص ١٠١ وفى أشعار الشعراء الستة ص ٨٧ وفى الديوان بشرح السندوبى ص ١١٨.

[٢] هى القصائد (٢٩،٣٠،٣١،٣٢) من نسخة الطوسى والقصيدتان (٥٠،٥١) من الزيادات على نسخة الطوسي .

والأصمعى (البصرى) وغيرهم كما تجمع بين القصائد التى رواها المفضل (المشهود له) وبعض القصائد والمقطوعات التى ألحقها كاتب مجهول بهذه النسخة . ومن تتبع ما نشره أبو الفضل منها تبين أنها تشمل فى أولها على ثنتين وأربعين قصيدة ومقطوعة رواها المفضل باستثناء المقطوعة العشرين[1] والتى يقول امرؤ القيس فيها :

أذود القوافى عنى ذيادا   ذياد غلام جرئ ذيادا

[بعده بيتان]

ويبدو للدكتور ناصر الدين الأسد أن هذه الأبيات الثلاثكان الطوسى قد قرأها على ابن الأعرابى فأقرها ، ولذلك ضمها إلى نسخته ، وأشار إلى أنها ليست من رواية المفضل[2] .

وقد قرأ الطوسى معظم هذا الشعر على ابن الأعرابى ، ويلحق بهذا القدر سبع قصائد رواها الأصمعى وبعض الكوفيين . كما ألحق كاتب مجهول بهذه النسخة ستاوعشرين قصيدة ومقطوعة ..."والنحل فيها بيّن ، وتكاد تكون نسبتها لامرئ القيس معدومة[3] . ومجموع ما فى هذه النسخة من الشعر شرح شرحا كاملا يتسم بالدقة والوضوح ، ويبتعد عن الحشو والفضول ويبدو أن الشارح اعتمد فى شرح بعض الأبيات على شرح الطوسى ، وشرح الأصمعى فيما نقله عنه أبو نصر أحمد بن حاتم"[4] .

---

[1] الديوان ص ٥٣ ورقمها (٥٣).

[2] انظر د/ناصر الدين الأسد . مصادر الشعر الجاهلى ص ٤٩٠ دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة عام ١٩٧٨م.

[3] يلاحظ أن هذا القسم سيشمل القصائد من (رقم ٥٤ إلى رقم ٧٩).

[4] مقدمة الديوان ص ١٢.

ومن هذا القسم القصيدة التى تبدأ بقوله :

سقى دارَ هند حيثُ شطت بها النوى

أصّم الذا دافى الرباب ثخين

فيقال إنها لبشامة البجلى[1] .

والقصيدة التى يقول فى أولها :

أرقت فقلتُ فى أرق العداد   عدادِ مولَّهِ أرقِ السُّهادِ

يقال : إنها لعبد الله بن عبد الرحمن (شاعر إسلامى)[2] .

ونجد عددا كبيرا من هذا القسم الملحق على نسخة الطوسى قد نُصَّ على الشك فيه ، ولكن الحكم السابق الذى ذكره أبو الفضل حول انعدام نسبة هذا المقدار إلى امرئ القيس يشتمل على تعميم غير ملائم .

٣- نسخة السكرى:-

جمع أبو سعيد (الحسن بن الحسين السكرى ت ٢٧٥هـ) سبعا وستين قصيدة ومقطوعة من شعر امرئ القيس ، وبالنظر فى القسم الذى انفرد به عن النسختين السابقتين تبين أنه خمسة عشر نصا ، كما تبين أن أكبر نصين فى هذا المقدار يشتمل كل منهما على سبعة أبيات , ويتراوح النص - فيما عدا ذلك - بين البيتين والثلاثة والأربعة ، وقد أخذ السكرى عن البصريين والكوفيين فى الرواية "فأخذ عن أبى حاتم السجستانى، والعباس بن الفرج

---

(١) الديوان ص ٢٨٢(رقم ٦٩).

(٢) الديوان ص ٢٨٨ (رقم ٧٠).

الرياشى ، وهما من علماء المذهب الكوفى ، وكان مشهورا بكثرة الجمع والاستقصاء فيه "[١] .

٤- نسخة البَطَلْيَوْسى:-

تتشابه نسخة البطليوسى (أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسى ت٤٦٤هـ) مع نسخة الأعلم الشنتمرى من نواح عديدة ، فهذه النسخة تقع ضمن أشعارالشعراء الستة الجاهليين مثل نسخة الأعلم ، وأخذت رواية أبى حاتم عن الأصمعى أصلا لها ، وأضيف إليها قصيدة ومقطوعة ليصل مجموع ماجاء فيها إلى ثلاثين قصيدة ومقطوعة فضلا عما زينت به من شرح وافٍ أخذه البطليوسى من كتب العلماء السابقين ، ولعل فى ذلك ما يؤكد التشابه مع نسخةالأعلم ، وربما كان التقارب المكانى بين الرجلين - حيث عاشا فى الأندلس- قد ساعد على التشابه بين مذهبيهما فى النقل والشرح والرواية ، علماً بأن هذه النسخة هى الوحيدة التى لم تتفرد بشيئ من الشعر عن النسخ الأخرى.

٥- نسخة ابن النحاس:

لايُعْرف إذا كان شارح هذه النسخة هو (أبو جعفر بن النحاس ت٣٣٧هـ) أو (أبو عبد الله بهاء الدين بن النحاس محمد بن إبراهيم بن محمد ت ٦٩٨هـ) وقد رجح ناصر الدين الأسد نسبتها إلى الأول ، وأبقى محمد أبو الفضل صاحبها (ابن النحاس) مجهولا , وتحدث الدكتور الأسد عن هذه النسخة فقال :"أما النسخة نفسها ففيها ست وخمسون قصيدة ومقطعة لامرئ القيس ، وهى مجموعة من روايات مختلفة متداخلة : بصرية وكوفية ، وفى كثير منها نص على راويها، أو نص على أن فلانا رفعها ، وأنكر نسبتها

---

[١] د/ناصر الدين الأسد . مصادر الشعر الجاهلى ص ٤٩٤.

لامرئ القيس أو أن فلانا لم يعرفها ، ويظهر أن ابن النحاس قد اعتمد نسخة اليزيدى من ديوان امرئ القيس أصلا وهو (أبو عبد الله محمد بن العباس ابن محمد بن يحيى بن المبارك اليزيدى المتوفى سنة ٣١٠هـ)[١] وانفردت هذه النسخة بذكر قطعتين لم تردا فى النسخ السابقة[٢] .

٦- نسخة أبى سهل :-

تأتى نسخة أبى سهل (خرابنداذ بن ماخرا شيذ) فى ذيل النسخ التى اعتمد عليها محمد أبو الفضل عند إخراج الديوان ، وانفردت عن النسخ السابقة بإيراد قصيدتين ومقطوعتين ، ومجموع ما جاء فيها تسع وخمسون قصيدة ومقطوعة ، وقد جمعت بين رواية الأصمعى ورواية المفضل ، وتتميز بإسناد الرواية ..."وأبو سهل يشرح الشعر بيتا بيتا ، من عمله أو نقلا عن الأصمعى وأبى عمرو الشيبانى وغيرهما ، ويفسر اللغويات ، وقليلا ما يتعرض للقضايا النحوية ، ويسبق الشعر عادة تمهيد تاريخي، موجز أحيانا ، ومطول أحيانا أخرى ، يوضح المناسبة التى قيل فيها "[٣] وقد اكتمل شعر امرئ القيس من هذه النسخ وبلغ مائة نص بين قصيدة ومقطوعة بدون النظر إلى ما تكرر فى سائرها . وهذا هو الأصل الذى اعتمده أبو الفضل فى إخراجه للديوان ، وطبعه على أساس من التحقيق العلمى البديع ، وجعله على ثلاثة أقسام :" القسم الأول : رواية الأصمعى : والقسم الثانى : رواية المفضل والقسم الثالث : زيادات النسخ على هاتين الروايتين "[٤] .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩٩.

(٢) وهما رقم (٩٥) ، و(٩٦٩) فى الديوان.

(٣) د/الطاهر أحمد مكى. امرؤ القيس حياته وشعره ص ١١٣ دار المعارف الطبعة الخامسة ١٩٨٥م.

(٤) مقدمة الديوان ص ١٧.

وألحق أبو الفضل بالديوان كل ما وصل إليه من الشعر الذى نسبه إلى امرئ القيس مما تناثر فى مصادر الأدب واللغة، ورتبه ترتيبا أبجديا فى نهاية الديوان ، وبلغ مجموع ماذكره اثنين وستين نصا ما بين قصيدة ومقطوعة وبيت مفرد. وهذا القدر به مالايتفق وشعر امرئ القيس إذ تبدو عليه علامات الوضع والنحل وفيه ما يمكن قبوله والتسليم به بصرف النظر عن روايته أو نسبته لآخرين.

ديوان امرئ القيس فى العصر الحديث

كان للمستشرقين فضل السبق فى إخراج ديوان امرئ القيس مطبوعا ومحققا معتمدين على النسخ المخطوطة التى شرحت شرحا يختلف من واحد إلى أخر . وقد طبع المستشرق الفرنسى دى سيلان [DESLANE] الديوان لأول مرة عام ١٨٣٧م ضمن أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، وجرده من شرح الأعلم ، وحذف منه المعلقة لسبق نشرها ، وأسماه (نزهة ذوى الكيْس وتحفة الأدباء فى قصائد امرئ القيس) ثم طبعه المستشرق الألمانى اهلوارد [AHLWARDT] ضمن الدواوين الستة للشعراء الجاهليين فى لندن عام ١٨٧٠م معتمدا على نسخة السكرى التى سبق الحديث عنها ، وأسماه (العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين) وألحق به ما وجده من شعر امرئ القيس فى كتب الأدب واللغة ، ورتب الديوان ترتيبا أبجديا، وجرده من الشروح والتفاسير وجعل المقدمات التاريخية فى آخر الكتاب ، وجمع فيه ثمان وستين قصيدة ومقطوعة لامرئ القيس . ثم طُبع الديوان بنسخة البطليوسى فى مصر وإيران والهند ، وأعيد طبعه فيما بعد على هذه النسخة أيضا، وأخرجه مصطفى السقا عام ١٩٣٠ م مطبوعا حسب الطريقة التى أخرجه بها (دى سيلان) وأسماه (مختار الشعر الجاهلى) . وفى السنة نفسها أخرجه حسن السندوبى مستقلا فى ديوان جمع فيه كل ما استطاع العثور

عليه من شعر وقال فى المقدمة :" ولـم أشـأ أن أغمـره بالشـروح والحواشـى والتعليق ، بل اكتفيت بحل ألفاظـه اللغويـة التـى قـد تعسـر معرفتهـا علـى الشادين" وتوالت طبعات الديوان إلـى أن أخرجـه الأسـتاذ محمـد أبـو الفضـل إبراهيم عام ١٩٥٨ م فـى ثـوب جديـد ، حيـث خـرج القصـائد والمقطوعـات تخريجا رائعا ، وأرجع كـل قصيـدة إلـى النسخ والروايـات التـى وردت بهـا وضم إليه ما نسب لامرئ القيس من شعر ، وأعاد إخراجه فيما بعـد . وبيـن يدى الطبعة الرابعة التى حققها محمـد أبـو الفضـل ، وطبعتهـا دار المعـارف المصرية.

تأثر امرؤ القيس بسابقيه

لقد كثر الكلام والحديث حول تأثر امرئ القيس بسابقيه ، ذلك لأنهم كانوا يعدونه واحدا من أقدم الشعراء هو والمهلهل ، وقيل إنهما أول من قصد القصيد . كما ذُكر عبيد بن الأبرص من الذين تقدموا فى السن على أكثر الشعراء . وسبق أن عرضنالها ، وتحدثنا عنها.

ونعتقد أن الشعر العربى فى الجاهلية قد تابع أسلافه ، وتأثر بسابقيه إذ كانوا يلتقون فى المنتديات الأدبية ، ويتناقل الرواة أشعارهم، وتردد القبائل ماقيل فيها أو عنها من شعر ، ويتساجلون فى كثير من اللقاءات ، وظهر التأثر والتأثير والاحتذاء والتقليد بين الشعراء.

وذكر محمد سمك أن امرأ القيس قد تأثر بالروح الغالبة فى عصره ..."فقد كان يبدأ قصائده بذكر الأطلال والنسيب ووصف النساء وذكر محاسنهن وديارهن ولهوه معهن وينتقل بعد ذلك إلى ما يأخذ فيه من الأغراض التى تستوحيها حياه البادية ، من وصف للفرس ، وخروج للصيد، ووصف للغيث والكلأ ، وذكر نبله وفتوته ، والافتخار بنجاره إلى غير ذلك"[١] .

كما تأثر بالبداوة المحيطة به فى جفاء العبارة ووعورة الألفاظ ، وتجهم المعانى وخشونة التشبيه ، ونقف على هذه الخشونة فى قوله يصف بنان معشوقته :

وتعطو بَرخصٍ غير شثْنٍ كأنه ... أساريع ظبىَ أومساويكُ إسْحَلِ

وكقوله يصف شَعْر معشوقته :

---

[١] محمد سمك ، أمير الشعر ص ٦٤.

وفرعٍ يزين المتنَ أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقنو النخلةِ المتعثكلِ

فإنه يشبه شعرها بقنو النخلة.

وإذا كانَ امرؤ القيسَ قد تأثر بشعراء عصره إلا أنه اختط لنفسه طريقا مستقلا ومنهجا خاصاً ، وهذا سر عظمته ونبوغه مما جعل الشعراء يتأثرون به فى كثير من معانيه.

وقال محمد سمك إن الشاعرَ قد تأثر فى جزئياته بعدد من الشعراء كعبيد بن الأبرص وأبى داود الإيادى وبشعراء آخرين ، أما فيما يتصل بعبيد فقد قال :

عيناكَ دَمْعُها سروبُ كأنّ شأنيهما شعيبُ

أخذه امرؤ القيس فقال :

عيناكَ دمعها سَلْسَالُ كأن شأنيهما أوشالُ

وقال عبيد أيضا :

أو جدولٌ فى ظلال نخلٍ للماء من تحته قسيبُ

فتبعه امرؤ القيس وقال :

أوجدول فى ظلالِ نَخْلٍ للماء من تحتهِ جمالُ

وقال عبيد :

قطعْتُه غُدْوةً متيمنا وصاحبى بَارن جَنُوبُ

فقال امرؤ القيس:

قد أقطع الأرض وهيَ قَفْر وصاحبى بازل شِمْلالُ

إلى غير ذلك من الأمثلة التى تابع فيها شاعرنا عبيدا فى العديد من الأبيات[1].

---

[1] انظر المرجع السابق ص ٤٦٦إلى ص٤٧١.

أما تأثره بأبى داود الإيادى فلأن هذا الشاعر كان وصافاً للخيل ، كما يقول صاحب الأغانى ، ونحن نعلم ما بين امرئ القيس والخيل من عشق وغرام.

قال أبو داود فى وصف الفرس :

ولقد اغتدى يدافعُ رُكــنّى أحْوَذِى ذو مَيْعَةٍ إضـريجُ

مخلَط مَزيّل مِكَر مـِـفــَـر منَفح مُطَّرحُ سبوح خَروجُ

سَلْهَب شَرْحب كأن رماحاً حملته وفى السراةِ دُمُـوج

ويظهر أثر هذا الشعر فى قول امرئ اقيس:

وقد اغتدى والطير فى وُكناتها بمنجردٍ قيد الأوابد هيكلِ

ومما ذكره محمد سمك دليلا على تأثر امرئ القيس بأبى داود قول هذا الثانى:

والدهُر يلعبُ بالفتى والدهرُ أروغُ من ثُعالةْ

فقال امرؤ القيس :

الم أخبرك أن الدهر غولُ ختورُ العهد يلتهم الرجالا

وقال أبو داود :

والعبدُ يقْرع بالعصا والحُر تكفيه المقاله

فقال امرؤ القيس :

قولا لدوادنِ عبيد العصا ماغَرّكُم بالأسدِ الباسلِ

إلى غير ذلك من الشواهد التى دلل بها على تأثر امرئ القيس بأبى داود الإيادى[1] كما تأثر شاعرنا بالمهلهل الذى يقال إنه علمه القريض ، وبالتوءم اليشكرى ، حيث كانت بينهما ممانتة ، وبعلقمة الفحل والسموءل ، وعمرو بن قميئة وجابر بن حُنى ، إلى غير ذلك من الجاهليين الذين عاصروه وتأثر بهم بمثل تأثرهم به وقد نسى محمد سمك أن يذكر شاعرا (مهمًا) تأثربه امرؤ القيس ، وتحدث عنه ، وإن لم تسعف المصادر القديمة بإيراد شعر له ، وهو ابن خذام الذى قال عنه شاعرنا:

غوجا على الطلل المُحيل لعلّنا

نبكى الديارَ كما بكى ابن خِذَام

ولكن مشكلة ابن خذام أن صورته غير واضحة فى كتب الأدب ، ولذلك يبقى تأثر امرئ القيس به محوط بالضبابية والخفاء .

تأثير امرئ القيس فى غيره.

سبق أن عرضنا لبعض أحاديث القدماء مثل ابن سلام وابن قتيبة حول تأثير امرئ القيس فى الشعراء الذين عاصروه أو جاءوا بعده ، وقرءوا شعره ، كما سبق أيضا أن بينا إعجاب القدماء وبعض المحدثين بشعر امرئ القيس ، ولذلك نرى ما ذكره محمد سمك فى هذا الفصل – مع أهميته– ليس جديدا ، وإن كان له فضل الإحاطة بكثير من الإشعار التى تأثر فيها أصحابها بامرئ القيس مع اختلاف درجة هذا التأثير بين الشعراء.

وتحدث عن إعجاب القدماء بهذا الشاعر فقال :" لانرى العرب القدامى أعجبوا بشاعر إعجابهم بامرئ القيس فى جودة معانية ، وابتداع

---

[1] انظر المرجع السابق ص ٤٧١ إلى ص ٤٧٦.

الكثير منها ، وسلوكه فى زمانه مذهب المجددين المخترعين فى الأساليب ، ولذلك فقد تأثر به الشعراء فى الكليات والجزئيات "[1] وممن أكد تأثير امرئ القيس فى غيره من الشعراء ابن رشيق إذ قال :" ولا نرى شاعرا يكاد يفلت من حبائله ، وهذه زيادة فى فضله وتقديمه"[2] .

أما تأثر الشعراء به فى الكليات فقال عنه محمد سمك : " إنه سبق الشعراء جميعا إلى أشياء ابتدعها واستحسنها غيره من الشعراء ، واتبعوه فيها ، فهو أول من وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وشبه النساء بالبيض والظباء والمها، والخيل بالعقبان والعصىّ . وهو أول من قيّد الأوابد ، وأول من رقق النسيب ، وفرق بين الغزل وغيره من فنون الشعر ، وهو أول من اخترع هذا الضرب من التشبيه المعروف عند علماء البلاغة بالتشبيه الملفوف فى مثل قوله :

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سدولهَ ... علىّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلى

فقلتُ له لما تمطّى بصلبه ... وأردَفَ أعْجَازا وناء بكَلْكَلِ

فاستعار لليل سدولا يرخيها ، وصلبا يتمطى به ، وأعجازا يردفها وكلكلا ينوء به "[3] .

ونؤكد مرة ثانية أن هذا الكلام السابق ليس جديدا إذ تحدث عنه ابن سلام وابن قتيبة وابن رشيق ، وذكر أجزاء منه ابن طباطبا وأبو هلال العسكرى وابن سنان الخفاجى وغيرهم ، وبخاصة التأثير فى الكليات على حد إطلاق صاحب (أمير الشعر) .

---

[1] المرجع السابق ص ٤٧٨.

[2] ابن رشيق العمدة جـ١ ص ١٠٥.

[3] محمد سمك . أمير الشعر ص ٤٧٨.

وتحدث المؤلف عن إبداع امرئ القيس وابتكاره للاستعارة التمثيلية في مثل قوله :

وما ذرفتْ عيناك إلا لتضربى بسَهمَيْك فى أعشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

واختراعه للتشبيه الوهمى والتشبيه المؤكد المحذوف الإداة . كما أنه أول من فتح باب تشبيه أربعة بأربعة ، والتشبيه بالإضافة إلى غير ذلك من الأمور التى ابتكرها فى نظم الشعر وتابعه الشعراء فيها.

أما أثره فى الجزئيات - ويقصد بها المعانى المفردة التى اتبعه فيها الشعراء- فهى كثيرة جدا ، وتختلف فى درجة هذا التأثر . وذكر القدماء منها عدد من الأبيات وأضاف إليها محمد سمك قدرا أخر[1] ونختار منها بعض ما ذكره فى هذا الفصل:

فقد أورد بيت طرفة :

وقوفاً بها صحبى .... البيت

الذى تابع فيه امرأ القيس . كما ذكر تأثر النابغة بامرئ القيس فى وصف الليل، وقال إن من مخترعات شاعره قوله فىالحسن:

سموتُ إليها بعدما نام أهْلها سموَّ حَباب الماء حالا على حالِ

حيث قلده شاعر متأخر (لم يحدد اسمه) فقال :

أدُبُّ إليها دبيب الكرَى وأسمو إليها سمو النفس

وقال امرؤ القيس :

فلو أنها نفُسُ تموتُ جميعةً ولكنها نفس تساقط أنفُسَا

---

[1] انظر المرجع السابق ص ٤٨٠ إلى ٤٩٤.

فأخذه ابن الرومي فقال:

فيالكِ من نفسٍ تساقط أنفُساً ... تساقُطَ دَرٍّ من نظامٍ بلا عِقْدِ

وقال امرؤ القيس في طبع النساء:

أراهن لايُحْبِبْنَ من قلّ مالهُ ... ولا من رأين الشيّب فيه وقوّسا

فأتبعه علقمة وقال:

فـــإن تسألوني بالنساء فإنّني ... خبير بأدواءِ الـــنساء طبيبُ

إذا شابَ رأس المرء أو قلّ مالهُ ... فليس له في ودّهـــن نصيبُ

يـــُردْنَ ثراءَ المالِ حيثُ عَلِمْنَهُ ... وشَرْخ الشباب عندهُن عجيبُ

وقال امرؤ القيس :

وما المرءُ ما دامتْ حُشاشَةُ نفسِهِ ... بمدركِ أطرافِ الخطوب ولا آل

وقلده شاعر آخر فقال:

نروحُ ونغدُو لحاجاتنا ... وحاجةُ من عاشَ لا تَنْقضِي

وقال غيره :

تموتُ مع المرء حاجاته ... وتَبْقَى له حاجة ما بقى

إلى غير ذلك من الأمثلة التي ذُكرت حول أثر امرئ القيس في غيره من الشعراء.

الباب الثالث

شعراء الطائف فى العصر الجاهلى

الفصل الأول : أمية بن أبى الصلت

شاعر ثقيف فى الجاهلية

الفصل الثانى: ذو الأصبع العدوانى

شاعر الحكمة والسلام

الفصل الثالث: شعراء آخرون

الفصل الأول

أمية بن أبي الصلت

شاعر ثقيف في الجاهلية

١ — شاعر متفرد :

شاعرنا هو أمية بن أبي الصلت الثقفي . الذي حمل لواء الشعر في ثقيف في سنوات الجاهلية القريبة من الإسلام ، فقد أدرك بدراً ورثى قتلاها في قصيدة ربما تكون واحدة من آخر قصائده حيث ذكرت بعض المصادر أنه مات في السنة الثانية من الهجرة ، على أن أمية قد عاصر بشائر الإسلام وأنواره الأولى ، ولكنه مات على الكفر مع أنه قد مدح الرسول ﷺ بواحدة من أفضل مدائحه .

ارتبط أمية ببيئته (الطائف) التي ولد ومات فيها ، ووصف (وجا، واليمن) وتغنى بأمجاد ثقيف ، تلك القبيلة التي كان حظها من الشعراء في الجاهلية قليلا ، ثم لم يلبث هذا الحظ أن انفرج في الإسلام ... ولذلك كان اسم أمية مضيئاً لامعاً ، لأنه شاعر ثقيف تلك القبيلة المشهورة وصاحبة الأمجاد الكبيرة .

كان أمية يطمع في شرف ليس له وهو النبوة ، فتطلع إليها وأعد نفسه بالتثقيف والتحنف وقراءة غير العربية على ما يظهر ، فأورد في شعره كثيراً من الكلمات الغريبة والمعاني العجيبة ، ويبدو أنه أطلع على كتب الأديان الأخرى .

وقد تحدث عنه جواد علي فقال : « وكان بعض العلماء يقول : لولا

النبى لادعت ثقيف أن أمية نبى ؛ لأنه قد دارس النصارى ، وقرأ معهم ودارس اليهود وكل الكتب قرأ . ولم يسلم ورثى قتلى بدر »(١) .

كما ظفر أمية بهبة لم تمنح إلا للقليل، حيث كان أبوه (أبو الصلت الثقفى) شاعراً ، وقد ضنت كتب الأدب والتاريخ بالحديث عن علاقة أمية بأبيه ، فلم تسعفنا المصادر التى أطلعنا عليها ببيان مدى العلاقة بينهما ، وإن كانت النماذج الشعرية التى بين أيدينا تكشف عن مدى الاختلاف الفكرى بين كل منهما ، وسوف يأتى من شعرهما مايؤكد ذلك .

ذكر أبو الفرج أن لأمية أربعة أبناء ، هم (عمرو، وربيعة ،ووهب، والقاسم) وقد امتدت ينابيع الشعر من أمية إلى ابنه القاسم ، ذلك الشاعر الذى سنعرض له عند حديثنا عن شعراء الطائف فى العصر الإسلامى ، كما قيل إن ابنه ربيعة شاعر أيضاً ، فقد روت عنه نماذج شعرية قليلة(٢) .

على أن العلاقة بين أمية وأبنائه لم تكن غائمة مجهولة كالتى كانت بينه وبين أبيه ، فقد أورد محققا الديوان قصيدة له يعاتب فيها ابناً من أبنائه وأولها :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً ... تعل بما أحنى عليك وتنهل

إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت ... لشكواك إلا ساهراً أتململ(٣)

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٤ ص١٥٦

(٢) منها ما ذكره لويس شيخو فى كتابه شعراء النصرانية جـ٢ ص٢٣٧ مكتبة الآداب بالجماميز .

(٣) شرح ديوان أمية بن أبى الصلت تقديم وتحقيق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب . منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت ص٥٦ ، ٥٧ مع ملاحظة أن هذه الطبعة هى التى سأعتمد عليها فى هذه الدراسة

ولكن أمية أخفى اسم ابنه، فأصبحت قصيدته موجهة إلى كل أبنائه، بل أصبحت قصيدة الآباء إلى الأبناء.

وتذكر الروايات أن له أخوة ينشدون الشعر، وقد أثرت هذه الحياة عليه... «وترقى في عالم الأدب والحسب والنسب، وعاش عيشة فيها الكثير من الرفاهية والغنى، وكان هذا كله عاملا من العوامل التي أذكت شاعرية الفتى، إذا أضفنا إليها أجواء الطائف بنسيمها وبساتينها الخضراء، وينابيعها الثرة المعطاء»(١).

٢ – صاحب عقيدة متميزة :

ذكرت الكتب القديمة والحديثة أخباراً كثيرة عن أمية، وتقاربت في حكمها على عقيدته الدينية ومذهبه في الحياة، ورأت أنه كان مفطوراً على التدين، ولذا مال من أول أمره إلى التحنف وترك عبادة الأوثان... كما اختلفت الروايات والأخبار في بيان دوافعه إلى هذا التحنف، واختلفت أيضاً في حكمها على موقفه من الإسلام... ولم يكن هذا الاختلاف إلا محصلة أو نتيجة لمجموع ما جاء في ديوانه بصرف النظر عما في شعره من سقطات أو نحل به عليه النقاد.

لقد كان أمية يرتاد الأديرة والكنائس، «ويجالس الرهبان والقساوسة، ويحاورهم في آداب النفس وأسرار الروحانيات(٢)، ويبدو

---

(١) مقدمة الديوان ص ٧

(٢) انظر المرجع السابق ص ٧

أن اشتغاله بالتجارة وارتحاله من الطائف إلى مكة والشام واليمن قد عرفه ببعض ما كان يشاع فى تلك الأرجاء عن قرب ظهور نبى يهدى الناس إلى سواء السبيل ، والتقى فى رحلته إلى الشام ببعض أهل الدين فزهد فى الدنيا . ولبس المسوح ، ومن هنا أخذ شاعرنا يتطلع إلى النبوة ، ويعد نفسه لها ، فهجر عبادة الأوثان ، وحرم على نفسه شرب الخمر ، واعتقد بوجود الله من غير أن يكون له فروض معينة فى العبادة(١) واستفاد من اطلاعه على بعض الكتب القديمة ؛ فتهذب أحسن تهذيب ، وتعرف على كثير من الأسرار التى أسهمت فى زيادة طمعه فى النبوة كما تحول زهده إلى نوع من التأمل فى آيات الكون ، والبحث فى الأديان والعقائد ، وقد انعكس كل ذلك على حياته وشعره : أما حياته فكانت قلقة مضطربة ، وكان يمكن لها أن تهدأ وتستقر لو دخل فى الإسلام ، « ولكن موقف قومه (ثقيف) من الإسلام أملى عليه العداء للرسول والمسلمين »(٢) .

ولما بعث الرسول ﷺ أسقط فى يده ، وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه ، فنزل فيه قول الله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين »(٣) .

أما شعره فجاء مخالفاً – بدرجة كبيرة – لمنهاج حياته ، ويبدو أن منهجه

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى القديم لعمر فروخ ص ٢١٦ ، طبع دار العلم للملايين — بيروت

(٢) المرجع السابق ص ٢١٦

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٥

فى الحياة ونظرته إلى الوجود الإنسانى قد بثهما فى شعره ، ولكنه لم يستطع أن يلتزم بهما فى الجانب العملى أو التطبيق . فقد سماه الأصمعى شاعر الآخرة »(١) ، وبذلك وقع أميـــة فى براثن القلق والاضطراب بسبب التنافر الكبير بين نظريته فى الحياة وتطبيقه لها ، ولذا كان رسول الله — ﷺ — إذا سمع شعره فى التوحيد والإيمان والثناء على الله — يقول : « آمن لسانه وكفر قلبه » ، وروى صاحب الإصابة أنه مات مسلماً ، ونسب الرواة إليه شعراً فى مدح الرسول ، ولكن ذلك لن يغير من حقيقة مذهبه فى الدين والحياة ، وهو أنه كان متحنفاً ، حيث يقول :

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور(٢) .

وقد انعكس هذا التحنف على شعره ، فهو يرغب فى الجنة ويخاف من الجحيم ، قال :

رب لا تحرمنى جنة الخلد وكن رب بى رءوفا رحيما(٣) .

وقال :

جهنم تلك لا تبقى بغيا وعدن لا يطالعها رجيم

إذا شبت جهنم ثم فارت وأعرض عن قوابسها الجحيم(٤)

ومن شعره الدال على جميل صنع الله ، والداعى إلى التأمل فى آيات الكون قوله :

---

(١) تاريخ الأدب العربى — كارل بروكلمان — جـ ١ ص ١١٣ ترجمة د/ عبد الحليم النجار طبع دار المعارف .

(٢) الديوان ص ٤٧ (٣) مقدمة الديوان ص ٨

(٤) الديوان ص ٦٧

إله العالمين وكل أرض ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعاً شدادا بلا عمد يرين ولا رجال
وسواها وزينها بنور
من الشمس المضيئة والهلال(١)

وقوله :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الآفاق سلطانا(٢)

ولعل هذه المعانى الروحية بما فيها من دعوة صادقة إلى التحنف هى التى جعلت الرسول يقول فيما يرويه مسلم : « كاد أمية أن يسلم » . كما أن الأشعار السابقة تكشف لنا عن بعض آثار الحنيفية فى شعره .

ولقد حالت العصبية الجاهلية والطمع فى النبوة بين أمية والإسلام ، فمع أنه شاعر جاهلى ، عايش فى سنوات عمره الأخيرة بشائر الإسلام فى مكة إلا أنه استسلم لهذه العصبية الممقوتة ، ووقع ضحية لأطماعه فى النبوة التى لم تكتب له بل ساقها الله لمن هو أهل لها .

إذن لم يكن أمية وثنياً .. وجعله البعض نصرانياً ومنهم المسعودى ، وقيل إنه اعتنق الدين الإسلامى ومدح الرسول ﷺ فى شعر يتشكك البعض فيه(٣) .

---

(١) الديوان ص ٦١ ، ص ٦٢
(٢) الديوان ص ٧٩
(٣) راجع الديوان ص ٧٠ ، وراجع الأغانى جـ ٤ ص ١٢٩ طبعة دار الكتب .

٣ — مكانته الشعرية :

يتميز شعر أمية بالعديد من الخصائص التي تفرد بها عن الشعر الجاهلي بعامة ، وقد كانت هذه الخصائص مثاراً لدهشة القدماء والمستشرقين والنقاد العرب المحدثين .

ولننظر أولا إلى شعراء الطائف في العصر الجاهلي ، فنراهم قلة قليلة ، وأشهرهم أمية ووالده (أبو الصلت بن ربيعة) وغيلان بن سلمة وكنانة بن عبد ياليل وذو الأصبع العدواني وهو ليس ثقفياً كالشعراء السابقين ، ويضاف إلى هؤلاء بعض الشعراء المغمورين الذين لا يمثلون علامات بارزة في رحلة الشعر بالطائف قبل الإسلام ، وقد قال الدكتور خفاجي: « أما بيئة الطائف الأدبية فإنها على أي حال لم تصل نهضة الشعر فيها إلى ما وصلت إليه في نجـــد . كان فيها شعراء وليس شعرهم بالكثير ، والسبب في ذلك كما يرى ابن سلام هو قلة الحروب والخصومات بين أهل الطائف . وأنه إنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، وهذا هو السبب أيضاً في قلة شعر قريش وأهل عمان ، ولم ينبغ في الطائف سوى أبي الصلت ، وابنه أمية وهو أشعرهم وغيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل »(١) .

ظفر شعر أمية بحظ وافر من استشهادات الجاحظ في كتاب (الحيوان) بصفة خاصة ، ولعله وجد في ديوان أمية ما لم يجده عند أي شاعر جاهلي آخر ، فقد ذكر له شعراً عن الأرض والسماء ، وعن صور الملائكة وحملة العرش والشياطين ، وعند نطق الطير وسفينة نوح

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ١٩٢، ص ١٩٣ (بحث الدكتور خفاجي عن أمية بن أبي الصلت .

والديك والغراب والحمامة ، وعن إخراج الحيات من بيوتها وغيرها .
كما انتشل صاحب الجمهرة من زوايا النسيان — على حد قول بلا شير — قصيدة لأمية ذات طابع تقليدى ، وجعلها فى الطبقة الثانية من اختياراته ومطلعها :

عرفت الدار قد أقوت سنينا ... لزينب إذ تحل بها قطينا
أذعن بها جوافل معصفات ... كما تذرى الململة الطحونا
وسافرت الرياح بهن عصراً ... بأذيال يرحن ويغتدينا(١)

وقد اتفقت هــــذه النونية مع معلقة عمرو بن كلثوم فى الفخر القبلى والوزن والروى وأكثر المعانى وسهولة الألفاظ ، وإن لم يتحقق من الشهرة لجمهرة أمية ما تحقق لمعلقة عمرو بن كلثوم .

ونقل لويس شيخو مجموعة من أقوال القدماء عن أمية ، ونذكر منها ما يأتى :

قال ابن قتيبة : « وعلماؤنا لا يحتجون بشيء من شعره لهذه العلة » ، ويقصد بهذه العلة أن فى شعره ألفاظاً مجهولة لا تعرفها العرب ، كان يأخذها من الكتب القديمة . وقال أبو عبيدة : « اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ، ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وأن أشعر ثقيف أمية بن أبى الصلت » وقال الكميت : « أمية أشعر الناس ، قال كما قلنا ، ولم نقل كما قال » وقال الحجاج : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندراس الكلام » .

وقال عنه لويس شيخو : « وهو شاعر مشهور من شعراء الطبقة

---

(١) جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ص٤٠٧ تحقيق على البجاوى . طبع دار نهضة مصر .

. الثانية ، وقيل من الطبقة الأولى ، . وكان من رؤساء ثقيف وفصحائهم المشهورين ، قرأ الكتب القديمة ، وتهذب أحسن تهذيب »(١) .

وتحدث عنه خير الدين الزركلي فقال : «.. شعره في الطبقة الأولى ، وعلماء اللغة لا يحتجون به لورود ألفاظ فيه لا تعرفها العرب »(٢) .
ونعجب من هذه الأقوال المتعاقبة التي تقول بأن شعره في الطبقة الأولى أو الثانية ، ثم تذكر أن علماء اللغة لا يحتجون به ! ويبدو أن جعل الشعر في طبقات كان وضعاً أو نظاماً هشاً ضعيفاً ، لم يلبث أن تهاوى على مر السنين . وحتى إذا اقتنعنا بكلامهم في جعل هذا الشعر في واحدة من الطبقتين المذكورتين فإن ما بين دفتي الديوان لا يؤيد هذا الرأي ، فإن أكثره قلق اللفظ سخيف النسج نابي القافية، إلا أن يكون الزمان قد عفى على أجوده »(٣) .

وتحدث عنه — ريجيس بلاشير — فقال : «وقد انتهى وجه هذا الشاعر ، الذي شوهته النزعات المذكورة إلى التحول بتأثير المد الأسطوري الذي تعاقب عليه ، لمعرفته لغة الحيوان ، ومحادثته الكائنات الخيالية ، وقدرته على التنبؤ ، وإذا ما جردت تلك الأخبار الأسطورية مما تراكم عليها ، فإن المعطيات الصحيحة عن أمية تبقى هزيلة »(٤) .

إن المراجعة الدقيقة والمتأنية لديوان أمية — بعد الاستهداء بمجموع

---

(١) كتاب شعراء النصرانية في الجاهلية جـ٢ ص ٢١٩

(٢) الأعلام جـ٢ ص ٢٣٠ طبعة دار العلم للملايين — بيروت — ط٦ عام ١٩٨٤

(٣) تاريخ الأدب العربي — أحمد حسن الزيات ص ٧٦ ، ٧٧ الطبعة الخامسة والعشرون .

(٤) تاريخ الأدب العربي — بلاشير ص٢٣٦ ترجمة إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر بدمشق — الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) .

ما تسفر عنه الأقوال السابقة — تجعلنا نقول بكل ثقة إن شاعرنا فى الطليعة من شعراء الطائف (الثقفيين) ، وإن شعره متعدد الفنون والمسارب والموضوعات ، وإن أهم سمة لهـذا الشعر اشتماله على معالجة الأمور الغيبية ، ودعوته إلى الإصلاح الاجتماعي ، ونبذ العادات السيئة ، ومعالجته لطبائع الكائنات الأخرى سوى الأناسى ، وإن ألفاظه وأساليبه لا ترقى — فى مجموعها — إلى مستوى الأفكار والمعانى التى جاءت فيـه ، وإن أهم العيوب التى خدش بها أمية حياء اللغة خروجه على نظام العرب فى صوغها وتأليفها حيث ضمن شعره العديد من الكلمات التى لم يتداولهـا الشعراء ، ولم تجر على ألسنة الأدباء .

وقد تميز أمية بالمحاولات التجديدية فى معانى الشعر ، والتى برزت فى الساحة النقدية فيما بعد العصر الجاهلى ... ولذا بقى أمية أشعر ثقيف وأشعر الشعراء فى منطقة الطائف بعامة .

٤ — خصائص شعره :

تميز شعر أمية بمجموعة من الخصائص نعرض لها فيما يأتى :

أولا : لقد تعـددت الموضوعات ، وكثرت الفنون التى عرض لها ، وإذا كان القسم الأكبر من شعره قد دار فى فلك القضايا الدينية والفلسفية التى انشغل بهـا ، فإن له شعراً كثيراً جعله للحديث عن الموضوعات الأخرى التى لهج بهـا بعض الشعراء ، كما تحدث عن موضوعات لم يتطرق إليها الكثيرون ، وبخاصة ما مثل لهـا الجاحظ فى كتابه (الحيوان) .

ولقد اختار محققا الديوان الموضوعات التالية ، وجعلاها أغراضاً لشعر أمية ، وهى : التأله والوصف والحكمة والمديح والرثاء والفخر والنسيب ، إلا أن تناول أمية لهذه الموضوعات وعرضه لها يختلف عن غيره

من الشعراء بما يجعل لغته نكهة خاصة ، ولذلك سوف نعرض لأغراضه الشعرية فيما بعد ، لنكشف عن الأبعاد الحقيقية لملامح شعره .

ثانياً : تتباين الألفاظ فى ديوان أمية بين موضوع وآخر ، فنجد أن أكثر الألفاظ فى شعره الدينى لا تصاغ على وتيرة واحدة بسبب كثرة استعماله للدخيل من العبرية والسريانية ، ولذلك أسقطوا الاحتجاج به ، وأنكروا على شاعر ثقيف حق التعريف لشدة مخالطته للأعاجم ، وإن كان عربياً صريحاً ، فقد كان يسمى السماء (صاقورة) و (حاقورة) ، ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه إذا خسف ، ويسميه (الساهور) ، وكان يسمى الله — فى شعره الدينى أيضاً — (السلطيط) و (التغرور) ونحو ذلك ، وربما اقتبسها من الحبشية ، أو صاغها على أوزان تلك اللغــة .

وقد قال ابن قتيبة : « وكان يحكى فى شعره قصص الأنبياء ، ويأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، ويأخذهـــا من الكتب المتقدمة ، وبأحاديث من أحاديث أهل الكتاب منها قوله :

بآية قام ينطــق كل شيء
وخان أمانة الديك الغراب

وكانوا يقولون : إن الديك كان نديماً للغراب ، فرهنه على الخمر ، وغدر به ، ولم يرجع وتركه عند الخمار ، فجعله (الخمار) حارسا . . .

ومنها قوله : قمر وساهور يسل ويغمد .

والساهور فيما يذكر أهل الكتاب : غلاف القمر يدخل فيه إذا كسف . . . ويسمى السماء فى شعره صاقورة وحاقورة وبرقع .

ويقول فى الله عز وجل :

هو السلطيط فوق الأرض مقتدر

. . . . وهذه أشياء منكرة ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة فى اللغة »(١) .

أما شعره غير الدينى مثل المدح والفخر والوصف وغيرها ؛ فإن ألفاظه تمتاز بالرقة والسهولة والخفة حسب طرائق شعراء القرى — على قلة الشعر فيهم — .

قال يمدح عبد الله بن جدعان :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالأمور وأنت قرم ... لك الحسب المهذب والسناء
كريم لا يغيره صباح ... عن الخلق السنى ولا مساء
فأرضك كل مكرمة بناها ... بنو تيم ، وأنت لها سماء(٢)

وقد اختلفت الآراء فى الحكم على القاموس اللفظى لشعر أمية ، فمن حكم على ألفاظه بالتفاهة والخروج على مقاييس العرب نظر إلى ما جاء فى ديوانه من أشعار دينية اشتملت على ألفاظ (مولدة) ومن حكم على ألفاظه الشعرية بالخفة والعذوبة نظر إلى ما جاء منها فى الموضوعات الأخرى، وهكذا تتماوج وتتباين ألفاظه بين موضوع وآخر .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ ١ ص ٤٦٧ ، ص ٤٦٨ تحقيق أحمد شاكر الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م .

(٢) الديوان ص ١٩

ثالثاً : اشتهر أمية بالمعانى الدينية التى اصطبغ بها شعره ، حيث وصف الله عزوجل ، وتحدث عن بعض الغيبيات مثل الجنة والنار والملائكة والحشر والحساب وذكر خلق السموات والأرض ، ونظم حوادث التوراة ، وأدخل فى شعره كثيراً من المعانى التى لم يألفها الشعراء ، ولم يعرفها العرب ، وكان مذهبه غير معهود فى عصره ، كما ذكر كثيراً من العجائب والقصص الخيالية والأساطير الخرافية ، وبسط فى هذا الشعر الدينى كثيراً من أحوال الآخرة وصفات الخالق . والخشوع له ، وأورد فى ديوانه ومن خلال هذا الشعر (الدينى) كثيراً من الحكم والأمثال ، والتى تدل على خبرة أمية فى الحياة ، وكثرة معارفه وتجاربه .

أما فى شعره غير الدينى فهو يسير فيه كما يقول الدكتور خفاجى : « على نهج الشعراء الجاهليين من صدق المعنى وبساطته وسذاجته مع تلون الثقافة فيه إلى حد ما ، لثقافة أمية الواسعة ، ومع البعد عن الخيال الكاذب والمبالغة المفرطة فيه »(١) .

وتتميز معانيه بالعمق والتنوع ، وتتلاءم مع محصوله الثقافى المشبع بالحكمة والفلسفة ، وسوف يكشف الحديث عن أغراضه الشعرية الأبعاد الحقيقية للتنوع فى المعانى الذى تميز به هذا الشاعر ، ولننظر إلى أهم الأفكار التى طرقها ، وتحدث عنها قال :

والأرض نوخها الإله طروقة ... للماء حتى كل زند مسفد

والأرض معقلنا ، وكانت أمنا ... فيها مقابرنا ، وفيها نولد(٢)

---

(١) أشعار الشعراء الستة ص ٢٠٤ .

(٢) الحيوان للجاحظ جـ٣ ص ٣٦٣ ، ص ٣٦٤ تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الثانية (الحلبى) .

وتحدث عن نطق الطير فقال :

فاسمع لسان الله كيف شكوله
عجب وينبيك الذى تستشهد
والوحش والأنعام كيف لغاتها
والعلم يقسم بينهم ويسدد (١)

كما أن الكثير من شعره يكشف عن ثقافته الواسعة التى وظفها فى خدمة معانيه وأفكاره ، فصاغها صياغة متنوعة فى مجموع شعره .

رابعاً : تعرض شعر أمية لموجات من النقد المتصل بقضية الانتحال، وسبق أن بينا رفض الكثيرين من القدماء للاستشهاد به ، لما فيه من ألفاظ لم يألفها العرب ، وقد اتضحت هوية هذا الشعر بعد أن جمع بين دفتى ديوان مطبوع .

وتحدث محققا الديوان فى إحدى طبعاته فقالا : « وهذه قضية تفاجئنا حين نطالع شعر أمية . فإن قصائده ليست كلها على وتيرة واحدة فمنها ما هو جزل متين رصين ، ومنها ما هو مهلهل متهافت ، والسبب فى ذلك يعود إلى أن هذه القصائد المتهافتة منحولة على أمية وليس بقائلها »(٢) .

وبنى المحققان رؤيتهما على ما فى الديوان من قرائن وبراهين كاشتماله على المعانى القرآنية مثل حديث ذى القرنين وأصحاب الكهف والرقيم وقصة نوح ، فضلا عما فى بعض قصائده من تهلهل وتفكك ، وألفاظ تجعل قائلها ممن عاش بعد القرن الخامس ، ومثلا للنحول الذى اشتمل

---

(١) المرجع السابق ج ٧ ص ٥٥
(٢) الديوان ص ١٠ ، ١١

على كلمات القرآن وبعض تراكيبه بقول أمية :

فقال أعنى بابن أمى فإننى
كثير به يارب صل لى جناحيا
فقلت له فاذهب وهارون فادعوا
إلى الله فرعون الذى كان طاغيا(١)

وذكرا أن فى ذلك إشارة إلى قوله تعالى : (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى ، أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى)(٢) وقوله تعالى (اذهبا إلى فرعون إنه طغى)(٣) ، ولكنهما لم ينسفا شعره الدينى كله ، وحيث أنه قد بقى له شعر فى هجاء المسلمين والتعريف بهم ، فمن باب أولى أن يكون له شعر دينى فى غير ذلك .

وعرض أحمد حسن الزيات لموقف شعر أمية من النحل والوضع ، فقال : « ومذهب أبى الصلت فى شعره لم يعهد فى عصره ، فنحله العلماء ما جاء على شاكلته ، ولم يعرفوا قائله »(٤) .

وتحدث الدكتور شوقى ضيف عن شعر أمية ، وأكد على تسرب النحل إليه ، وذكر أنه يدور حول موضوعين أساسيين : حيث يتحدث فى أولها عن خلق السموات والأرض ونشأة الكون ، للاستدلال على وجود الله ، وعن الموت والفناء والبعث والنشور والعذاب والثواب على شاكلة قوله :

---

(١) الديوان ص ١١
(٢) سورة طه (الآيات ٢٩ — ٣٢) .
(٣) سورة طه (الآية ٤٣) .
(٤) تاريخ الأدب العربى ص ٧٦

إله العالمين وكل أرض ... ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شدادا ... بلا عمد يرين ولا رجال
وسواها وزينها بنور ... من الشمس المضيئة والهلال(١)

وذكر أنه يظن أن هذه الأشعار وما يماثلها مما نحل على أمية ... بينما يورد في الموضوع الثاني قصص الأنبياء بحيث لا تفترق في شيء عما جاء في القرآن الكريم، وبعد أن مثل له تحدث عنه فقال: «وواضح أن هذا شعر ركيك ساقط الأسلوب نظمه بعض القصاص والوعاظ في عصور متأخرة عن الجاهلية.

وقد ذهب (هيار) يزعم حين اطلع على شعر أمية أنه اكتشف فيه مصدراً من مصادر القرآن الكريم، ولو كان له علم بالعربية وأساليب الجاهليين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بينة الانتحال، ولما تورط في هذا الخطأ البين، وقد رد عليه غير واحد من المستشرقين ...»(٢).

ولقد أورد الدكتور شوقي ضيف في بداية حديثه عن أمية شعراً له يمتدح فيه عبد الله بن جدعان، ويرثى — في نموذج آخر — قتلى المشركين في غزوة بدر.

ولكنه لم يحدد رأيه في الحكم على هذا الشعر بالصحة أو النحل، ويبدو أنه ارتضى لأمية بعض الأشعار من أمثال هذه النماذج، والتي يقول في إحداها مادحاً ابن جدعان:

عطاؤك زين لامرىء قد حبوته ... بخير، وما كل العطاء يزين

---

(١) تاريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي — ص ٣٩٥ — دار المعارف بمصر الطبعة التاسعة ١٩٨١ م.
(٢) المرجع السابق ص ٣٩٦

وليس بشين لامرىء بذل وجهه
إليك كما بعض السؤال يشين(١)

أما ما عداها فقد حكم عليه بالنحل كما سبق القول .

ويرى (بروكلمان) أن أكثر شعر أمية بن الصلت منحول إلا مرثية قتلى بدر ، والتى منع النبى ﷺ من إنشادها(٢) ورفض رأى (هيار) Huart فى أن شعره كان من مصادر القرآن الكريم مصداقاً لمقولة شوقى ضيف السابقة ؟ ذلك لأن الأشعار التى نظر إليها هيار قد نحلت لأمية فى عهد مبكر لا يتجاوز القرن الأول للهجرة ...، لأن الأصمعى سماه شاعر الآخرة ، كما سمى عنترة شاعر الحرب ، وعمر بن أبى ربيعة شاعر العشق »(٣).

ويرى (بلاشير) أن القطع المتناثرة التى مدح بها أمية ابن جدعان ، والقصيدة المتناثرة التى رثى بها أمية قتلى بدر وغيرهما قريبة جداً من الطابع البدوى لشعراء الحجاز ، أى أنها يمكن أن تكون تعبيراً عن قدرات أمية، ويرى أن طائفة أخرى من القصائد والمقطوعات ذات أسلوب تافه أخرق محشوة بالغريب ، ومن الممكن أن يتسرب إليها الوضع أو الانتحال ويعبر عن مجموع رأيه الذى تابع فيه بعض المستشرقين فيقول : « وفى الواقع فإن المستشرق (تور آندره) كان على صواب حين اعتقد أن الأبيات الدينية التى وضعت باسم أمية بن أبى الصلت تضخيم غير موفق لأقوال القصاص الذين انطلقوا من عناصر قرآنية ، فليس — والحال هذه — فى مقدور تلك

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٤
(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان جـ ١ ص ١١٣
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ١١٣

المقطوعات أن تستحضر ، سواء بالأفكار أو بالأسلوب — وحتى من بعيد — شعراً دينياً ظل وجوده بالنسبة إلينا لغزاً — من الألغاز ، وفى مقابل ذلك ، فإن القطع ذات الطابع البدوى لقريبة جداً من شعر شعراء الحجاز فى الجيل ذاته »(١).

وبعد أن استعرضنا هذه الآراء المدعمة بالنقول المؤكدة لها ، وبعد أن عايشنا أكثر القصائد والمقطوعات التى يضمها الديوان نستطيع أن نتجاوز الظن إلى اليقين مؤكدين على أن الأشعار الدينية التى نسبت لأمية قد دخلها نحل كثير ، وبان عليها الوضع بصورة واضحة ، ولكن تبقى الإشكالية قائمة : فليس كل هذا الشعر منحولا على الرجل ، إذ لابد أن تكون له أصول رجع إليها القصاص والوعاظ عند وضعهم لما وضعوا فى نهاية القرن الأول الهجرى أو بعده ، وليس من اليسير علينا فصل الصحيح من الزائف ، إذ لم يكن الواضعون قليلى الخبرة بالدرجة التى ينكشف معها صنيعهم ، ولكنهم نسجوا على منول أمية . واختلط الصحيح بالزائف : وصار الاستشهاد بهذا الشعر الدينى أمراً غير مأمون الجانب ويحتاج لمزيد من التبصر والحيطة . على أن بعض هذه الأشعار وبخاصة ما ذكرها القدماء ، واستشهد بها الجاحظ وغيره تعبر عن المشاعر الفكرية والفلسفية التى اعتنقها أمية ، وتكشف مضامينها عن معالم شخصيته وقد ذكرنا منها فى الصفحات السابقة ما يبرز المعالم والاتجاهات الملائمة لهذا الشاعر .

أما الأشعار الأخرى ، والتى لم يعرض فيها للقضايا الدينية المختلفة فهى أشعار يسرى عليها ما يسرى على الشعر الجاهلى بعامة مثل بعض القصائد

---

(١) تاريخ الأدب العربى — بلاشير ص ٣٣٨ ، ص ٣٣٩

التى مدح بها ابن جدعان ، ومثل القصيدة التى رثى فيها قتلى المشركين فى بدر .

فإذا توافقت الأفكار والألفاظ فى هذه الأشعار مع منهاج أمية فيمكن لنا أن نقبلها ، ونحكم على الشاعر من خلالها .

ومن الجائز أن يتسرب إليها الوضع أيضاً . ولكن النظرة المتأنية لهذا القسم تجعلنا نقبل عن قناعة أكثر ماقاله فيه ، مع أخذ الحيطة حول كل ماورد فى الديوان .

٥ – أغراض شعره :

إن المتتبع لشعر أمية يجد فيه الأغراض أو الفنون الآتية :

أولا : الشعر الدينى :

ويراد به القصائد والمقطوعات أو الأبيات التى نظمها فى النواحى الدينية ، ويشكل هذا اللون أكثر من نصف الديوان حيث حكى فيه قصص الأنبياء كما جاء فى التوراة(١) .

كما تحدث عن توحيد الله، وذكر يوم الحشر، والموت والفناء والملائكة وحملة العرش والشياطين إلى غير ذلك من الأشعار التى غلب عليها طابع التدين والتحنف .

يقول الزيات : « انصرفت قريحة أمية إلى المعانى الدينية ، فاشتهر بها أمره ، واصطبغ بها شعره فوصف الله وجلاله ، وذكر الحشر وأهواله ، ونعت الجنة والنار والملائكة ونظم حوادث التوراة كخراب سدوم .

---

(١) انظر الديوان ص ٢٠

وقصة إسحاق وإبراهيم»(١).

ويلاحظ أن هذه المعانى وغيرها تعبر — فى معظمها — عن الحنيفية التى كانت سائدة قبل الإسلام، وكان أمية واحداً ممن اعتنقوها ودعوا إليها، بل إن هذه الدعوى قد اكتسبت أبعاداً جديدة من خلال شعره إذ كان يسعى فى سبيلها إلى نيل شرف النبوة، فأخذ يثقف نفسه، ويوظف شعرة فى التبشير بريادته الدينية. وكانت هذه الأشعار مستقاة - فى معظمها - من التوراة، ومن بعض الأساطير التى انتشرت فى الحياة الجاهلية، ولذا لم يجد المتأخرون صعوبة منذ القرن الثالث (الهجرى) فى أن ينظموا على هذه الأشعار، وأن يضيفوا إلى القليل الذى قاله أمية كثيراً من عند أنفسهم، ولذلك اختلط الصحيح بالزائف فى هذا الشعر، وصرنا نقرأ شعراً دينياً لأمية (الجاهلى) فنجد فيه تأثراً كبيراً بالقرآن الكريم فضلا عن سهولة الألفاظ التى لاتتناسب مع أشعار الجاهليين على شاكلة قوله:

إذا قيل من رب هذه السما ... فليس سواه له يضطرب
ولو قيل رب سوى ربنا ... لقال العباد جميعا كذب(٢)

وقوله:

يوقف الناس للحساب جميعا ... فشقى معذب وسعيد(٣)

وقوله:

ولا يوم الحساب، وكان يوماً ... عبوساً فى الشدائد قطريرا(٤)

---

(١) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٧٦
(٢) الديوان ص ٢٠ (٣) الديوان ص ٣٣
(٤) الديوان ص ٤٦

وقوله :

أرباً واحداً أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور

ولكن أعبد الرحمن ربى ... ليغفر ذنبى الرب الغفور(١)

وقوله :

الحمد لله لاشريك له ... من لم يقلها فنفسه ظلما(٢)

ولعل القارىء يلحظ معى ملامح الوضع والانتحال على أكثر هذه النماذج التى ذكرتها ، حيث تتضح فيها خفة الوزن وسهولة اللفظ ، بالإضافة إلى ملاءمة معانيها للحياة الإسلامية فى العصر العباسى ، ولكن لابد أن يكون أمية قد قال قدراً كبيراً من الأشعار ذات المعانى الدينية والتى تعبر عن مذهب التحنف الذى سلكه فى حياته ، ولكن إشكالية النحل ستبقى فاردة أجنحتها فى سماء الشعر الدينى بكامله ، إذ لم تقدر على فصل الصحيح من الزائف ، وكل الاحتمالات مبنية على الرؤية الفردية والحدس النقدى .

ويستطيع القارىء أن يفرز صفحات الديوان ليجد شعره (المنحول وغيره) معبراً عن كثير من الدعوات التى احتفل لها أمية فى حياته ، ولكن مابين دفتى الديوان يؤكد على نوع من التدخل الخارجى ، فقد فرض ستار حول الأشعار التى عارض أمية بها الإسلام باستثناء قصيدته فى رثاء قتلى بدر من المشركين كما رأينا قصيدة يمتدح فيها رسول الله ﷺ ، مع أن علاقته بالإسلام لم تكن حيدة إلى الدرجة التى يقول فيها مثل هذه القصيدة ، ولذلك نجد أن هذا الشعر الدينى موزع فى أهليته بين أمية

---

(١) الديوان ص ٤٦ (٢) الديوان ص ٧٧

وبعض الشعراء (المولدين) في العصر العباسي تقريباً . ويقول الدكتور خفاجي : « ويظهر في شعر أمية الديني : الضعف الفني ، لصعوبة الكلام في أمور الدين ، ولأنه كان يعارض القرآن في بعض معانيه ، فعجز وضعف وخزى »(١) .

ثانياً — المدح :

يأتي هذا الغرض في المرتبة الثانية من حيث أهميته في شعر أمية وقد قال فيه الكثير الذي اتجه به إلى سيف بن ذي يزن وغيرهما . وله قصيدة في مديح الرسول ﷺ ثارت حولها الشكوك فقيل إنها منحولة .

ولم يقف شاعرنا على أعتاب الملوك ، كما لم نجده يتخصص في مديح قبيلة معينة ويبدو أنه سخر فنه للتكسب به من مديح ابن جدعان الذي كان واحداً من الأثرياء في مكة المكرمة .

ولقد تحدث أكثر الذين كتبوا عن شعر أمية عن الهمزية التي امتدح بها ابن جدعان ، وهي :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني   حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالأمور وأنت قرم   لك الحسب المهذب والسناء
كريم لايغيره صباح   عن الخلق السني ولا مساء
فأرضك كل مكرمة بناها
بنو تيم وأنت لها سماء
إذا أثنى عليك المرء يوماً   كفاه من تعرضه الثناء

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ٢٠٨

تبارى الريح مكرمة ومجداً . إذا ما الكلب أجحره الشتاء

إذا خلفت عبد الله فاعلم
بأن القوم ليس لهم جزاء

فأبرز فضله حقاً عليهم كما برزت لناظرها السماء

فهل تخفى السماء على بصير
وهل بالشمس طالعة خفاء

بناة مكارم وأساة علم دما وهم من الكلم الشفاء(١)

ولقد وصف ابن جدعان بالحياء والكرم وثبات الأخلاق الجيدة ، وعراقة الأصل وكلها صفات متكررة على ألسنة الشعراء ، ولكن القصيدة تتميز برقة الألفاظ ووضوح الأفكار وخفة الوزن وجمال العرض وروعة التعبير ، وقد قال فى ابن جدعان أكثر من قصيدة ، ولذلك احتل من شعره مالم يصل إليه ممدوح آخر .

كما اتجه إلى سيف بن ذى يزن بالمدح فقال :

جلبنا النصح تحمله المطايا إلى أكوار أجمال ونوق

مغلغلة مرافقها ثقالا إلى صنعاء من فج عميق

تؤوم بها ابن ذى يزن وتفرى
بطون خفافها أم الطريق(٢)

وأورد محققا الديوان قصيدة بله فى مدح ابن ذى يزن، وقالا إن أكثر الرواة يروونها لأبيه ، وبعضهم يثبتها لجده زمعة وأولها :

---

(١) الديوان ص ١٩

(٢) الديوان ص ٥٤ ، ص ٩٩

ليطلب الثأر أمثال ابن ذى يزن
في البحر خيم للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامته
فلم يجد عنده بعض الذى سالا(١)

أما القصيدة التى قيل إنه مدح بها الرسول ﷺ ، فأولها :

لك الحمد والمن رب العباد أنت المليك وأنت الحكم
ودن دين ربك حتى اليقين واجتنبن الهوى والضجم
محمداً أرسله بالهدى فعاش غنياً ولم يهتضم
عطاء من الله أعطيته وخص به الله أهل الحرم
وقد علموا أنه خيرهم وفى بيته ذى الندى والكرم(٢)

والملاحظ أن موهبة أمية فى المدح لا ترقى إلى مرتبة الشعراء الكبار أمثال زهير والنابغة وغيرهما ، وإن تميز بأنه شاعر قروى عف اللسان لا يميل إلى المبالغة ، ولا يسرف فى الثناء ، ولعله كان يتجه إلى ممدوحيه وفى ذهنه المبادىء الحنيفية التى (تمذهب) بها طوال حياته .

ثالثاً : الوصف :

وهو فن واسع من فنون الشعر العربى ، وقد وظفه أمية لرصد حركة الحياة ومتابعة تطورها من حوله ، وامتد هذا الغرض إلى سائر الفنون الأخرى ، وإن كان دوره موجهاً إلى وصف الطبيعة بقسميها الصامتة والمتحركة كقوله عن الليل والنهار :

---

(١) الديوان ص٦٥ ، ٦٦ وراجع الأغانى جـ١٧ ص ٣١٢
(٢) الديوان ص ٧٠ ، ٧١

الخيط الأبيض ضوء الصبح منفلق
والخيط الأسود لون الليل مكموم(١)

وقوله فى وصف الفرس :

كميت بهيم الليل ليس بفارض
ولا بخصيف ذات لون مرقم(٢)

وقد تجلت مقدرته فى متابعة المظاهر الطبيعية كوصف المطر ودواب الأرض ، وطبقات الجو ، ومناحى الفضاء الواسع ، وامتدت موهبته إلى وصف النواحى المعنوية التى تمتد ببعض الأسباب إلى شعره الدينى .

ويلاحظ أنه كان مقلا فى وصف الفرس ، ولم يوظف فنه فى خدمة الناقة أو غيرها من وسائل الانتقال فى الجاهلية ، مع أنه كان تاجراً مرتحلا من الحجاز إلى الشام واليمن ، كما لم يكن شاعر حرب يصف وقائعها وآثارها ، وقد يكون ذلك بسبب أنه نشأ فى الطائف ، وهى قرية (أو مدينة) عربية لم تعرف المعارك القبلية الطويلة ، ثم إنه كان شاعر حب وسلام فلم يتلوث بيانه بتفجير نار الكراهية فى البيئة التى التصق بها وعاش فيها .

رابعاً : الفخر :

برز أمية فى هذا الغرض لمكانته فى قومه من جهة أبيه وأمه ، وقد جاء أكثر فخره مختلطا بغيره من الفنون كالمدح والرثاء باستثناء بعض القصائد والمقطوعات ، ونختص منها قصيدته (المجمهرة) ، وهى من أجمل شعره فى الفخر ، ويعد هذا الغرض من أبرز الأغراض الجاهلية لاتفاقه مع طبيعة الحياة فيها ، ومع ذلك فإن شعر أمية فيه قليل بالنسبة لغيره من الجاهليين الذين صالوا فيه وجالوا ، وربما يرجع هذا الإقلال

---

(١) الديوان ص ٧٧ (٢) الديوان ص ٧٦

إلى النزعة الدينية التى ملأت عليه حياته ، أما قصائده فى الفخر فلربما قالها قبل أن يتوغل فى الحنيفية التى امتلكت كيانه ووجدانه ، وصارت عقيدته التى أقر بها ودعا إليها : قال :

أنا الذائد الحامى الذمار وإنما
يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى(١)

وقال :

قومى إياد لو أنهم أمم ... ولو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم ساحة العراق إذا ... ساروا جميعاً والقط والقلم(٢)

ويتنوع الفخر فى شعر أمية بين القصيدة والمقطوعة والبيت الواحد حيث يفتخر فيها بنفسه ومكانته فى بيئته ، أو يفتخر بقومه (ثقيف) وبجذوره التى تضرب فى أعماق التاريخ ، وتعد (المجمهرة) أفضل قصائده فى الفخر ، وقد اختارها أبو زيد القرشى ؛ لتكون واحدة من (المجمهرات) التى وضعها فى الطبقة الثانية بعد (السموط) وهى قصائد الطبقة الأولى ، وأول قصيدة أمية قوله :

عرفت الدار قد أقوت سنينا ... لزينب إذ تحل بها قطينا
وأذرتها حوافل معصفات ... كما تذرى الململة الطحينا
وسافرت الرياح بهن عصراً ... بأذيال يرحن ويغتدينا
فابقين الطلول مخبيات ... ثلاثاً كالحمائم قد بلينا(٣)

ولعلها تقترب فى مضمونها مع قصيدة عمرو بن كلثوم فضلا عن اتفاقهما فى الوزن والروي ، ويتأكد ذلك من خلال متابعتنا لأبيات الفخر فى قصيدة أمية التى يقول فيها :

---

(١) الديوان ص ٦١ ... (٢) الديوان ص ٧٧
(٣) الديوان ص ٨٤

ورثنا المجد عن كبرا نزار ... فأورثنا مآثرنا البنينا
وكنا حيثما علمت معد ... أقمنا حيث ساروا هاربينا
تنوح وقد تولت مدبرات ... تخال سواد أيكتها عرينا

بل يزداد التقارب بين المعانى والألفاظ فى القصيدتين للدرجة التى يقول أمية :

وأنا الشاربون الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا

وهو يدنى (جداً) من بيت عمرو بن كلثوم الذى قال فيه :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدراً وطينا

وإن كان لا يخفى على أحد طول نفس ابن كلثوم حيث جاءت معلقته فى مائة وواحد وعشرين بيتا(١) بينما جاءت جمهرة أمية فى ثلاثين بيتا(٢) فهذه السعة فى قصيدة عمرو تتيح له أن يمتد فخره إلى نواح كثيرة لم تشملها أو تتطرق إليها قصيدة أمية.

خامساً : الحكمة :

ليست الحكمة غرضاً مستقلا بذاته ، بمعنى أنه لا توجد قصائد خاصة بهذا اللون الشعرى ، ولكننا عرفنا شعر الحكمة موزعا بين الأبيات ، كما يأتى فى مطالع القصائد أو فى أواخرها ، وقد تيسرت الإمكانات الفكرية لابن أبى الصلت لأن يكون واحداً من الحكماء الجاهليين بفضل معارفه الكثيرة ، واطلاعه على الكتب القديمة ومراجعته لثقافات الأمم الأخرى، فتهيأ إدراكه لقول هذا الشعر ، والإنضاء به من خلال كل الأغراض

---

(١) كما جاءت فى جمهرة أشعار العرب للقرشى من ص ٢٧٢ إلى ٣٠٠
(٢) كما جاءت فى الجمهرة أيضاً من ص ٤٠٧ إلى ٤١٢

الشعرية ، أو من خلال بعض المقطوعات الصغيرة خصيصاً لشعر الحكمة ، قال :

إن الغلام مطيع من يؤدبه ... ولا يطيعك ذو شيب بتأديب(١)

وقال :

وقد يقتل الجهل السؤال ويشتفى ... إذ عاين الأمر المهم المعاين

وفى البحث قدما والسؤال لذى العمى ... شفـــاء وأشفى منهما ما تعاين(٢)

سادساً : الرثاء : يعد هذا الغرض من أكثر الفنون التى برز فيها أمية خاصة أنه الغرض الذى يخلو من الزيف ، ويتجه الحديث فيه إلى الماضى ؛ لامتداح الأموات . وكانت هزيمة المشركين فى بدر وقتل العديد من رجالها مجالا كبيراً أمام أمية لكى يبكى عليهم مادام قلبه لم يعمر بالإسلام ، وتعد قصيدته فى رثاء قتلى بدر من أشهر قصائد الرثاء فى الشعر العربى حتى إن الرسول أوصى بعدم روايتها ، وقد ذكرها ابن هشام ما خلا بيتين ، تعرض الشاعر فيهما للمسلمين ، ثم بكى أمية فى رثائه لبعض الرجال مثل عتبه ابن ربيعة وزمعة بن الأسود ، كما اتجه إلى نفسه فرثاها قبل موتها ، ومن شعره فى رثاء قتلى قريش يوم بدر :

ألا بكيت على الكرام بنى الكرام أولى الممادح

كبكا الحمام على فروع الأيك فى الغصن الصوادح

يبكين حرى مستكينات يرحن مع الروائح

أمثالهن الباكيات المعولات من النوائح(٣)

---

(١) الديوان ص ٢٠ (٢) الديوان ص ١٣

(٣) الديوان ص ٢٤

وقد احتفل المستشرقون بهذه القصيدة ؛ لأنها من وجهة نظرهم بعيدة عن الوضع والانتحال ، وكأنهم رأوا فيها تعبيراً عن الرأى الآخر (المعارض) للدعوة الإسلامية ، وهى فريدة فى اشتمالها على امتداح المشركين ، كما أنها من الشعر الذى عز وجوده بعد عصر التدوين ، وربما رأى النقاد المحدثون من عرب ومستشرقين فى جزالة ألفاظها ووعورة تراكيبها ما ينأى بها عن النحل ، فضلا عن رواية ابن هشام لها وتدوينها فى كتابه .

سابعاً : الغزل :

تنتشر فى ديوان أمية بعض الأشعار التى تعبر عن أغراض أخرى ، ولكنه كان فيها مقلا قصير النفس ، ونذكر منها :

الغزل كقوله متغزلا بسلمى :

كأن المسك تخلطه بفيها ... وزنج قرنفل والياسمينا

ألم تر أن حظى من سليمى ... أمانى قد يرحن ويغتدينا(١)

وقد افتتح بغزله بعض قصائده ، كما أن له قصيدة غزلية منها البيتان السابقان ولكنه كان قصير النفس أيضاً فى هذا اللون ، حيث اتجه بفنه إلى الشعر الدينى ، وغيره من الأغراض التى أثبت فيها شاعريته وريادته من خلال قبيلته (ثقيف) .

---

(١) الديوان ص ٥٤

الفصل الثاني

ذو الإصبع العدواني

(شاعر الحكمة والسلام)

١ – مسيرة حياته وشعره :

ينسب ذو الإصبع إلى قبيلة (عدوان) التي تسكن بقاياها في الطائف إلى اليوم ، مع أن تاريخها حافل بالوقائع المشهورة والأمجاد العظيمة ، وقد غلب لقب هذا الشاعر عليه ، فصار معروفا به ، وجهل الناس اسمه مع مرور الأيام والسنين . وذكر أبو الفرج الأصبهاني نسبه فقال : « هو حرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة ... » ويمتد كما جاء في الأغاني إلى « قيس بن عيلان بن مضر بن نزار أحد بني عدوان وهم بطن من جديلة »(١) .

وقد لقب بذي الإصبع : « لأن أفعى نهشت إبهام رجله ، فقطعها ، فسمي ذا الإصبع . وقيل : إنه كانت له إصبع زائدة »(٢) .

وليس بين أيدينا من الحقائق الثابتة ما يشهد على نشأة هذا الشاعر العدواني الذي يرتبط بكتابنا من خلال قبيلته التي كانت تقيم في الطائف

---

(١) الأغاني جـ ٣ ص ٨٩

(٢) شرح المفضليات للتبريزي – القسم الثاني ص ٥٧٣ تحقيق على البجاوي طبع دار نهضة مصر .

وضواحيها فى الجاهلية ، بل إنها كانت أسبق من ثقيف فى الحياة بها ، وقد ظلت القبيلتان تعيشان سوياً فى تلك المنطقة قروناً طويلة .

لم يذكر حرثان أو ذو الإصبع فى شعره القليل وقصائده ومقطوعاته المعدودة شيئاً عن زوجته ، مع أنه تحدث عن أبنائه ، وخاطبهم بجيد الشعر والنثر فقد روى صاحب الأغانى قصته مع بناته الأربع ، عندما أردن الزواج ، ولولا طول الخبر لذكرته ، وبخاصة ما تحدث به ذو الإصبع إلى بناته بعد زواجهن ، من حكم بليغة وأقوال مرسلة . ونفهم منها طيب العلاقة بين الرجل وبناته وزوجته التى كانت توصيه — فقط — بالموافقة على تزويج بناتها .

كما نقل أبو الفرج إلينا أيضاً وصية ذى الإصبع عند موته لابنه ، وهى من الوصايا التى تشهد بسمو الأخلاق عند كثير من الجاهليين . وتؤكد أن هذا الرجل من كبار الحكماء المجربين ، ومن أهل الأدب الذين ملكوا زمام الشعر والنثر . ويبدو أنه استفاد بخبرته وطول حياته فى صياغة هذه الوصية التى قالها عندما احتضر حيث دعا ابنه أسيداً ، وقال له : « يا بنى ، إن أباك قد فنى وهو حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى [illegible] ما بلغته ، فاحفظ عنى :

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك واحم حريمك وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ ، فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتم سؤددك ، ثم أنشأ يقول :

أأسيد إن مالا ملكـ ت فسر به سيراً جميلا

آخ الكرام إن استطعـ ـت إلى إخائهم سبيلا

واشرب بكأسهم وإن شربوا به السم الثميلا

أهن اللئام ولا تكن لإخائهم جملا ذلولا

إن الكرام إذا توا خيهم وجدت لهم فضولا

ودع الذى يعد العشيـ ـرة أن يسيل ولن يسيلا

أبنى إن المال لا يبكى إذا فقد البخيلا(١)

ولم تتوقف مسيرة الحكمة عند هذا البيت، بل تواصلت حتى بلغت هذه القصيدة واحداً وعشرين بيتاً.

وإذا ما أعدنا النظر فى النص النثرى الذى ابتدأ به ذو الإصبع وصاياه وجدناه حريصاً على دعم العلاقة بين (أسيد) وسائر الناس من خلال الصفات الأخلاقية المتعددة كلين الجانب والتواضع وبسط الوجه والإيثار والكرم والسماحة وحماية العرض وإعزاز الجار ومساعدة المحتاج والإسراع فى النهضة وصون الوجه عن مذلة السؤال.

ويلاحظ أنه استعمل الأساليب الإنشائية التى تتلاءم مع الأبوة، ومقتضى الحال الذى آل إليه الرجل فى آخر حياته، كما استعمل الجمل القصيرة الموجزة، وبذلك يسهل حفظها من قبل الناشئة وصغار المتعلمين. أما النص الشعرى فلا يختلف فى هدفه عن القطعة النثرية التى استهل بها هذه الوصايا، كما لا يختلف أيضاً من حيث الصياغة البديعة والجمل القصيرة والتعبير الإنشائى الجميل.

ويبدو أن الأدب الرفيع والأخلاق الفاضلة قد شملت أبناء شاعرنا

(١) الأغانى ج ٣ ص ٩٨، ٩٩

حيث روى أبو الفرج قطعة شعرية لإمامة بنت ذى الإصبع ترثى فيها قومها ، كما أن بناته جميعاً كن يعبرن عن رغباتهن فى الزواج من خلال الشعر مما يؤكد استفادة أهل ذى الإصبع بما فى جعبته من معارف وآداب .

ولقد استمر فى قول الشعر إلى آخر حياته الطويلة ، وبين أيدينا سبعة أبيات قالها لابنته (أمامة) عندما بكت لما رأته قد نهض فسقط وتوكأ على العصا ، وهى :

جزعت أمامة أن مشيت على العصا
وتذكرت إذ نحن من الفتيان

فلقبل ما رام الإله بكيده ... إرما وهذا الحى من عدوان

بعد الحكومة والفضيلة والنهى ... طاف الزمان عليهم بأوان

وتفرقوا وتقطعت أشلاؤهم ... وتبددوا فرقاً بكل مكان

جدب البلاد فأعقمت أرحامهم
والدهر غيرهم مع الحدثان

حتى أبادهم على أخرام ... صرعى بكل تقيرة ومكان

لا تعجبن أمامُ من حدث عرا ... فالدهر غيرنا مع الأزمان(١)

ولقد امتدت حنكة ذى الإصبع إلى الشعر الذى يواسى فيه ابنته (أمامة) ويصبرها على حالته ، ويعطيها الأمثلة على شمول الفناء لكل السابقين ، ويوصيها بعدم التعجب ؛ لأن ما حدث له كان بسبب تأثير الدهر فيه ، ولا نجاة من هذا التغيير أو التأثير ، وهكذا تدعمت أخلاقياته

---

(١) المرجع السابق ج٣ ص ١٠٨ ، ١٠٩

مع أبنائه فى شبابه ، وفى أخريات حياته ، وعبر عن ذلك فى العديد من المواقف .

وكان لذى الإصبع ابن عم يناصبه العداء فهمس إليه شاعرنا بما يسهم فى إطفاء نار الكراهية التى تملكته وأحاطت به فى أحد عشر بيتا رواها أبو الفرج ، ونقل مناسبتها عن أبى عمرو فقال : « قال أبو عمرو وكان لذى الإصبع ابن عم يعاديه فكان يتدسس إلى مكارهه ، ويمشى به إلى أعدائه ، ويؤلب عليه ، ويسعى بينه وبين بنى عمه ، ويبغيه عندهم شرا ، فقال فيه(١) : ثم ذكر الأبيات ومنها :

ياصاحبى قفا قليلا	وتخبرا عنى لبيسا
عمن أصابت قلبه	فى مرها فغدا نكيسا(٢)
ولى ابن عم لا يزا	ل إلى منكره دسيسا
دبت له فأحس بعـ	ـد البرء من سقم رسيسا(٣)
إما علانية وإمـ	ـا مخمرا(٤) أكلا(٥) وهيسا(٦)

ونلاحظ أن شعر ذى الإصبع فى هذا الموقف لم يكن فى مثل نماذجه السابقة حيث جاء المطلع متكلفا بهذا الغزل الذى لا يتلاءم مع المناسبة ، كما أن أكثر الألفاظ ثقيلة جافة .

وتمتد موجة الإصلاح التى ينشدها لتشمل قبيلته كلها ، ولم تعد

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .
(٢) النكيس : المريض (٣) الرسيس : أول الحمى
(٤) مخمرا : من أخمر الشىء إذا ستره .
(٥) الأكل الوهيس : الشديد
(٦) مجموع هذه الأبيات — كما وردت فى الأغانى — أحد عشر بيتا .

فلسفته الاجتماعية — من خلال شعره — قاصرة على أبنائه وابن عمه ، فقد سعى بنفسه للتصالح ورأب الصدع بين بنى تاج بن يشكر وبنى عوف بن سعد ، وهما من عدوان ، ولكنهما لم يتصالحا حتى تفانوا وتقطعوا ، فقال ذو الإصبع :

ويا بؤس للأيام والدهر هالكا
وصرف الليالى يختلفن كذلكا

أبعد بنى تاج وسعيك فيهم
فلا تتبعن عينيك ما كان هالكا

إذا قلت معروفا لأصلح بينهم
يقول مرير ولا أحاول ذلكا

فأضحوا كظهر العود جب سنامه
تحوم عليه الطير أحدب باركا

فإن تك عدوان بن عمرو تفرقت
فقد غنيت دهراً ملوكا هنالكا(١)

وهكذا نرى شعر ذى الإصبع موجهاً إلى الحكمة والحب والسلام ، فهذه الشواهد التى ذكرناها ، والأشعار الأخرى التى لم نذكرها ، تدور حول رؤية واحدة ، وتعبر عن فلسفة اجتماعية سامية بحيث لا تتناقض المواقف أو الأشعار مع بعضها ، وكم رأينا من الجاهليين من يدعو إلى السلام ويمقت الحروب فى موقف ثم لا يلبث أن يتجاهل ذلك من خلال دعوته للحرب وممارسة الظلم فى موقف آخر .

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٤

٢ — موضوعات شعره :

إن القصائد والمقطوعات التى لا تتجاوز فى مجموعها أصابع اليدين ، والتى قالها ذو الإصبع ، ونقلتها إلينا (الأغانى) و (المفضليات) وغيرهما يمكن أن تشكل بعض الأغراض الشعرية فى حدود هذا القدر المنقول إلينا ، وإن كنا نلحظ اشتمال القصيدة الواحدة على أكثر من غرض كما كان ينحو الجاهليون فى بعض أشعارهم . ويبدو أن نتاج ذى الإصبع كان فى مستوى متقارب بمعنى أن فنه لا يتمثل فيه الخط البيانى للتطوير مما يجعلنا نقول بحرص الشاعر على تنقيح شعره ، أو أنه لجأ إلى التخلص مما لم يعجبه أو يرضى عنه ، كما أنه من الجائز أن يكون شعره قد تعرض للتلف أو الضياع ، ولكن تلك الأمور لا تعدو أن تكون أموراً ظنية نفسر بها ظاهرة وجود مجموعة من القصائد والمقطوعات لشاعر متميز ، وفى درجة متقاربة من ناحية المعانى والأفكار والصياغة اللفظية .

وإذا التمسنا تدرجاً للموضوعات أو الأغراض فى هذا الشعر من حيث عدد الأبيات فسوف يأتى ترتيبها على النحو التالى :

(أ) الحكمة : عرفنا الحكمة فى أكثر النماذج التى مثلنا بها ، وسوف نلقاها فى أمثلة أخرى من مجموع هذا الشعر مما لم نذكره . ولعل أبرز نموذج للحكمة ما قاله متوجهاً به إلى ابنه (أسيد) حيث قدم القصيدة بقطعة من النثر نصح فيها ابنه ، وأوصاه بمجموعة من الأخلاق التى حرص الجاهليون عليها ، ومما قاله فى القصيدة المذكورة :

ودع التوانى فى الأمو ... ر وكن لها سلساً ذلولا

وابسط يمينك بالندى ... وامدد لها باعاً طويلا

وابسط يديك بما ملكـ ... ـت وشيد الحسب الأثيلا

واعـزم إذا حاولت أمـ ـراً يفرج الهـم الدخيلا
وابذل لضيفك ذات رحـ ـلك مكرما حتى يزولا(١)

إلى آخر الأبيات التى تبين ما يحرص عليه ذو الإصبع — فى حديثه لابنه — من التأكيد عليه بملازمة الأخلاق الجيدة، والتحلى بالصفات الجميلة ، فهذه النصائح تنم عن تجربة وممارسة من (الوالد) . كما لا يخفى أن النصيحة وليدة الحكمة ، بل إنهما — أى الحكمة والنصيحة — ينبعان من معين واحد ، ويصبان معاً فى نهر الحياة الواسع الكبير .

(ب) الفخر : كان الشعراء الجاهليون يفخرون بأنفسهم وبقبيلتهم ، وينوهون بشجاعتهم فى الحروب ، وبكرمهم فى حالة الإعسار ، وبعفوهم عن أساء ، إلى غير ذلك من الصفات التى كانت محل إعجاب عند القدماء .

ونقدم نموذجاً من شعر الفخر ؛ لنرى فيه أسلوب ذى الإصبع فى هذا اللون الشعرى الأصيل ، قال :

إنكما صاحبى لن تـدعا لومى ومهما أضع فلن تسعا
إنكما من سفـاه رأيكما لا تجنبانى الشكاة والقـذعا
إلا بأن تكذبا على ولن أوذ صديقاً ، ولم أنل طبعا
إن تزعما أننى كبرت فلم ألف بخيلا نكساً ولا ورعا
أجعل مالى دون الدنا غرضاً وما وهى مل أمور فانصدعا
أما ترى شكتى رميح أبى سعد فقد أحمل السلاح معاً(٢)

---

(١) المرجع السابق ج٣ ص ١٠٠
(٢) شرح المفضليات ج٢ ص ٥٧٤ وما بعدها

وقد شرح التبريزى قصيدتين لشاعر عدوان اختارهما المفضل الضبى فى (المفضليات) . وتعتبر هاتان القصيدتان من أفضل ما قاله ذو الأصبع وهما يمثلان شعر الفخر عنده أصدق تمثيل ، ومن قوله فى القصيدة الثانية :

كل امرىء راجع يوماً لشيمته
وإن تخالق أحيانا إلى حين

عندى خلائق أقوام ذوى حسب
وآخرون كثير كلهم دونى(١)

(ج) اللوم والعتاب : اتجه ذو الإصبع فى أكثر ما قاله من لوم وعتاب إلى قبيلته ، فقد كان له موقف من الحروب لم يستطع أحد أن يهتدى إليه ، أو يقتنع به المتحاربون فيها ، كما أن موقفهم من ابن عمه لم يستحق إلا اللوم والتقريع ، وكثيراً ما اتجه بالحديث إليه حديثاً مباشراً ، أو من خلال فخره بنفسه أو عتابه للآخرين ، ونراه فى الأبيات التالية يلوم ابن عمه ، ويذكر ما كان بينهما ، قال :

لى ابن عم على ما كان من خلق
مختلفان فأقليه ويقلينى

أزرى بنا أننا شالت نعامتنا
فخالنى دونه بل خلته دونى

يا عمرو ألا تدع شتمى ومنقصتى
أضربك حيث تقول الهامة اسقونى

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب
عنى ، ولا أنت ديانى فتخزونى

---

(١) المرجع السابق ح [illegible] ص [illegible] وما بعدها .

ولا تقول عيالى يوم مسغبة
ولا بنفسك فى العزاء تكفينى

فإن ترد عرض الدنيا بمنقصتى
فإن ذلك مما ليس يشجينى

ولا يرى فى غير الصبر منقصة
وما سواه فإن الله يكفينى

لولا أواصر قربى لست تحفظها
ورهبة الله فى مولى يعادينى

إذا بريتك بريا لا انجبار له
إنى رأيتك لا تنفك تبرينى(١)

وقد جاء اللوم والعتاب فى صورة رثاء من الشاعر لقومه على ما كان منهم من خلاف حول الحرب ، والتقصير فى موقفهم من عمرو (ابن عم ذى الإصبع)، ويلاحظ أن الشاعر إبتدأ بعض قصائده بالغزل على عادة الجاهليين ، فهو ليس غرضاً شعرياً قائماً بذاته ، بل يتوسط به إلى غرض آخر ، أو يتخذ مدخلا للموضوع الأصلى للقصيدة .

٣ — الإعجاب بشعره :

ترجم أبو الفرج الأصبهانى لذى الإصبع فى قرابة العشرين صفحة، وذكر فى هذه الترجمة أكثر من نصف ما قاله من شعر ، كما كان حريصاً على أن يستكمل بعض القصائد .

وقد عرف به وتحدث عنه كثير من أصحاب كتب التراجم ، ولكن

---

(١) المرجع السابق ج٢ ص ٩١ وما بعدها

يبدو أن ما قاله ذو الأصبع أكثر مما وصلنا من شعره ، ويرجع ذلك إلى عدم وجود ديوان له يجمع فيه كل ما قاله من قريض ، ولولا أن هذه الكتب القديمة جمعت بين دفتيها هذا القدر من شعره لما وجدنا هذا المتبقى بين أيدينا ، والذى نعرف الرجل ، ونتحدث عنه من خلاله .

ذكر الأصبهانى موقفاً يكشف عن إعجاب عبد الملك بن مروان بشعر ذى الإصبع ، وتزداد قيمة هذا الإعجاب إذا عرفنا أن عبد الملك كان أديباً ناقداً ، أما راوى هذا الموقف — كما جاء فى الأغانى — فهو عمر بن شبة الذى تحدث عما ظفر به معبد بن خالد الجدلى من الخليفة لحفظه قصيدة ذى الإصبع التى يقول فى أولها :

وليس الأمر فى شىء من الإبرام والنقض
إذا أبرم أمراً خا له يقضى ، وما يقضى(١)

كما أعجب المفضل الضبى بقصيدتين لذى الإصبع ، وجمعهما فى المفضليات بل إن التبريزى قد ذكر روايتين للقصيدة الأولى مما يؤكد إعجاب القدماء بهذا الشاعر الذى مات قبل الهجرة بخمسة وعشرين عاما ، وكان من المعمرين .

٤ — خصائص شعره :

(ا) يتصف شعر ذى الإصبع بالذاتية ، وهى ميل الشعر إلى الجانب الوجدانى ؛ وقد ظهر ذلك فى كل ما ذكرناه من شعر له سواء فى حديثه إلى أبنائه أم فى عتابه لابن عمه ، أم فى لومه لقبيلته ، أومن خلال المطالع

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ٩٢ .

الغزلية التى كان يبتدأ بها قصائده، على أن هذه الذاتية تنبع من الواقع ، وتنأى عن الخيال تمثيلا للحياة الجاهلية .

كما أن المعانى الشعرية مستقاة فى معظمها من البيئة الحضرية حيث كان يقيم آل عدوان بالطائف ، وهى واحدة من القرى المتحضرة .

(ب) تتسم المعانى بالسمو والرفعة والوضوح . وتعرض للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات ، وتنبذ العادات الضارة كالأحقاد والضغائن .

(جـ) تتميز التراكيب بالسهولة والمتانة والأصالة .

(د) تبدو الملامح الجاهلية على ألفاظ الشاعر ، من حيث الجزالة والملاءمة للبيئة والتفرد ، ولذلك جاء شعره متميزاً على شعر الكثير من أبناء عصره .

الفصل الثالث

شـــعراء آخرون

أولا — غيلان بن سلمة .

ذكر القدماء مجموعة من الأخبار عن غيلان بن سلمة وشعره ، وظهر منها أن ما كتب عنه يتجاوز موهبته المحدودة فى قول الشعر ، إذ لم نطالع له قصيدة طويلة على غرار الجاهليين من شعراء الطائف ، وأكثر ما ذكر له عبارة عن مجموعة من المقطوعات الشعرية التى قالها فى مواقف مختلفة ، وجاء أكثر هذه المقطوعات فى كتاب الأغانى ، ولم يرد له شىء فى طبقات الجمحى الذى تحدث عن شعراء الطائف فى فصل موجز مستقل .

وهو : « غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك... » (١) ، ويصل نسبه إلى (قسى) وهو ثقيف .

وقد جمع بين قول الشعر والحكمة والخطابة والفروسية ، حيث شهد بعض المواقع القتالية بين الثقفيين وغيرهم ، وظفر فيها بالنصر ، وقال فى ذلك شعراً يسجل به شجاعته وبطولته وحماسة قومه . وتزوج عشرة نسوة منهن خالدة بنت أبى العاص التى أنجب منها ابنيه (عماراً وعامراً) .

أسلم غيلان بعد فتح الطائف ، وأسلمت معه نساؤه العشر ، فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتخير منهن أربعاً ويفارق سائرهن ، وجاء فى

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٢٠٠

هامش طبقات ابن سلام أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسله هو وعروة ابن مسعود الثقفي إلى جرش ليتعلمان صنعة الدباب والضبور والمجانيق ، فلم يشهدا حنيناً ولا الطائف (١) . وتوفى فى آخر خلافة عمر بن الخطاب :
« وكان قسم ماله كله بين ولده ، وطلق نساءه ، فقال له عمر : إن الشيطان قد نفث فى روعك أنك ميت ، ولا أراه إلا كذلك ، لترجعن فى مالك ، ولتراجعن نساءك ، أو لآمرن بقبرك أن يرجم كما يرجم قبر أبى رغال ، ففعل ... » (٢) .

وإذا كان غيلان قد أسلم فإن ما قاله من شعر لا يعبر إلا عن حياته الجاهلية بما فيها من حروب وتفاخر وبكاء وعلاقات ذات طابع خاصة مع النساء .

فلقد ملته زوجته ، وتجنت عليه ، فأنكر أخلاقها ، وهددها بالطلاق قائلا :

يا رب مثلك فى النساء غريرة
بيضاء قد صبحتها بطلاق

لم تدر ما تحت الضلوع وغرها
منى تحمل عشرتى وخلاقى (٣)

---

(١) انظر هامش طبقات فحول الشعراء لابن سلام جـ ١ ص ٢٦٩ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٧٠ ، وقيل عن أبى رغال إنه هو الذى بعثه ثقيف مع أبرهة والفيل لهدم الكعبة ، فلما نزلوا المغمس بين مكة والطائف ، مات أبو رغال هنالك ، فرجمت قبره العرب (هامش الطبقات جـ ١ ص ٢٧٠) بتصرف .

(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٢٠٣

وقال فى انتصار ثقيف بقيادته على خثعم :

ألا يا أخت خثعم خبرينا
بأى بلاء قوم تفخرينا
جلبنا الخيل من أكناف وج
وليث نحوكم بالدار عينا
رأيناهن معلمة رواحا
يقتيان الصباح ومغتدينا(١)

وقد جمع غيلان — مثل أكثر الجاهليين — بين قول الشعر وقول النثر ، وروى له صاحب الأغانى وصية لأبنائه التى فيها الضربان من القول، فذكر فيما رواه عن السابقين :(لما حضرت غيلان بن سلمة الوفاة ، وكان قد أحصن عشراً من نساء العرب فى الجاهلية قال : « يابنى ، قد أحسنت خدمة أموالكم ، وأمجدت أمهاتكم ، فلن تزالوا بخير ما غذوتم من كريم وغذا منكم ، فعليكم ببيوتات العرب فإنها معارج الكرم ، وعليكم بكل رمكاء مكينة ركينة ، أو بيضاء رزينة فى خدر بيت يتبع ، أو جد يرتجى ، وإياكم والقصيرة الرطلة ، فإن أبغض الرجال إلى أن يقاتل عن إبلى ، أو يناضل عن حسبى ، القصير الرطل ، ثم أنشأ يقول :

وحرة قوم قد تنوق فعلها وزينها أقوامها فتزينت
رحلت إليها لا ترد وسيلتى وحليتها من قومها فتحملت(٢) .

---

(١) المرجع السابق ج ١٣ ص ٢٠٤

(٢) المرجع السابق ج ١٣ ص ٢٠٥ ، ونسب البيتان فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ إلى عثمان أبى العاص (انظر هامش الأغانى ج ١٣ ص ٢٠٥)

وتجلت مقدرة غيلان فى هذا النص السابق الذى جمع فيه وصيته لابنائه حول الزواج مستغلا خبرته فى هذا الجانب من خلال تعامله مع زوجاته العشر خاصة وأنه هدد بعضهن، وطلق الأخريات قبل موته، لولا أن تدخل عمر بن الخطاب وقضى بإعادة الأمور إلى ما كانت عليه.

وظهرت حنكة هذا الشاعر الحكيم فى لقائه المشهود بكسرى الذى جاء بروايتين، وفيهما أنه التقى به وسأله كسرى عن أحب أولاده إليه فقال: «الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يؤوب». وسأله عن طعامه وعن أشياء أخرى، فأعجب به كسرى، وأرسل معه من الفرس من بنى له قصرا بالطائف، فكان أول قصر بنى بها

وقال غيلان عند خروجه لقاء كسرى:

ولو رآنى أبو غيلان إذ حسرت
عنى الأمور إلى أمر له طبق
لقال رغب ورهب يجمعان معاً
حب الحياة وهول النفس والشفق
إما بقيت على مجد ومكرمة
أو أسوة لك فيمن يهلك الورق(١)

وقد اشتهرت ابنته (بادية) بالجمال المبهر حتى قال فيها هيت المخنث لعبد الله بن أمية: «إن فتح الله عليكم الطائف، فإنى أدلك على بادية بنت غيلان، فإنها تقبل بأربع، وتدبر بثمان، فسمعه النبى ﷺ فقال: قاتلك الله لقد أمعنت النظر، وقال: لايدخلن هؤلاء عليكن، ثم نفاه إلى روضة

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٢٠٦ والورق: الفضة

بخاخ، فقيل: إنه يموت بها جوعا، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة، يسأل الناس»(١).

قال غيلان شعره فى عدة موضوعات منها: الفخر الذى طرق بابه أكثر الشعراء الجاهليين، أما هو فقد جاء فخره بمدينته (الطائف) وبقبيلته (ثقيف) فضلا عن فخره بنفسه. ويلاحظ أن هذه الضروب من الفخر ذات هدف واحد، فثقيف تسكن الطائف، وغيلان فارس من فوارس هذه القبيلة، وقد قال مفتخراً بمدينته:

حللنا الحد من تلعات قيس
بحيث يحل ذو الحسب الجسيم

وقد علمت قبائل جذم قيس
وليس ذوو الجهالة كالعليم

بأنا نصبح الأعداء قدما
سجال الموت بالكأس الوخيم

وأنا نبتنى شرف المعالى
وننعش عثرة المولى العديم

وأنا لم نزل لجأ وكهفا
كذاك الكهل منا والفطيم(٢)

وقال غيلان بعض المقطوعات الشعرية فى الحماسة والحرب، كتلك الأبيات التى تغنى فيها بانتصار ثقيف على بنى عامر بن ربيعة وهى:

---

(١) الروض الأنف للسهيلى جـ ٤ ص ١٦٣ مكتبة الكليات الأزهرية.
(٢) معجم البلدان لياقوت الحموى جـ ٤ ص ١٢

ودع بذم إذا ماخان رحلتنا
أهل الحظائر من عوف ودهمانا

القائلين وقد حلت بساحتهم
جسر تحسحس عن أولاد همانا

والقائلين وقد رابت وطابهم
أسيف عوف ترى أم سيف غيلانا

أغنوا الموالى عنا لا أبا لكم
إنا سنغنى صريخ القوم من كانا

لا يمنع الخطر المظلوم لحمته
حتى يرى... بالعين من كانا(١)

كما أن لغيلان بعض المقطوعات التى بكى فيها على من مات من قومه كابنه (عامر) وأخيه (نافع)، ومما قاله فى رثاء ابنه عامر الذى مات بالشام فى طاعون عمواس، وكان يومئذ فارس ثقيف :

عينى تجود بدمعها الهتان
سحا وتبكى فارس الفرسان

يا عام من للخيل لما احجمت
عن شدة مرهوبة وطعان

لو أستطيع جعلت منى عامرا
بين الضلوع وكل حى فان(٢)

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٢٠٣
(٢) المرجع السابق ج ١٣ ص ٢٠٢

وهكذا وضح لنا أن غيلان بن سلمة لم يكن شاعراً فحلا ، بل كان مقلا ، وكان قصير النفس ، إذ لم يزد أى نص شعرى مما وصلنا له عن ثمانية أبيات .

وجاء شعره فى أكثر الفنون التى جأر بها الجاهليون ، وهى الفخر والحماسة والرثاء ، أما ما قاله من غزل فلم يخرج عن حدود البيت أو البيتين اللذين يبدأ بهما موضوعه الشعرى .

وقد مالت ألفاظه إلى الخفة والرقة والسهولة ، لاقتراب حياته من تباشير الإسلام ، حيث تخلى الجاهليون والمخضرمون منهم بخاصة عن الألفاظ الجزلة والمعانى الحسية التى احتشد بها ديوان الشعر الجاهلى القديم .

ثانيا — كنانة بن عبد ياليل بن عمرو الثقفى .

حمل إلينا تاريخ ثقيف فى الجاهلية اثنين من الشعراء اسم كل منهما (كنانة بن عبد ياليل) . وقد خلط الناس بينهما كثيراً ، ولذلك فإننا نستهل الحديث عن الشاعر المشهور منهما بتفرقة بين الاثنين .

فالأول هو ربيعة بن عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حطيط بن جشم ابن ثقيف(١) ، ويعرف بكنانة بن عبد ياليل ، وهو شاعر فارس ذكر له الآمدى فى المؤتلف قوله :

إن المنية بالفتيان ذاهبة ولو تقوها بأسياف وأدراع

بينا الفتى يبتغى من عيشه سددا

إذ حان يوما فنادى باسمه الداعى

---

(١) انظر هامش كتاب طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٦٠

لا تحمل الهم غلا لا انفراج له
ولا تكونن كوما ضيق الباع

ويعرف بابن الذئبة ، والذئبة أمه(١) .

وذكره المرزبانى ، وقال إنه كان يمدح النعمان بن المنذر ، ثم ذكر (كنانة) الثانى ، وقال : « وأمرهما مشكل لاتفاق الأسماء واختلاف النسب والله أعلم »(٢) .

أما الثانى ، وهو المعنى بحديثنا هنا فهو : كنانة بن عبد ياليل بن عمرو ابن عمير بن عوف بن عقدة الثقفى ، وهو ابن عم أبى محجن الثقفى الشاعر الإسلامى المشهور ، ولم يقتصر أمره على الخلط بينه وبين (كنانة) الآخر ، بل شهدت حياته اضطرابا آخر ، فقد ذكرت كتب السير والتاريخ أنه « كان من أشراف ثقيف الذين قدموا على رسول الله ﷺ ، بعد عوده من حصار الطائف ، وبعد قتلهم عروة بن مسعود فأسلم وفيهم عثمان ابن أبى العاص »(٣) .

وذكر بعضهم أنه قدم مع الوفد ، وأسلموا جميعا إلا كنانة ، وقد ترك الطائف ، واتجه إلى نجران ، ثم انتقل منها إلى بلاد الروم فمات فيها بعد السنة العاشرة من الهجرة كافراً ، وكأنه استعظم أن يسوده رجل من قريش وهو الرسول ﷺ (٤) .

---

(١) انظر المؤتلف والمختلف للآمدى (أول كتاب معجم الشعراء للمرزبانى) ص ١٢٠ نشر مكتبة القدس ، الطبعة الأولى .
(٢) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٥٣ .
(٣) أسد الغابه لابن الأثير جـ ٤ ص ٥٠٠ طبعة دار الشعب .
(٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٦ .

وأرجح أن يكون كنانة هذا قد أسلم مع وفد ثقيف ، لأن أكثر المؤرخين والرواة قد قالوا بذلك ، كما أن شعره القليل الذى نقل إلينا لا يحمل فى مضمونه خروجا على إجماع الوفد ، ثم إن أباه كان من بين هذا الوفد ، وقد أسلم أيضاً ، ثم عاد إلى ثقيف فأسلمت كلها .

وذكر ابن هشام (فى السيرة النبوية) وغيره مثل ابن كثير (فى البداية والنهاية) أن كنانة ذكر قومه ، وافتخر بهم أمام الرسول ﷺ فى معرض رده وإجابته لكعب بن مالك فى هذه الأبيات :

من كان يبغينا يريد قتالنا ... فإنا بدار معلم لا نريمها
وجدنا بها الآباء من قبل ما ترى ... وكانت لنا أطواؤها وكرومها
وقد جربتنا قبل عمرو بن عامر ... فأخبرها ذو رأيها وحليمها
وقد علمت إن قالت الحق أننا ... إذا ما أتت صعر الخدود نقيمها
لقومها حين يلين شريسها ... ويعرف للحق المبين ظلومها
علينا دلاص من تراث محرق ... كلون السماء زينتها نجومها
نرفعها عنا ببيض صوارم ... إذا جردت فى غمرة لا نشيمها(١)

وهكذا يتوافق كنانة بن عبد ياليل بن عمرو الثقفى مع شعراء الطائف فى افتخارهم بقبيلتهم (ثقيف) أكثر قبائل الطائف عدداً فى الجاهلية .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ٣٥٨ ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٣٤٦ .

وذكر الجمحي في كتابه الطبقات كنانة من بين شعراء الطائف، وإن لم يورد شيئاً من أخباره أو أشعاره .

ومن الشعر القليل الذى قاله كنانة ماذكره له أبوعبيد البكرى وفيه يفتخر بالطائف (أيضا) ويذكر فضلها ، قال :

كأن الله لم يؤثر علينـــا   غداة تجزأ الأرض اقتساما
عرفنا سهمنا فى الكف يهوى   لدى وج وقد قسم السهاما
فلما أن أبان لنا اصطفينا   سنام الأرض إن لنا سناما
أسافلها منازل كل حى   وأعلاها لنا بلداً حراما(١)

وقد امتد الفخر القبلى عند كنانة إلى دعوته للعطاء ومد الخير إلى الأقارب ، وخص منهم ذوى الأرحام ، قال :

صلاة وتسبيح وإعطاء نائل   وذو رحم تناله منك إصبع(٢)

وليس بين أيدينا ما يؤكد على تأصيل الشعر عند كنانة ، أو تجاوزه لهذه الأفكار التى قرأناها فى شعر نظرائه (الطائفيين) ويكفيه أننا ذكرناه فى عداد الشعراء المقلين .

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى جـ ١ ص ٧٨ .
(٢) الموازنة للآمدى جـ ٢ ص ١٦٥ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

ثالثاً — أبو الصلت الثقفى :

أبو الصلت بن ربيعة واحد من شعراء ثقيف فى الجاهلية ، وقد جاءت إليه الشهرة من ابنه (أمية بن أبى الصلت) رغم أن ما تحت أيدينا من شعر لأبى الصلت لا يجعل منه شاعراً فحلا رغم ارتباطه بالطائف وحديثه عنها وافتخاره بها .

وقد أورد له ياقوت نموذجا شعريا يصف فيه الطائف وهو قوله :

نحن المبنون فى وج على شرف
تلقى لنا شفعاً منه وأركانا
إنا لنحن نسوق العير آونة
بنسوة شعث يزجين ولدانا
وما وأدنا حذار الهول من ولد
فيها وقد وأدت أحياء عدنانا
وبانع من صنوف الكرم عنجدنا
منه ، ونعصره خلا ولذانا
قد دامت وأمست ماؤها غدق
يمشى معا أصلها والفرع أبانا
إلى خضارم مثل الليل متجنا
فوما وقضبا وزيتونا ورمانا
فيها كواكب مثلوج مناهلها
يشفى الغليل بها من كان صديانا
ومقربات صفون بين أرحلنا
تخالها بالكماة الصيد قضبانا(١)

وليس خافياً أن ما افتخر به أبو الصلت فى الطائف لا زال أكثره

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٦١ ، ص ٣٦٢ .

قائماً إلى اليوم مثل القلاع الحصينة والفواكه المتنوعة والمناهل العذبة — كما افتخر بأخلاق (الطائفيين) .

وروى ابن سلام وابن قتيبة فى كتابيهما قصيدة لأبى الصلت يمدح فيها سيف بن ذى يزن ، ويشيد بالفرس الذين ساعدوه على تحرير اليمن من نير الحبشة ، وقد نظمت هذه القصيدة عام ٥٧٣ م والرسول ابن عامين(١) وأورد ابن سلام من هذه القصيدة سبعة أبيات أولها :

لله درهم من عصبة خرجوا ما إن ترى لهم فى الناس أمثالا

وزاد عليها ابن قتيبة إلى أن بلغت اثنى عشر بيتاً ، وأولها عنده :

لن يطلب الوتر أمثال ابن ذى يزن
لجج فى البحر للأعداء أحوالا

ولم يقتصر رواية هذا الشعر على الكتابين المذكورين بل ورد فى كتب أخرى متعددة (٢) ثم رواها أبو الفرج على أنها لأمية بن أبى الصلت ، وليس لأبيه ، كما جاءت فى ديوان أمية وقيل إنها تروى لأبيه ، كما تروى لجده زمعة(٣) .

وقد وجد الدكتور طه حسين فى هذه القصيدة من حيث إشادتها بالفرس ، واختلاف الرواة حول نسبتها لأمية أو لأبيه أو لجده كما يقول الديوان — ما يخدم رؤيته حول الشعوبية والانتحال .

---

(١) انظر ما كتبه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى عن أمية بن أبى الصلت وأبيه فى كتاب (أشعار الشعراء الستة الجاهليين) ص ١٩١ .

(٢) مثل السيرة النبوية لابن هشام والحماسة للبحترى والأمالى الشجرى وغيرها .

(٣) ديوان أمية ص ٦٥

وأفاد بأن الموالى قد نهضوا بإنطاق بعض الشعراء شعراً فيه مدح للفرس وثناء عليهم وتقرب منهم، قال :

« وهم أنطقوا شاعرا من شعراء الطائف بأبيات رواها الثقات من الرواة على أنها صحيحة لاشك فيها، وهى أبيات تضاف إلى أبى الصلت ابن ربيعة، وهو أبو أمية بن أبى الصلت المعروف »(١).

وليس لنا من تعقيب على ما قاله طه حسين فإن قضيته أوسع من أن نتحدث عنها هنا، وإن كانت لنا كلمة، وهى أن القصيدة تشبه شعر أمية من نواح كثيرة، وأولها الصياغة اللفظية التى قرأنا ما يشابهها فى شعره، فضلا عن موضوعها الذى يقترب من توجهاته، إذ أنه قد زار اليمن، وتنقل بين ربوعه، وتعرف على مشكلاته وقضاياه.

---

(١) فى الأدب الجاهلى لطه حسين ص١٦٣ طبع دار المعارف.

الباب الرابع : من شعراء القبائل العربية

الفصل الأول : النابغة الزبيانى شاعر المدح والاعتزار

الفصل الثاني : عمرو بن كلثوم شاعر تغلب

الفصل الثالث : حرب البسوس ومأساة جليلة بنت مرة

الفصل الأول

النابغـة الذبيانـــى

شاعر المدح والاعتذار

النابغة الذبيانى شاعر جاهلى متميز، يُكْنَى أبا أُمامة وأبا ثمامة، وهما ابنتاه، واسمه زياد بن معاوية بن خباب، من أب وأم ذبيانيين، ولقب بالنابغة لنبوغه فى نظم الشعر، وتفوقه على أقرانه، وقيل لأنه لم يقل شعرا حتى صار رجلا، وفاجأ قومه بالنبوغ فى الشعر بعدما كبِر، وحمل هذا اللقب شعراء آخرون مثل النابغة الجعدى والنابغة الشيبانى، والنابغة التغلبى، وإذا ذكر الوصف مجردا انصرف إلى نابغة بنى ذبيان الذى كان واحدا من أربعة شعراء يمثلون الطبقة الأولى عند محمد بن سلام الجمحى، وهم النابغة وامرؤ القيس وزهيروالأعشى، كما أن أهل الحجاز كانوا يفضلونه – ومعه زهير – على سائر الشعراء، وأنه يقترب فى ذوقه من أوس بن حجر الذى كان على رأس مدرسة عبيد الشعر.

ولانستطيع أن نجزم بحقائق ثابتة عن المراحل الأولى من عمره، إذ كانت طبائع الحياة فى الصحراء لا تؤذن برصد الأحداث الخاصة بالناشئة والشباب، فلم يكن شاعرنامنبوذا كعنترة، ولا أميرا أو مليكا كامرئ القيس، ولا من الذين تولوا السيادة على أقوامهم قبل أن يشتهروابالشعر كعمرو بن كلثوم.

وقال مؤرخو الأدب إن هذا النابغة كان من أشراف قومه، ومن البيوتات ذوات الرفعة والوجاهة الاجتماعية المتميزة، كما كانت ذبيان فى نزاع طويل من اختها قبيلة عبْس، وسجل الشعر كثيرا من جوانب المأساة التى اشتملتهما فى حرب داحس والغبراء التى استمرت نحو أربعين عاما، وكان بنو أسد يحالفون

قبيلة ذبيان، وهما معا من أنصار المناذرة بالحيرة، ومن خصوم الغساسنة بالشام، ولهذا كان من الطبعى أن يلجأ النابغة إلى المنذر بن ماء السماء (بالحيرة) ثم يتركها فى عهد (عمرو بن هند)، ويعود إليها فى الشطر الثانى من حياته نازلا على النعمان بن المنذر حيث لزمه، وتغنى بأمجاده، وتكسب بمداحه فيه، وتفوق على الآخرين، الذين اقتربوا من النعمان من أمثال أوس بن حجر والمثقب العبدى ولبيد العامرى والمنخل اليشكرى وغيرهم.

ولم تستمر ملازمة النابغة للنعمان، فقد تركه وارتحل إلى الغساسنة. وإذا كان قد لجأ إلى المناذرة - بسبب ما بينهم وبين ذبيان من تحول وولاء، فلماذا ترك النعمان، وغادر الحيرة إلى جلق (حوران) نازلا بكنف عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج، بن الحارث الأكبر بن أبى شمر الغسانى، وأخيه النعمان بن الحارث.

قيل إنه ترك الحيرة بسبب قصيدة غزلية قالها فى زوجة النعمان بن المنذر (المتجردة) أو أنه طلب منه أن يصفها فى شعره، وأوغر المنخل اليشكرى صدر النعمان، وذكر له أن هذا الشعر لا يقوله إلا من جرّب فغضب الملك من شاعره الذى هرب منه إلى الغساسنة، ومن جانب آخر كان المنخل موضع اتهام بالمتجردة، فكأنه رغب فى دفع الظنون عنه فأحال الأمر إلى وشاية مدبرة بها إلى النعمان، وأحيل القارئ إلى رواية فى الأغانى تقول:

«إن الذى من أجله هرب النابغة من النعمان أنه كان والمنخل بن عبيد بن عامر اليشكرى جالسين عنده، وكان النعمان دميما أبرش[1] قبيح المنظر، وكان المنخل بن عبيد من أجمل العرب، وكان يرمى بالمتجردة زوجة النعمان،

(١) فى لون جسمه اختلاف كمرض البهاق.

ويتحدث العرب أن ابنى النعمان منها كانا من المنخل، فقال النعمان للنابغة: يا أبا أمامة، صف المتجردة فى شعرك، فقال قصيدته التى وصفها فيها ووصف بطنها وروادفها وفرجها فلحقت المنخل من ذلك غيرة، فقال للنعمان: ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جربه. فوقر ذلك فى نفس النعمان، وبلغ النابغة فخافه فهرب فصار فى غسان[1].

أما القصيدة التى قيل إنها سبب هذه النكبة فأولها:

أمن ال مية رائح أو مغتدي ... عجلان ذا زاد وغير مزود

أفد الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد[2]

زعم الغراب بأن رحلتنا غدا ... وبذاك خبرنا الغداف الأسود[3]

لا مرحبا بغد ولا أهلا به ... إن كان تفريق الأحبة في غد

وفيها:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها ... نظر السقيم إلى وجوه العود

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد[4]

بمخضب رخص كأن بنانه ... عنم يكاد من اللطافة يعقد[5]

وروى أن النابغة كان يقوى فى شعره والإقواء اختلاف حركة الروى ولم يقلع عن ذلك إلا بعد أن ذهب إلى يثرب، ونبهه أهلها بأن جعلوا قينة تغنى شعره ففطن، ولم يعد إليه.

---

(١) الأغانى جـ١١ ص ١٤ طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) أفد الترحل: دنا الرحيل، وكأن قد : أى قد زالت لقرب وقت زوالها.

(٣) الغداف: السابغ الريش.

(٤) النصيف: نصف خمار.

(٥) بمخضب: أى بمعصم مخضب، البنان: الأصابع المخضوبة، العنم: نوع من اشجر له نور أحمر وهو لين الأغصان والقصيدة فى الديوان ص٨٩.

وفى القصيدة غزل مكشوف لا يلائم النابغة، ولا يتصور أن يقوله فى زوجة ولى نعمته، وصاحب الفضل عليه.

وقيل إن السبب فى تركه للنعمان كان بسبب سعيه لإطلاق أسرى قبيلته عند الغساسنة فالحرص على مصالح ذبيان كان الدافع له فى وفوده على المناذرة أولا، ثم إلى الغساسنة بعد ذلك.

وكتب بروكلمان قائلا: «فى كتاب التظافر والتناصر خطبة مسجوعة للنابغة، خاطب بها الحارث الغسانى ليطلق أسارى قبيلته»[1] .

ونعتقد أن هذا التفسير الأخير هو الأقرب للقبول، فقد كان النابغة صوتا جهوريا لذبيان فى الحيرة وحوران وغيرهما، وأن التكسب بالشعر لا يتعارض فى توظيف الرجل لفنه وموهبته فى خدمة مصالح القبيلة.

وقال فى مدح عمرو بن الحارث الغسانى:

كليني لهم يا أميمة ناصبَ ... وليل أقاسيه بطيىء الكواكب[2]

تطاول حتى قلت ليس بمنقض ... وليس الذي يرعى النجوم بآيب(٣)

و صدر أراح الليل عازب همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب(٤)

---

(١) تاريخ الأدب العربى جـ١ ص٩٠.

(٢) كليني: دعيني، وكله يكله: تركه، ناصب: متعب، وقال يا أميمة بالفتح كأنه أجرى الكلمة مجرى الاسم المرخم، كما يقال فى ترخيم عزة يا عزَّ، وإن كان الأصح أن تنطق الكلمة مضمومة.

(٣) الذى يرعى النجوم: لا ينام.

(٤) العازب : الذى يبيت فى المرعى، والقصيدة فى الديوان ص٠٤.

والمطلع غزلى حزين يكشف عن معاناة الشاعر وهمومه، والقصيدة ذات أبعاد قبلية أو سياسية، وقال مما يعد تأكيدا للمدح بما يشبه الذم:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

تورثن من أزمان يوم حليمة ... إلى اليوم قد جربن كل التجارب[1]

وأشار إلى يوم حليمة الذى هزم فيه المناذرة هزيمة منكرة، وأسفرت رحلته إلى الغساسنة عن مجموعة من القصائد التى تستكمل بها الصورة الفنية لشعره.

وبقى النابغة فى الشام إلى أن توفى عمرو بن الحارث وأخوه النعمان، فعاد إلى المناذرة، وامتدح النعمان بن المنذر، واعتذر له واستعطفه، ونال عطاياه.

وقيل إن السبب فى رجوعه إلى الحيرة ما بلغه أن النعمان مريض لا يرجى شفاؤه، فعاد إليه، وامتدحه إلى أن توفى عام ٦٠٢هـ أو أنه أخذ أسيرا إلى فارس، ومات فى محبسه، وبقى النابغة مدة عاد بعدها إلى قبيلته، ومات فيها عام ٦٠٤هـ قبل أن تنتهى حرب داحس والغبراء فى عام ٦٠٨هـ.

شعـــره:

يحفل ديوان النابغة بالعديد من القصائد المتميزة التى تكشف عن نبوغه وتفوقه فى المديح والاعتذار، أما المديح الذى توجه بمعظمه إلى المناذرة، وببعضه إلى الغساسنة فسبب دفاعه عن قومه، وحرصه على تحقيق مصالحهم،

---

(١) تورثن : أى السيوف – الديوان ص٤٤، ص٤٥.

خاصة فى المرحلة التى كثرت فيها الحروب مع عبس، أو مع غيرها من القبائل، فضلا عن تكسبه بشعره.

ومن روائعه فى المدح والاعتذار قوله للنعمان بن المنذر:

أتاني - أبيت اللعن - إنك لمتني وتلك التي اهتم منها وانصب

وقال فيها:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث، أي الرجال المهذب

فإن أك مظلوما فعبد ظلمته وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب[1]

وتتميز مديحه واعتذاره بمتانة اللفظ وعمق المعنى، وترتيب الأفكار وحسن الديباجة والإفاضة فى المبالغة والخيال الواسع، والذوق الحضارى الذى اكتسبه بالحياة فى بلاط الملوك والأمراء إبان المرحلة الثانية من حياته التى نضجت فيها موهبته، وعرفه الناس شاعرا قديرا وناقدا بصيرا يحكم بين المتخاصمين من الشعراء فى عكاظ.

ونعتقد أن هموم النابغة بقضايا قبيلته كانت الباعث الأول له قبل الرغبة فى الكسب من مديح النعمان بخاصة، فقد سيطر الحزن عليه، وهو يقول له:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأي عنك واسع[2]

وللنابغة غزل تقليدى تابع فيه غيره ممن يقفون على ديار المحبوبة، ويبكون أطلالها، ولعل قصيدته فى المتجردة التى سبق الحديث عنها أفضل ما

---

(١) الديوان ص٧٢، ص٧٤.
(٢) الديوان ص٣٨.

يعبر عن موهبته فى الغزل بمية وأميمة وهند وسعاد وغيرهن، كما أن له شعرا فى الرثاء وفى وصف الحيوان.

وقال يهجو عامر بن الطفيل بأسلوب خال من الإسفاف والإقذاع يصغره فيه، ويفضل أباه وعمه عليه، ويعيره بالجهل:

فإن يك عامر قد قال جهلا | فإن مظنة الجهل الشباب(١)
فكن كأبيك أو كأبي براء | توافقك الحكومة والصواب(٢)
ولا تذهب بحلمك طاميات | من الخيلاء ليس لهن باب(٣)

وله مقطوعة توجه فيها بالحديث إلى حاجبه عصام بن شهبر (أو شهبرة) عندما علم بمرض النعمان بن المنذر، وهى من مرويات الأصمعى وذكرها الأغانى، وجاء فيها:

ألم أقسم عليك لتخبرني | أمحمول على النعش الهمام(٤)
فإني لا ألام على دخول | ولكن ما وراءك يا عصام
فإن يهلك أبو قابوس يهلك | ربيع الناس والشهر الحرام(٥)

ومن شعره الذى نسب إليه، وذكره ابن قتيبة وغيره قوله بعد انقطاع عن قول الشعر:

---

(١) يريد أن الشباب مقرون به الجهل.
(٢) أبو براء عامر بن مالك وهو عم عامر بن الطفيل، والحكومة: الحكم.
(٣) الديوان ص١٠٩.
(٤) الهمام: السيد الشريف وهو النعمان بن المنذر.
(٥) أبو قابوس: كنية النعمان – والأبيات فى الديوان ص١٠٥.

المرء يأمل أن يعيـ ... ـش وطول عيش قد يضره

تفنى بشاشته ويبقى ... بعد حلو العيش مره

وتخونه الأيام حتى ... لا يرى شيئا يسره

كم شامت بي إن هلكـ ... ـت، وقائل: لله دره[1]

وقوله:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرك في المقال بديع

لو كنت تصدق وده لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع[2]

ومن متفرقات شعره المنسوب له أو المنحول عليه قوله:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ... وتبقى مربض المستنفر الحامي[3]

أما ما يوجه إلى شعره من نقد فإنه كشأن الشعرالجاهلى كله من ناحية القول بالنحل أو الاضطراب أو الخضوع للتقليد.

المعلقة:

واحدة من القصائد العشر المشهورة فى العصر الجاهلى، وقد اختلف عدد أبياتها من رواية لأخرى، وقالها فى مدح النعمان بن المنذر واستعطافه والاعتذار له بسبب وشاية سعى بها بنو قريع فى أمرالمتجردة.

وقد عرضت لها فى كتاب (دراسات فى الشعر الجاهلى).

---

(١) من ملحقات الديوان ص٢٣٠، والشعر والشعراء ص ١٦٤.

(٢) من ملحقات الديوان ص ٢٣١.

(٣) الديوان طبع دار الكتب العلمية بيروت ص١٦٢.

الفصل الثاني

عمرو بن كلثوم
شاعر تغلب

كانت قبيلة تغلب تسكن الجزيرة الفراتية من أعالى (شمالى) الشام والعراق، وكان أهلها من أشد الناس فى الجاهلية حتى قالوا: «لو أبطأ الإسلام قليلا لأكلت بنو تغلب الناس»[1] .

ولا شك فى أن هذه القبيلة تمثل ثقلا لاعتدال ميزان القوى مع قبيلة بكر، إذ كان الصراع بينهما لا ينقطع مع ما بينهما من قرابة وجوار.

وتعد حرب البسوس بأيامها المتعددة الصورة الواضحة لبعض مظاهر الحياة القبلية فى العصر الجاهلى، وكانت كل قبيلة تفتخر وتشمخ بمن لديها من الشعراء الذين يتحدثون بلسان الجماعة، ويهتفون بشعرهم فى الفخر والحماسة وذكر الأمجاد وسلاسل الأنساب، وعراقة الأصول والدماء.

وتكشف نهاية القرن الخامس الميلادى - على وجه التقريب - عن ظهور طفل تلمس فيه التغلبيون مخايل النجابة منذ باكورة حياته وهو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتَّاب بن سعد بن زهير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنْم بن تغلب بن وائل»[2] .

---

(١) شرح القصائد العشر - للتبريزى ص ٢٥٢.

(٢) السابق ص ٢٥٢ وانظر: جمهرة أشعار العرب للقرشى - ص٢٧٢ طبعة دار نهضة مصر.

ولم يكن لوالده (كلثوم بن مالك) تأثير متميز على سطح الحياة الاجتماعية سوى أنه واحد من التغلبيين الذين يعتزون بالعيش فى ديار الأهل بجزيرة الفرات وأنه متزوج من ليلى بنت مهلهل بن ربيعة من بنى جشم بن بكر بن تغلب.

وهكذا تبرز الأصول النجيبة لعمرو بن كلثوم من جهة أبيه وأمه، وتسيطر على نشأته الثقة بالنفس، ومعايشة الصراع القبلى، والتدثر بالعزة والكرامة والمران على الفروسية، وتعلم فنون الحرب.

وتتواصل الروايات التى لا تخلو من مبالغات عن شخصية عمرو، فقيل إنه تولى السيادة على قومه وهو ابن خمس عشرة سنة، وقيل إنه عمرّ طويلا، ومات نحو سنة أربعين قبل الهجرة (٥٨٤م) وقد بلغ مائة وخمسين عاما.

أما الجوانب الاجتماعية من حياته فلم تسعفنا الروايات بشىء ذى بال عنها، غير أن أبا الفرج قد ذكر - فيما ذكر - ابنا لعمرو يقال له عباد، فقال صاحب الأغانى: «وهو قاتل بشر بن عمرو بن عدس، ولعمرو بن كلثوم عقب باق، ومنهم كلثوم بن عمرو العتابى الشاعر صاحب الرسائل»[1] .

كما أن أخاه (مرة بن كلثوم) كان فارسافاتكا وهو قاتل المنذر بن النعمان ابن المنذر.

وترتبط سيادة عمرو بن كلثوم عى قومه، وفروسيته واعتزازه بنفسه، بملك الحيرة عمرو بن هند، فقد كان ابن كلثوم يرى نفسه وقومه لا يقلون عن

(١) الأغانى جـ١١ ص٥٥ طبعة دار الكتب المصرية.

هذا الرجل الذى تدخل بالصلح بين (بكر) ومنها شاعرهم (الحارث بن حلزة) و(تغلب) ومنها (عمرو بن كلثوم).

وتذكر الروايات أن ابن هند مال فى صلحه إلى جانب (تغلب) منحرفا عن (بكر) لكن ظواهر الأحداث تشير إلى اتهامه بمعاداة تغلب، وهكذا الشأن مع كثير من المصلحين الذين يسعون إلى التوفيق بين المتخاصمين فينالون مزيدا من الغضب وعدم الرضامن كلا الفريقين.

وقد تمخضت جلسات الصلح التى عقدها ابن هند لبكر وتغلب عن إنشاد ابن حلزة لمعلقته، وإنشاد عمرو بن كلثوم لمعلقته أو للكثير من أبياتها ولم تقتصر مرويات القدماء على ما سبق بشأن العلاقة بين ابن هند وابن كلثوم، قد أضافت بعض الأخبار أن الثانى قتل الأول فى أحداث عنيفة لاتتجاوز الشك إلى اليقين عند الدكتور طه حسين الذى جعلها مجموعة من الأساطير.

ويذكر أبو الفرج الأصفهانى فيما يذهب بسنده إلى ابن قتيبة:

«أن عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمُّه من خدمة أمى؟ فقالوا: نعم! أم عمرو بن كلثوم. قال: ولمَ؟ قالوا: لأن أباها مهلهلٌ بن ربيعة، وعمها كليب وائل أعزُّ العرب وبعلُها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو وهو سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه أمه. فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة فى جماعة بنى تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل فى ظُعُن من بنى تغلب. وأمر عمرو بن هند برواقه فضُرب فيما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل

مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب. فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق. وكانت هند عمة امرئ القيس بن حجر الشاعر، وكانت أم ليلى بنت مهلهل بنت أخي فاطمة بنت ربيعة التي هي أم امرئ القيس، وبينهما هذا النسب.

وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحّى الخدم إذا دعا بالطرف[1] وتستخدم ليلى. فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالطرف. فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق. فقالت ليلى: لتقمْ صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادت عليها وألحت. فصاحت ليلى: واذلاه! يالتغلب! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه، ونظر إليه عمرو بن هند فعرف الشرّ في وجهه، فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند معلّق بالرواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، فانتهبوا ما في الرّواق، وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة. ففي ذلك يقول عمرو بن كلثوم

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

وكان قام بها خطيبا بسوق عكاظ، وقام بها في موسم مكة،[2] .

وهكذا تتضارب الروايات فيما تذكره عن إنشاد عمرو لمعلقته، ولربما هتف الشاعر ببعضها في أعقاب جلسة الصلح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس وهتف بالباقي بعد قتله لعمرو بن هند.

---

(١) الطرُف: جمع طرُفة وهي كل شيء مستحدث عجيب (مثل التحفة).
(٢) الأغاني جـ١١ ص٥٣، ص٥٤.

شعر عمرو بن كلثوم:

عمرو بن كلثوم شاعر مطبوع، وأشعاره قليلة، وهى عبارة عن المعلقة التى قيل إنها كانت ألف بيت، فإن صح ذلك كان ما وصلنا لا يتجاوز العُشْر منها، ولكن هذه الأقوال تفتقر إلى ما يرجحها، ويقوى من مصداقيتها.

ويضاف إلى محصول شعره – فضلا عن المعلقة – بعض المقطوعات المتناثرة التى لا تخرج عن موضوعها، ولا ترقى إلى منزلتها، فقد شغل بنو تغلب بالمعلقة بما لم تُشْغل به قبيلة بقصيدة حتى قال بعض شعراء بكر بن وائل.

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبدا قد كان أولهم ... يا للرجال لشعر غير مشئوم[1]

وقد جُعل ابن كلثوم من الطبقة الأولى لشعراء الجاهلية فى ميزان (طبقات الشعراء) لاسكندر ايكاريوس[2] .

بينما وضعه ابن سلام الجمحى (فى الطبقة السادسة)، وهو عند الكثيرين واحد من كبار الشعراء الجاهليين.

ومن شعره الذى يفتخر فيه، ويتوجه به إلى عمرو بن أبى حُجْر الغسانى:

---

(١) الأغانى ص ٥٤.
(٢) انظر تاريخ آداب اللغة العربية – جرجى زيدان جـ١ ص٦٩.

ألا فاعلم أبيت اللعن أنا	على عمد سنأتي ما نريد
تعلم أن محملنا ثقيل	وأن زناد كبتنا شديد
وأنا ليس حي من معد	يوازينا إذا لبس الحديد[(1)]

وقبل أن نغلق باب التعريف بعمرو وشعره يحسن أن نقدم بعضا من نثره الذى تتضح فيه موهبته وحكمته وتجربته، وترتبط روايته برجل من النمر بن قاسط مما رواه صاحب الأغانى، فذكر أنه:

«لما حضرت عمرو بن كلثوم[(2)] وقد أتت عليه خمسون ومائة سنة، جمع بنيه فقال: يا بنيّ، قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحد من آبائى، ولابد أن ينزل بى ما نزل بهم من الموت. وإنى والله ما عيّرت أحداً بشىء إلا عُيّرت بمثله، إن كان حقا فحقاً، وإن كان باطلا فباطلاً. ومن سَبّ سُبّ، فكفوا عن الشتم فإنه أسلم لكم، وأحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم، وامنعوا من ضيم الغريب، فرب رجل خيرٌ من ألف، وردّ خيرٌ من خُلْف. وإذا حدّثتم فعُوا، وإذا حدّثتم فأوجزوا، فإن مع الإكثار تكون الأهْذَار. وأشجع القوم العَطوفُ بعد الكر، كما أن أكرم المنايا القتل. ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب، ولا مَنْ إذا عُوتب لم يُعْتب، ومن الناس من لا يُرْجَى خَيْرُهُ، ولايُخَاف شرُّه، فبكؤه[(3)] خير من درِّه، وعقوقه خير من برِّه. ولا تتزوجوا فى حيكم فإنه يؤدى إلى قبيح البُغْض»[(4)].

أما المعلقة فلا تتفق الروايات على الكثير من أبياتها، بل لم تتفق أصلا فى عدد أبياتها مما يرجح القول بنفى التعليق على أستار الكعبة.

---

(١) الأغانى جـ١١ ص٥٨، وكتبنا: حملتنا فى الحرب ودفعتنا فى القتال.

(٢) أى الوفاة.

(٣) بكؤه: انقطاع لبنه.

(٤) الأغانى جـ١١ ص٥٩، ٦٠.

فالقصيدة فى جمهرة أشعار العرب مائة وخمسة عشر بيتا، وإن ذكرت ستة أبيات أخرى إضافة إلى العدد المذكور، وجاءت عند الزوزنى مائة وثلاثة أبيات، بينما وصل التبريزى بها إلى ستة وتسعين بيتا وتدور حول الحماسة والفخر وهما مناط القول فيها، كما يخاطب ابن كلثوم عمرو بن هند، وبنى بكروغيرهم، ويبدؤها بالخمر على غير ما كان يصنع الشعراء الجاهليون.

قـــال:

ألا هبى بصحنك فاصبحينا	ولا تبقى خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها	إذا ما الماء خالطها سخينا

الفصل الثالث

حـــــرب البســـــوس
ومأساة جليلة بنت مرة

ارتبطت حياة جليلة بنت مُرَّةَ بن ذُهْل بن شيبان بالمآسى والأحزان فى حرب البسوس التى استمرت قرابة أربعين سنة بين بكر وتغلب ابنى وائل بن ربيعة، وأريقت فيها دماء كثيرة من بنى شيبان وهم قوم جليلة وأخيها جسّاس بن مُرّة (وبنو شيبان بطن من بكر) وكليب والمهلهل بن ربيعة من بنى جشم وهم بطن من تغلب.

وجليلة شاعرة جاهلية فصيحة ليس لها شأن كبير فى ميزان الأدب الجاهلى الذى وضعت فيه بقصيدتها التى سنعرض لها، والتى تفجرت فيها أحزانها بأسباب لا تعود إليها.

وكان لوالدها (مرة بن ذُهْل) عشرة من البنين منهم همّام ونَضْلة، وجسّاس وهذا الأخير أصغرهم، وتزوجت من كليب والذى كان اسمه (وائلا) وعرف بلقبه (كليب) إذ كان عنده جرْو كلب يرمى به، فحيث بلغ عواؤه كان حمى له لا يرعى فيه أحد، وجاء فى المثل الذى يشهد بعزة هذا الرجل: «أعز من كليب وائل»، والتصق به كليب، ولم يعُد يعرف إلا به، وتذكر الروايات أن كليبا كان يفتخر بعزته ويباهى بقوته أمام جليلة؛ حتى لا تقرن به أخويها هماما وجساسا، وأنه قد بغى بغيا شديدا، وتجاوز بعنفه حدود الاحتمال، وفرض نفوذه على قومه، فلم يكونوا يقيمون أو يرحلون إلا بأمره وسلطانه.

ونزلت على جسّاس خالته وكانت تسمى (البسوس بنت منقذ التميمية) والتى ضُرب بها المثل فى الشؤم فقيل: «أشأم من البسوس». وكان معها ناقة خوارة (رقيقة حسنة) تسمى (سراب) وكانت ترعى مع إبل جساس فى حى كليب، الذى أنكرها، وغضب من وجودها على عادة الجاهليين، فرماها بسهم أو قوس فى ضرعها، وهامت حتى وصلت إلى البسوس (صاحبتها) والتى صاحت قائلة: واذلاه!، كما تمادى كليب فعير بنى شيبان بعجزهم عن حماية من يلجأ إليهم، وضعفهم أمام قومه بنى جُشم، وهاج جساس، وأخذته العزة وركبه الغرور فتربص لكليب، وطعنه برمح أودى بحياته وقضى عليه.

وحزن عليه أخوه المهلهل بن ربيعة، وتوعّد البكريين، فقال:

يالبكر انشروا لى كليبا ... يا لبكرٍ أينَ أينَ الفرارُ؟

يا لبكر فاظعنوا أو فحلّلوا ... صرّح الشرُّ وبانَ السّرارُ[1]

ووقف على قبره يرثيه، فقال:

أهاج قذاة عينىَ الادّكارُ ... هدوءا فالدموع لها انحدار

وصار الليل مشتملا علينا ... كأن الليل ليس له نهارُ

وبتُ أراقب الجوزاء حتى ... تقارب من أوائلها انحدارُ

أصرّف مقلتىّ فى إثر قومٍ ... تباينت البلاد بهم فغارُوا[2]

---

(١) الأغانى جـ٥ ص٥٩.

(٢) الادكار: التذكر، هدوءا: من هدأة الليل، ووقع الشاعر فى عيب بالقافية يسمى (الإيطاء) حيث كرر كلمة انحدار بين أقل من سبعة أبيات. وغاروا: اختفوا (الأبيات فى أيام العرب ص١٥١).

والمهلهل بن ربيعة بن الحارث بن زهير من تغلب، قال أبو الفرج فيما يرويه عن يعقوب بن السكيت:

«وإنما لُقب مهلهلاً لطيب شعره ورقته، وكان أحد من غَنَّى من العرب في شعره، وقيل: إنه أول من قصَّد القصائد، وقال الغزل، فقيل: قد هلهل الشعر أي أرقَّه. وهو أول من كذب في شعره وهو خال امرئ القيس بن حُجْر الكندي. وكان فيه خُنْث ولين، وكان كثير المحادثة للنساء، فكان كليب يسميه «زير النساء»[1] واشتعلت الحرب بين الحيين بكر وتغلب في العديد من الأيام التي أريقت فيها دماء كثيرة من قبيلة ربيعة.

مأساة جليلة بنت مُرَّة:

يروى أن جليلة بنت مرة انطلقت إلى بيت أبيها - بعد مقتل زوجها - ولما بلغها ما قالته أخت كليب، ردت عليها وأنشأت قصيدتها التي سنعرض لها، وكانت حاملا من زوجها، ووضعت ابنا لها يُسمىّ الهَجْرِس، وتربى في بيت خاله جساس، ولم يعرف أبا له غيره، وتزوج من ابنة خاله فلما عرف حقيقة ما جرى انتقم لوالده من خاله، ويقال إن جليلة قد تنقلت مع بني شيبان مدة حروبهم إلى أن توفيت عام ثمان وثلاثين وخمسمائة.

ويقال أيضاً عن جساس إن أعداءه قد جرحوه عند سفره إلى الشام ومات في إثر جرحه سنة أربع وثلاثين وخمسمائة.

أما هذه الأبيات التي بكت فيها بنت مرة على مأساتها فلا شك في أنها تصوير حي ومؤلم لبعض الجوانب من حياة المرأة في الجاهلية

---

(١) الأغاني جـ٥ ص٥٧.

حيث كانت تكتوى بنيران الحروب والصراعات حول مواضع الكلأ والماء بالجزيرة العربية.

ويقال إن جليلة قد انتظرت؛ لتشهد مأتم زوجها، ثم أخرجت منه فى الرواية التى ذكرها أبو الفرج فى الأغانى إذ نقل ما يأتى:

«لما قتل جسّاس بن مرة كليب بن ربيعة، وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب، اجتمع نساء الحى للمأتم، فقلن لأخت كليب: رحّلى جليلة عن مأتمك، فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب؛ فقالت لها: يا هذه أخرُجى عن مأتمنا فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا، فخرجت وهى تجرُّ أعطافها، فلقيها أبوها مُرّه، فقال لها: ما وراءك يا جليلة؟

قالت: ثُكْل العدد، وحزن الأبد، وفقد حليل، وقتل أخ عن قليل، وبين ذين غرسُ الأحقاد، وتفتت الأكباد. فقال لها: أوَ يكفُّ ذلك كرم الصفح وإغلاءُ الدّيات؟

فقالت جليلة: أمنية مخدوع ورب الكعبة! أبا لبُدْن تدع لك تغلب دم ربِّها؟

قال[1] : ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب:

رحلة المعتدى وفراق الشامت، ويلٌ غدا لآل مرة من الكرّة بعد الكرّة،

فبلغ قولها جليلة، قالت:

وكيف تَشْمَتُ الحرة بهتك سِتْرها وترقب وِتْرِها! أسعد الله جدّ أختى أفلا قالت: نفْرة الحياء وخوف الاعتداء، ثم أنشأت تقول...»[2] .

---

(١) راوى الخبر وهو الشرقى بن القُطَامى

(٢) الأغانى جـ٥ ص٦٢، ص٦٣.

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا ... تعجلى باللوم حتى تسألى

فإذا أنت تبينت الذى ... يوجب اللوم فلومى واعذلى

إن تكن أخت امرئ ليمت على ... شفق منه عليه فافعلى [1]

---

(١) تراجع القصيدة فى المصدر السابق جـ٥ ص٦٣، وفى غيره.

النثر الجاهلي

النثر فى العصر الجاهلى

النثر: هو الكلام الذى لا يرتبط بوزن ولا قافية، وهو الأصل فى معاملات الناس، وقد حفظ التاريخ منه الكثير من خلال الكتابة التى عرفها العرب فى نطاقات ضيقة، وتجلت فى كثير من العهود والأحلاف والمواثيق، وكان النثر بهذه الصورة متداولا على الألسنة ومحفورا فى الذاكرة، ومسجلا بالكتابة والتدوين على الوسائل المألوفة عند القدماء •

والنثر — بصورة عامة — ينقسم إلى ضربين من الكتابة والقول، أولهما النثر (العادى) المرسل الذى لا يخضع لاعتبارات فنية، وليست له أغراض أدبية وهو غير متداخل فى حوارات القدماء والمحدثين عن صحته وسلامته وعن وضعه وانتحاله، وإذا ما وجدت فيه إشارات عرضية مؤثرة ، فهى ساذجة ترتبط بطبائع العصر والحياة أكثر من ارتباطها بالفن الأدبى الذى يثرى الخيال ، ويخلب الألباب، ويستحوذ على مجامع القلوب•

أما الجانب الثانى من النثر فهو المصاغ بطريقة جميلة فى قوالب فنية، تختلف من شخص لآخر، وهو اللون الذى يعنى به مؤرخو الأدب، كما أنه أقدم نشأة من الشعر؛ ذلك لأن الشعر يخضع لقيود الوزن والقافية، وتتجلى فيه الملامح البلاغية على اختلاف مستوياتها بين الطبع الصادق، والصنعة المتكلفة، كما أن الموهبة الشعرية لا تمنح لكل واحد، علما بأن التوسع فى بحث المسائل الفارقة بين تاريخ النثر الفنى وتاريخ الشعر ليس مهما ومجديا فى مسيرة الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى •

وإذا كان الشك قد تطرق إلى الشعر الجاهلى، وتحدث القدماء عن ذلك، فإن تطرقه إلى النثر الفنى أكبر وأكثر، فقد تناقل الرواة الشعر، وحرصوا على حفظه وروايته، حتى وصلوا به إلى مرحلة التدوين والشرح، وإنشاده فى المحافل القبلية ، والأسواق الأدبية.

أما النثر الأدبى فلم يوجد له ما وجد للشعر من العناية والرعاية والحفظ، فضاع معظمه، خاصة ما نقل عن اليمنيين (أهل الجنوب)، وتطرق الشك القوى إلى القدر القليل الذى تناقلته الأجيال، كما أن جزءا بسيطا من هذا الفن يمكن أن يتخذ كنماذج فقط للاستدلال بها على بعض الجوانب فى الحياة،خاصة النواحى الدينية التى يسعى الباحثون إلى التعرف عليها من مصادرها اليقينية.

وقد وجد عند العرب ألوان كثيرة من النثر باختلاف درجاته مثل القصص والخطابة والأمثال والحكم والوصايا وسجع الكهان، وكانت قصصهم تدور حول ملوكهم وملوك الأمم المجاورة ، وتتناول أيامهم وحروبهم، وما حدث فيها من انتصارات وهزائم، ومع القناعة بحدوث النحل فى هذا اللون مثل الشعر، وعدم الاستسلام والرضا بإشادة الكثيرين بهذا التراث، خاصة القصص ذات السجع البادى التكلف، فإن هذه الفضلات أو الشذرات التى تطول وتقصر أفادت الأدب أيما إفادة؛ لأنه بلا شك بها قدر ضئيل يمكن أن يكون نواة مخصبة لدوحة هذا الفن فى القرون التالية.

وقد كثر القول قديما وحديثا عن النثر الأدبى فى العصر الجاهلى من حيث صحته وكذبه، أو إثباته ونفيه، ولسنا بصدد تكرار ما قاله ابن

سلام الجمحى عن الأدب الجاهلى عامة، استشعارا برغبة الجـاهليين فى الأدب ، وشدة تعلقهم به ، إذ أن بعض الشعراء آنذاك كانوا ألسـنة محللة، أو أدوات مؤرخة لكثير من القبائل، وهؤلاء فى حاجـة ماسـة لمن يتغنى بأمجادهم، ويرفع شأنهم فى المحافل الأدبية علـى مسـتوى التجمع القبلى أو الإقليمى، وبخاصة فى الأسواق العربية المشـهورة، كما أن بعض الرواة وكذلك بعض الشعراء ــ يرغبون فى التكسـب عن طريق نحل الأدب ، وعدم تحرى الدقة فى نسبة الكلام لصاحبه أو تعظيم ــ القبائل بمدح رجالها، والإشادة بانتصاراتها، وهكذا كان حـظ الشعر فى الحياة الجاهلية •

أما النثر ، فصعب الحفظ والنقل والرواية، وكـان حظـه مـن التدوين ضئيلا أو منعدما، بينما نقل ما بقى منه عن طريق الرواة الذين يختلفون فى أشياء كثيرة •

وبين أيدينا من كتابات العصر الحديث ثلاثة توجهات عن قضـية النثر الأدبى بين الصحة والوضع، والفنون التى ظهرت للقراء فى هذا اللون، وبيان مدى علاقتها بالأدب الجاهلى وجاء عرضها فى مجموعة من الكتب منها :

١ـ الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين :

أ – ذكر عميد الأدب العربى فى كتابه المذكور اللونين الثـابتين من النثر الذى يأتى الأول منهما فى تعامل الناس، ولا يمثـل أهميـة لمؤرخ العصر ، بينما يأتى الثانى فى عداد الأدب، ويدخل فى نطـاق الفن مع أن الاثنين لا يخضعان لوزن ولا قافية، وذكر أن النثر الأدبى

بهذه الصورة أحدث عهدا من الشعر وهذه المسألة موضع نقاش طويل وخلاف واسع، وهى كذلك لا تعنينا هنا كثيرا، ولا نتجاوز فيها حدود البيان لرؤية الدكتور طه حسين فى هذا الموضوع، وقد بسط رؤيته عن النثر فى كتابه المذكور، فقال : "فأما النثر فهو لغة العقل، ومظهر من مظاهر التفكير، تأثير الإرادة فيه أعظم من تأثيرها فى الشعر، وتأثير الروية فيه أعظم من تأثيرها فى الشعر أيضا، فليس غريبا أن يتأخر ظهوره، وأن يقترن بظواهر أخرى طبيعية واجتماعية لا يحتاج إليها الشعر، أو ظهر فيها النثر مع ظهور الشعر، وإنما الذى نعرفه فى تاريخ الآداب عامة أن الأمم تأخذ بحظها من الشعر قبل كل شىء ، وتنفق من حياتها عصورا طوالا يتطور فيها الشعر ويستحيل وهى تجهل النثر جهلا تاما"[1] أى أن النثر الأدبى متأخر عن الشعر، وهذا الكلام ـــ مع أنه لا علاقة له بدراسة النص ـــ قد تحدث الناس فيه، ورأى الكثيرون خلاف ما قاله طه حسين ، لأن طبائع الأشياء تقتضى أن يكون الكلام الذى لا يخضع لأنظمة مستقرة فى الوزن والقافية هو السهل اليسير الذى يقتصر على بعض الأمور، التى تزيد وتنقص حسب قدرة الأديب ومعطياته باستثناء أمر كالسجع الذى يكاد تنتهى به نصوص النثر قبل ولادة الشعر، وتطورت الجمل المسجوعة إلى بحر شعرى وليد هو الرجز، ثم تكاثرت البحور إلى أن وصلت إلى ما آلت إليه فى مراحل تالية، وبقى الرجز مستقلا عن البحور الأخرى إلى أن صارت كلها منظومة ثابتة.

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص٣٢٦ .

ب – وبالنسبة لموقفه من النثر الفنى فى العصر الجاهلى، فقد رفض بدون تردد كل ما يضاف إلى عرب الجنوب قبل الإسلام؛ لأنه روى بلغة قريش التى لم يكن لهم بها علم، فيجب ألا يكون صحيحا.

وبالنسبة لعرب الشمال فقد رفض أكثر شعرهم، وخاصة ما نشأ فى عصر متأخر جدا كشعر الأعشى.

ونفس الموقف مما يضاف إلى ربيعة وغيرها من عرب العراق والبحرين والجزيرة، فقد رفض ما أضيف إليهم من شعر، والنثر من باب أولى.

وذكر أنه إذا صح التسليم بأن المضريين قالوا الشعر على بداوتهم وضعف حظهم من الحضارة حين تحضروا قبل الإسلام، فإن من الحق التردد فيما يضاف إليهم من النثر، ولكنه تجاوز مرحلة التردد إلى الرفض التام لما أضيف إليهم من نثر قبل الإسلام، وإن قبل بعض ما أضيف إليهم من شعر، ذلك لأن نثر مضر لم يصل إلى العصور التالية بطريقة علمية قاطعة.

ولكن تتجلى لنا إشكالية فى البحث والرؤية، وتثير فينا شيئا من الحيرة والاضطراب فكيف يثبت لمضر نثرا بلغ حدا من الرقى لا بأس به، ولكن لم يصل إلينا منه شىء بطريقة علمية قاطعة أو مرجحة[1].

وفى مبحث عميد الأدب الحديث عن النثر الجاهلى خطاب للقارئ قال فيه : "ستقول وهذه الخطب التى تضاف إلى وفود العرب عند كسرى، وهذا السجع الذى يضاف إلى الكهان، وهذا الكلام الذى

---

(١) انظر السابق صـ٣٢٩.

يضاف إلى قس بن ساعدة، وهذه الحكم والوصايا التى تضاف إلى حكمائهم وعظمائهم ماذا تصنع بها؟ فنجيب: نرفضها من غير تردد؛ لأنك تستطيع أن تقرأها، وتنظر فيها لتردها كلها إلى العصور الإسلامية الى نحلت منها"[١].

وأنا أرضى بالشك الكبير الذى بوجهه طه حسين إلى النثر الجاهلى وأتفهم حججه فى ذلك، خاصة ما نسب إلى الجنوبيين، لكنى لا أرضى أن يسلخ العصر الجاهلى من عطاءاته النثرية خاصة ما كانت أدواته الفنية وثيقة الصلة برواد النثر المشهورين آنذاك، وجاءت معالجاته تعبيرا عن العصر والحياة، ومن هنا لا بديل عن قبول بعض ما أضيف إليهم، حتى لو كان عن طريق الرواية، إذ لم يتوفر لهم حظ من تدوين الأدب، واستعمال الكتابة بطريقة واسعة فى هذا الشأن وكيف نصنع بنص ذائع مشهور وهو خطبة قس التى ذكرها الرسول مع صاحبها بروايتين مختلفتين وهل النثر المنحول أسهم فى شيء ما، أو صنع شيئا ما قال: "وكل ما يمكننا أن نستخلصه من هذا النثر الذى يضاف إلى الجاهليين إنما هو شيء واحد ، وهو أنه من الممكن أن يكون هذا النثر قد حاول قليلا أو كثيرا تقليد ما كان للعرب فى جاهليتهم من نثر، فحفظ لنا صورة ما من هذا النثر الجاهلى دون أن يحفظ لنا نصا من نصوصه"[٢].

---

(١) السابق صـ٣٣٠ .
(٢) السابق صـ٣٣٠ .

وقال فى كتابه الذى بين أيدينا عن قضية النثر كلاما لا يختلف عما سبق، وربما جاءت بعده أحاديث متشعبة عن كلّ لون أو غرض من أغراض النثر، مع اختلافها عن بعضها ما يجعل بحثه بمثابة تأكيد وتمسك برؤية لا يحيد عنها، قال : "ولو قد وصلت إلينا طائفة مكتوبة من هذا النثر لاستطعنا أن نقيم تاريخ النثر العربى على أساس متين، وأن نعرف كيف استطاع العرب أن يتحللوا من قيود الشعر، وإلى أى حد وصلوا من هذا التحلل، وكيف تطور نثرهم حتى انتهى إلى حيث نراه أيام بنى أمية وبنى العباس ، ولكن شيئا من هذه النصوص لم يصل إلينا،والذين يريدون أن يدرسوا تاريخ النثر العربى الصحيح مضطرون إلى أن يردوه لا إلى نثر جاهلى بل إلى القرآن وحده، فنحن نعلم إلى أى حد بُعْد التأثير الأدبى للقرآن فى نفوس العرب، حتى أصبح المثل الأعلى الذى يحتذيه الكاتب والمحاور والخطيب والشاعر أيضا"(١).

وأكد رفضه لما نسب إلى الجاهليين من نثر فى حديثه عن الأمثال والخطابة، وما روى منها لا قيمة له ولا غناء فيه ٠

٢ - الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف

جعل الدكتور شوقى ضيف كلامه عن النثر الأدبى فى أدب ما قبل الإسلام خاضعا لمعيار الصنعة، وهى قضية محكومة بمعيار النص القديم الذى يتجه شكلا ومضمونا بصورة مألوفة إلى الطبع والسليقة

---

(١) السابق صـ٣٣٠ ٠

أكثر من توجهه إلى الصنعة، ولذلك جاء هذا الموضوع بعنوان الصنعة فى النثر الجاهلى.

وإذا نحينا الحديث عن النثر العادى جانبا، وجدنا كلامه عن النثر الأدبى مقسما بين الرؤية والحكم على التاريخ و(بين) التطبيق على النص القديم، والتمثيل بالنموذج الأدبى المختار في شكله القديم، قال:

"وأما الضرب الثانى (يقصد الأدبى) فهو النثر الذى يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وهذا الضرب الذى يعنى النقاد فى اللغات المختلفة ببحثه ودرسه، وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يمتاز به فى كل طور من صفات وخصائص، وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين هما الخطابة والكتابة الفنية – ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفنى – وهى تشمل القصص المكتوب، كما تشمل الرسائل الأدبية المحبرة. وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة"[1].

وهذا الكلام السابق لا يحتاج إلى مراجعة وتعليق؛ لأنه من الأمور التاريخية التى يكاد الأدباء والمؤرخون يتفقون عليها، ولا يختلفون فيها، لكن شغف العرب برواية القصص وحوادث التاريخ، لا يجعل من هذه النصوص صورا تعبيرية عن النثر الجاهلى ؛ لأنها لم تكتب فى هذا العصر ، وإنما كتبت فى العصر العباسى .

ورأى ان العرب الذين عرفوا الكتابة فى الجاهلية لم يستخدموها في تدوين النص الأدبى، وإنما استعانوا بها فى أغراض غير أدبية.

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٠ (دار المعارف بمصر) .

إذن لقد سار الدكتور شوقى — فى بداية بحثه عن تاريخ النص الأدبى القديم — مزايدا من الخطوات فى طريق الدكتور طه، الذى مهده لرفض النثر الجاهلى؛ لأنه مكتوب فى مراحل تالية، ولا يعبر عن العصر الذى نسب إليه.

وهذه المرئيات من الدكتور شوقى مدونة فى كتابه الذى بين أيدينا، ولا تحمل فى طياتها سوى ما ذكرنا فى مسوغات حكمه، وإيضاح مذهبه ، قال: "وإذن فالعرب استخدموا الكتابة فى العصر الجاهلى لأغراض سياسية وتجارية، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه وُجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنية. ومن المؤكد أن الكتابة لم تكن حينئذ تؤدى بجانب أغراضها السياسية والتجارية أغراضا أدبية أو فنية من تجويد وتحبير، إذ لم تكن أكثر من كتابة ساذجة أدت أغراضا خاصة فى عصرها، وانتهت بانتهاء الغرض[1].

أما الوثائق التى يعتمد عليها فى وجود الكتابة الفنية فى هذا العصر، فهى منعدمة تماما عند الدكتور طه حسين وغير موجودة إلا فى الأمثال، حسب عبارة الدكتور شوقى ضيف، وتلك مسألة شائكة لم تسلم من الخلاف، ولم يصل الأدباء والمؤرخون وعلماء الآثار فيها إلى رأى قاطع، وهذه مقولة الدكتور ضيف فى كتابه .

"ومما لا شك فيه أنه لا يوجد تحت أيدينا وثائق نستطيع أن ندعى بها أن الجاهليين عرفوا الكتابة الفنية، إنما الذى نستطيع أن ندعيه لهم

(١) السابق صـ١٩ .

خقا — عن طريق الوثائق الصحيحة — هو الأمثال فقد أكثروا من ضربها ، وهناك كتب مشهورة ، تتخصص ببحثها، وبجانب الأمثال نعرف أنه كان لهم حقا خطابة وخطب كثيرة، وقد أخذت الخطابة عندهم صورتين: صورة اجتماعية عامة فى منافراتهم ومفاخراتهم ومجامعهم وأسواقهم وحروبهم، وصورة خاصة فى سجع الكهان وما كان ينزلق على ألسنتهم أثناء تكهنهم".[1]

هذا وقد عرض فى كتابه للأمثال الجاهلية، والخطابة وسجع الكهان، مما يجعل حديثه فى هذه الموضوعات بعيدا تماما عن الرؤية الرافضة التى حرص على الجهر بها الدكتور طه حسين فى مواضع كثيرة.

٣ – الأدب العربى بين البادية والحضر للدكتور إبراهيم عوضين عرض الدكتور إبراهيم فى موضوع النثر لفنونه التى يختلف كل واحد فيها عن الآخر بمقدار روايته ووجوده فى العصر الجاهلى، واتصاله بالأدب والنقد، وانتقاله إلى العصر الإسلامى، وتعبيره عن الحياة فى شتى نواحيها، خاصة النواحى الدينية، ولم يكتف برؤية المستشرقين فى هذا الموضوع، بل انصرف إلى تقديم النثر الأدبى من خلال أغراضه المختلفة، وبيان مقدار وجوده فى هذا العصر، عارضا ومعارضا لآراء كثير من المستشرقين، وقد جمع الدكتور عوضين رأيه فى هذه القضية بمقدمة انتقل منها إلى قوله:

"أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التى يزعمون فيها أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفنى؛ لأن عرب

---

(١) السابق صـ١٩ .

الجاهلية لو كانوا يجهلون النثر الفنى لما كان لتحديهم بالقرآن الكـريم قيمة، فالتحدى المعجز لا يكون عن فقر، وإنما يكون عن مقـدرة فـى هذا المجال، هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفنى لما استطاعوا أن يتذوقوا البيان القرآنى، ويحلوه المحل المـؤثر فـى نفوسهم، فيكون سببا فى إسلام عمر بن الخطاب وعاملا من عوامـل التشكك فى نفس الوليد بن المغيرة وضربائه من الجاهليين الذين وجدوا فى القرآن ما يدفعهم إلى التروى فى الحكم ومعـاودة النظـر، لـولا خوفهم من ثورة قومهم، وخشيتهم من ضعف سلطانهم الموروث"[١].

كما قرر أن معظم نتاج الجاهليين من النثر الفنى لم يصلنا لعـدم تسجيله فى كتاب يحفظه، وأن القليل الذى عاش فى العصـور التاليـة حتى اطلع عليه المحدثون "يمكن أن يلقى الضوء على هذا الفـن عنـد الجاهليين، على الرغم مما قد اعتراه من إضافات وتغيير فـى بعـض عباراته، وتحريف فى بعض أصوله"[٢].

وانتقل الدكتور عوضين إلى تصنيف هذا القليل من النثر الجاهلى الذى عاش حتى وصل إلينا، وذكر أنه يدور فى محورين متميزين:

"أحدهما محور التعبير الذى يعتمـد علـى الإشـارات البيانيـة، والذاكرة الحافظة فى حمل الحدث القصصى، دون إجهاد فـى بيـان قصصى، أو فى نقل خبرات الأديب بالحياة وهذا هو المعروف بالمثل والحكمة ٠

---

(١) الأدب العربى بين البادية والحضر صـ٣٢٨ ٠

(٢) السابق صـ٣٢٨ ٠

والثانى محور التعبير الخطابى الذى يعتمد فيه صاحبه على وسائل التأثير الفنية فى الوصول إلى عقل المخاطب وحسه، وهذا هو المعروف بالخطب والوصايا والمحاورات والمنافرات"[١] .

ولم يجعل من أدب العصر القصص الجاهلى؛ لأنه لا يستطيع أن يسلكه ضمن فنون النثر، لأنه من صياغة الرواة ، وإن كانت الأحداث جاهلية، فهذا القصص أدب غير جاهلى يعالج أحداثا جاهلية، وأمثلة هذا القصص كثيرة فى كتاب الأغانى وغيره.

وأخيرا وبعد عرض ما قاله أصحاب هذه الكتب الثلاثة، أستطيع أن أقول:

نعم عرف الجاهليون النثر الفنى لقرائن وأدلة كثيرة، حيث قال الدكتور عوضين: لم يصلنا منه شيء لعدم وجود آثار شاهدة ومؤكدة[٢]، وقال أكثرهم: لقد وصلنا منه شواهد، لكنها لا تعبر عن العصر أو هى مع قلتها يمكن أن تلقى الضوء على الحياة قبل الإسلام وأرى أن نفى النثر الفنى عن الأدب الجاهلى غير جائز خاصة أنه كان نباتات مزهرة ومثمرة تمخض عنها الفن الشعرى، الذى تجلى فى صورة سجع مصنوع، وجمل متساوية، حتى تطور حسب وجهات نظر قوية إلى أوزان شعرية تشكل البدايات المبكرة لبحر الرجز (مستفعلن /ه/ه//ه) مكررة ست مرات، إلى أن تفرعت منه أو قيست على نظامه بحور أخرى ذوات وحدات وأوزان موسيقية مختلفة حسب التشكيلات الأولى للبحور الشعرية فى طفولتها المبكرة مما يجعل السبق التاريخى للنثر المسجوع رؤية جديرة بالتدقيق والقبول.

---

(١) السابق صـ٣٣٠ .

(٢) بفتح الكاف وكسرها .

فنون النثر الأدبى فى العصر الجاهلى

أولا : الحكم :

الحكمة: قول موجز مركز يتضمن حثا على الخير أو زجرا عن الشر، وهى تصدر من الإنسان وربما قيلت على ألسنة الحيوانات، وتلك قضية ثابتة فى التاريخ الأدبى القديم والحديث ٠

ولعل بعض بواعثها يعود إلى المتحدث الذى يجد نفسه فى مأمن، وليس للخوف سبيل عليه عندما ينسب القول أو الفعل إلى الحيوان أو الطائر، ومع أن الحِكَم ليست فى درجة الأمثال لا من ناحية المنشأ ولا من حيث العناية بها، فإن العرب كانوا شغوفين بالمناسبة التى تدعوهم إلى ضرب المثل ، وهى تطول أو تقصر، وتتجلى فيها بعض السمات القصصية التى تستحوذ على ألباب الجاهليين ٠

أما العناية بها فلم تكن مثل عنايتهم بالأمثال ذات الطابع (الشعبى القصصى) فلم توجد مؤلفات أو مجامع شاملة الحكم القديمة مثل الأمثال، كما أنها لا تقتصر على النثر، بل نراها مبثوثة فى الشعر خاصة ممن تميزوا بشعر الحكمة كزهير بن أبى سلمى وغيره٠

ولم تتوقف مسيرة الحكمة عند الجاهليين إذ لا زال الحكماء وأصحاب التجارب وأرباب الفصاحة يتحدثون بها فى سائر الفنون الأدبية شعرا ونثرا ٠

والحكم القديمة هى الأصل والمنبع لهذا اللون، وإذا ما تحدث الناس بما يرونه جديدا، فإن الكثير منه يرجع إلى العصر الجاهلى

بصرف النظر عن توحد الشكل، إذ أن المضمون (الجديد) قد يدنو ويقترب من أقوال السابقين.

والحكمة دون غيرها من فنون النثر مبنية على الاختصار والتركيز، وتتضح فيها خبرة القائل وتمرسه بالحياة، كما أنه من الصعب تأكيد نسبة الحكم إلى أصحابها؛ لطول العهد بيننا وبين الأدب العربى فى العصر الجاهلى، ولعدم العناية التامة بهذا اللون الأدبى .

ونؤكد شيئا آخر وهو الخلط وعدم التمييز بين الحكم والأمثال وعدم التفريق بينهما فى معظم المؤلفات القديمة والحديثة.

ومن أشهر حكماء الجاهلية أكثم بن صيفى[1] وهو من المعمرين، وقد نسبت إليه حكم كثيرة، وله وصية مميزة بناها كلها على الحكم التى لا تصدر إلا من مجرب عركته الحياة ومن أقواله :

إن قول الحق لم يدع لى صديقا.

الصدقُ مَنجاه والكذب مهواة.

فى طلب المعالى يكون العناء.

لم يَهلكْ من مالك ما وعظك.

البطَر[2] عند الرخاء حمق.

لا تغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير.

حيلةُ من لا حيلة له الصبر.

---

(١) كان أكثم من المعمرين فى الجاهلية، وتوفى على الشرك فى السنة العاشرة قبل الهجرة النبوية وقيل بعد ذلك .

(٢) البطر: الطغيان على الآخرين بسبب شدة الفرح .

المِكْثارُ[١] كحاطب ليل .

وهذه الحكم من وصية أكثم لقومه وهى ذائعة مشهورة ومن أقواله الحكيمة التى حفظها الناس أيضا :

رب قولٍ أنفذُ من صَوْل[٢] .

حافظ علًى الصديق ولو فى الطريق .

من مأمنه يؤتى الحذر .

ليس من العدل سرعة العذل .

ومن حكماء العرب : عامر بن الظرب العدوانى، وكان من المعمرين أيضا ومن أقواله الحكيمة التى أعجب الناس بها ، وتحدثوا عنها:

رب زارعٍ لنفسه حاصدٌ لغيره .

العقلُ نائمٌ والهوى يقظان .

من طلب شيئا وجده .

وكتب الدكتور/ إبراهيم عوضين عن الحكمة وخصائصها الفنية فقال: "والحكمة من أنسب ما يتداول فى البيئات القبلية، التى تعتز برجل القبيلة ويكبر سادتها شيوخها، ويلتصقون بهم، ويأخذون عنهم، ويتأسون طريقهم، فهم لهم المنارة المرشدة، والقيادة الموجهة .

---

(١) المكثار : كثير الكلام، وحاطب ليل أى جامع الردئ والجيد .
(٢) صَوْل : قتل .

ومن ثم كثر فى العصر الجاهلى الحكماء، وكان فى كــل قبيلــة حكيم — إن لم يكن أكثر من حكيم — تفزع إليه فى الشدائد، وتلجأ إلى رأيه فى المعضلات، وتجلس إليه فى وقت السلم تأخذ منه مــا يعينهــا على مستقبل الأيام.

وحفاظا من الحكيم على مكانه وحرصا على أن تعلق به القبيلة، كان يهتم كل الاهتمام بصياغة حكمته، ويديرها فى رأسه مرارا حتــى تكون وافية شافية .

ولذلك كان للحكمة من الخصائص الفنية ما يميزها عن غيرهــا ويضمن لها أداء الغرض منها، والوصول إلى قلب وعقل متلقيها"[١].

ولا شك فى أن الحكم بخاصــة تعتمــد علــى اختيــار الألفــاظ ووضوحها، ونقل المعنى المجرد إلى الصورة الحسية، التــى يســهل التعرف عليها.

ومن الواضح أن معظم الدارسين للأدب العربى يعرفون مقدار ما وقع فى الحكم القديمة من خلط، وعدم قدرة على الفصل التام بين مــا كان منها جاهليا، وما كان غير جاهلى.

ومن أقوالهم فى الحكمة أيضا :

العتابُ قبل العقاب.

أولُ الحزم المشورة.

رب ملوم لا ذنب له.

---

(١) الأدب العربى بين البادية والحضر للدكتور/ إبراهيم عوضين ص ٢٣١ — مطبعة السعادة ١٩٨٣م.

ثانيا: الأمثال :

المثل: قول حكيم ينقل عن قائله بدون تغيير، ويستعمل أو يضرب في موقف جديد مشابه، ولذلك كان للمثل أصل ومضـــرب، بخـــلاف الحكمة فإنها تصدر عن حكيم من غير أن ترتبط بمناسبة (أصـــل) أو (مضرب) موقف مشابه، ويذكر المثل على لسان الحيوان أو الطيور أو الوحوش، كنوع من الرمز ؛ خوفا من المســاءلة والعقــاب، وليســت الحكمة كذلك إذ أنها تصدر من الإنسان فقط.

وتنقل الأمثال صورة للحياة؛ لأنها تكشف عن العديد من الجوانب المختلفة، فضلا عن عدم تغييرها حتى لو خالفت قواعد اللغة والنحـو والصرف ، وقد نقلت الأمثال عن مجموعة من أدباء العرب وحكمائها المشهورين فى الجاهلية مثل : أكثم بن صيفى، ولبيد بن ربيعة، وعامر بن الظرب العدوانى.

وإذا كان معظم النثر الجاهلى محل شك وارتياب عند الكثيــرين، فإن الأمثال جزء من النثر، ويسرى عليها مــا ســرى علــى الفنـون الأخرى ، إلا أن العرب قد اعتنوا بهذا اللون واهتموا بجمعه ودراسته، فقد ألف المفضل الضبى (الكوفى) كتابا فى الأمثال بعنــوان : (أمثــال العرب) كما ألف أبو هلال العسكرى كتابا بعنــوان : (جمهــرة أمثــال العرب)، وقرأ الميدانى فى القرن الخامس الهجرى مــا يزيــد علــى خمسين كتابا فى الأمثال، ثم وضع كتابه الضــخم (مجمــع الأمثــال)

وقسمه أبوابا مرتبة حسب حروف المعجم (أى نظام الترتيب الهجائى) فتمّ له ثمانية وعشرون بابا وذيّله بالباب التاسع والعشرين، حيث جعله فى أسماء الأيام، رجاء الباب الثلاثون متناولا كلام النبى ﷺ والخلفاء الراشدين مما يدخل فى المواعظ والحكم والآداب •

وليس هؤلاء السابقون كل من كتب فى الأمثال وجمعها وتحدث عنها، فإن غيرهم كثيرون، كما لوحظ أنهم لم يفصلوا بين الأمثال الجاهلية وغير الجاهلية إذ كانت عنايتهم مقصورة على جمعها وشرحها وترتيبها على نظام المعجم، كما أن بعض المؤلفات فى الأمثال الجاهلية بالذات لم تصل إلى عصرنا الحديث، إما لأنها ضاعت فيما ضاع من تراث العرب فى عصور سابقة ، أو أنها لا تزال مخطوطة لم تر النور بعد •

لكن ليس معنى ذلك أنه لا يمكن الاستدلال على بعض الأمثال الجاهلية ... كلا ... فإن قدرا كبيرا مما ذكره جامعو هذه الأمثال يرجع إلى العصر الجاهلى، ويمكن التعرف عليه من مناسبته، أو نصه أو من ذكره على ألسنة الشعراء الجاهليين •

ولعلى فى هذه الكلمة أقترب بدرجة كبيرة مما ذكره الدكتور/ طه حسين فى (الأدب الجاهلى) حيث قال : "وأنا أرى معك[١] أن طائفة غير قليلة من الأمثال يجب أن تكون جاهلية؛ ولكن تحقيق هذه الأمثال الجاهلية التى لم تستحدث فى الإسلام ليس بالشىء اليسير، والأمثال

---

(١) معك: يخاطب بها القارئ •

بطبيعتها أدب شعبى مضطرب متطور، يصح أن يؤخذ مقياسا لدرس اللغة، ومقياسا لدرس الجملة القصيرة كيف تتكون، ومقياسا بنوع خاص لعبث الشعوب بالألفاظ والمعانى، ولكن هذا كله شيء والنثر الفنى شيء آخر"(١).

ولكن الفقرة الأخيرة هدمت قضية دراسة الأمثال من أساسها حسب رؤيته، إذ أنه أخرج المثل الجاهلى من دائرة النثر الفنى وأبعده تماما عن نطاق الدراسة الأدبية وهو رأى يتمشى مع قضية الانتحال فى الأدب التى آمن بها وتحدث عنها باهتمام كبير.

نماذج من الأمثال الجاهلية:

١ - (جزاء سنمار) :

أصل المثل: زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمى بنى قصرا سماه الخورنق، والذى بناه له رومى يسمى (سنمار) وبعد أن أتمه قال للنعمان : إنى أعرف موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله. فقال له النعمان: هل يعرفها غيرك ؟ قال سنمار: لا. فقال: لا جرم لأدعنها وما يعرفها أحد، ثم أمر بالقضاء عليه، فأخذه إلى أعلى القصر، وقذفه إلى أسفل ، فمات، فقال الجاهليون هذا المثل.

مضرب المثل: فى الغدر ونكران الجميل.

(١) فى الأدب الجاهلى للدكتور / طه حسين صـ ٢٣٦ دار المعارف بمصر.

٢- المثل: (كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك، وأنت فاجر لا تبالى العهد؟) :

زعموا أن أخوين كانا يرعيان إبلا لهما، فأجدبت بلادهما، وكان على مقربة منهما واد خصب عامر بالكلأ، إلا أن فيه حية قد حمته من كل أحد، فقال أحدهما للآخر: لو أنى أتيت هذا الوادى فرعيت فيه إبلى، فقال له أخوه: إنى أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحدا لم يهبط هذا الوادى إلا هلكته، قال: فوالله لأهبطن، فهبط ذلك الوادى، ورعى إبله زمانا حتى لدغته الحية فقتل، فقال أخوه: ما فى الحياة بعد أخى خير، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخى، فهبط ذلك الوادى، فقالت له الحية: ألست ترى أنى قتلت أخاك، فهل لك فى الصلح، فأدعك بهذا الوادى فتكون به، وأعطيك كل يوم دينارا، قال: أفاعلة أنت؟ قالت نعم.

قال : فإنى أفعل، فحلف لها، وأعطاها المواثيق لا يضيرها وتعطيه كل يوم دينارا، حتى كثر ماله، ونمت إبله، وصار من أحسن الناس حالا، ثم تذكر أخاه، وقال لنفسه: كيف ينفعنى العيش، وأنا أنظر إلى قاتل أخى؟ فعمد إلى فأس، فأحدها (سنها) ثم تربص للحية حتى مرت به، فضربها، فأخطأها، ثم دخلت جحرها، ولحق بها، وضرب جحرها بفأسه ، فأثر فيه، ولم تصب، فقطعت عنه الدينار ، ثم تخوف من شرها، وندم على صنيعه، فقال لها: هل لك فى أن نتعاهد ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت: "كيف أعاهدك، وهذا أثر فأسك، وأنت فاجر لا تبالى العهد؟"

مضرب المثل: فى كل موقف يحذر فيه من نقض العهد .

٣ـ "أوسعتهم سبا وأودَوْا بالإبل" :

أصل المثل: قيل أن رجلا أغير على إبله، فأخذت، فلما تـوارى المغيرون، صعد أكمة، وجعل يسب اللصوص، ثم رجع إلـى قومـه فسألوه عن الإبل ، فقال لهم: "أوسعتهم سبا وأودوا بالإبل"·

مضرب المثل: فى كل موقف يكشف عن الغباء والحمق·

نماذج أخرى من الأمثال:

ــ تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ، ويضرب فى صيانة الرجال نفسـه عن المكاسب الدنية·

ــ استنوق الجمل · يضرب لمن يذكر أنه يملك رايا ، ثم يظهر عجزه ·

ــ إنك لا تجنى من الشوك العنب · يضرب لمن يحاول أن يجد السيىء جميلا ·

ــ يخبط خبط عشواء : يضرب فى التعثر ، وعدم وضوح الرؤية·

ــ أحشفا وسوء كليلة ؟ يذكر فيمن يجمع بين صفتين ذميمتين·

ومن الجزء الأول فى كتاب الأمثـال للميـدانى اخترنـا هـذه المجموعة·

إن وراء الأكَمة ما وراءها·

إن البلاءَ موكل بالمنطق·

إنك لا تجنى من الشوك العنب·

إذا كنت فى قوم فاحلب فى إنائهم·

إذا صاحت الدجاجةُ صباحَ الديك فلتذبح .

إن كنت كذوبا فكن ذكورا .

ومن الجزء الثانى فى الكتاب المذكور .

سَبَقَ السيفُ العَذَل .

السر أمانة .

أعطِ القوس باريها .

العبدُ يُقرع بالعصى ... والحرُّ تكفيه الإشارة(١)

أعن أخاكَ ولو بالصوت .

الاعترافُ يهدم الاقتراف .

قطعت جهيزة قول كل خطيب .

ومن الملاحظ كما سبق القول أن الأمثال السابقة منها ما هو جاهلى ومنها ما هو غير جاهلى كما سبق القول .

ويلاحظ أيضا أنها وثيقة الصلة بالنثر الأدبى، وليست كما قال الدكتور/ طه حسين فى كلامه المذكور آنفا .

وقد أكد الدكتور/ شوقى ضيف هذه الرؤية إذ قال : "من ينعم النظر فى الأمثال الجاهلية يجد طائفة منها توفر لها ضروب من القيم التصويرية والموسيقية ، ففيها أحيانا تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل، وفيها أحيانا أخرى صقل وسجع وتنميق . ونحن نصطلح على تسمية هذه القيم الفنية التى تقابلنا فى نصوص الأدب الجاهلى نثره وشعره

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلى المعروف .

باسم الصنعة وقد تسربت إلى الأمثال بعض هذه القيم التى كانت تشيع فى نثر الجاهليين وشعرهم، وليس معنى ذلك أنهم حققوا لأمثالهم جميعا ضروبا مختلفة من هذه القيم، فذلك إنما يظهر فى القلة القليلة، أما الكثرة فمغسولة من كل فن وبيان، ومرجع ذلك إلى أن الأمثال تجرى فى لغة التخاطب وأحاديث الناس اليومية العادية، وقلما نمق أصحاب هذه الأحاديث لغتهم أو حاولوا أن يوفروا لها ضروبا من الجمال الفنى البديع"[1].

ومما سبق ومن مجموع ما يفهم من هذه القضية أن قسما لا يستهان به من الأمثال القديمة يخلو تماما من المهارة الفنية، ويخرج على بعض قواعد اللغة، لكن يبقى القسيم الآخر معبرا عن الحياة وممثلا للصنعة الراقية فى الأسلوب الأدبى المتميز، وذلك القدر كان نتاجا لأدباء مرموقين خاصة من طوائف الشعراء والخطباء وأصحاب الوصايا المتميزة ٠

ثالثا : الخطابة :

اهتم العرب بالخطابة فى العصر الجاهلى لحاجتهم إليها فى الحياة ونظام الحكم، وكان اهتمامهم بها منصبا على الصياغة البديعة، والأسلوب المبنى على السجع. وهى تكون فى مناسبات عديدة كالتحريض على القتال والتحكيم فى الخصومة، والدعوة إلى السلم، أو

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور/ شوقى ضيف، صـ ٢٤ وما بعدها٠

الإقدام على الزواج، وكذلك عند الوفاة، وعند وفادتهم على الملوك والأمراء، أو فى الوعظ والإرشاد، أو فى الأسواق والأماكن العامة.

ولم يصل لنا إلا قدر قليل من خطب الجاهليين، لقلة عنايتهم بالفن النثرى، ولصعوبة حفظه وروايته .

ومن أشهر خطباء العرب هانئ بن قبيصة خطيب شيبان، وعمرو ابن كلثوم من تغلب، وعامر بن الظرب فى عدوان، وقس بن ساعدة خطيب إياد، والأكثم بن صيفى خطيب تميم، إلى غير ذلك من الخطباء المشهورين فى سائر القبائل.

ومن عادة الجاهليين فى خطبهم أنهم كانوا يلقونها على الرواحل، أو فى الأسواق والمجامع الكبيرة، وكانوا يمسكون بالعصى أو السيوف وكانوا يحبون فى الخطيب الجرأة، وحضور البديهة، وثبات الجنان.

قس بن ساعدة:

قس بن ساعدة واحد من أشهر خطباء العرب وفصحائها فى العصر الجاهلى، وهو خطيب نجران وحكيمها، وهو أول من اتكأ على سيف أو عصا فى الجاهلية، وأول من قال: "أما بعد" وأول من خطب على شرف (ارتفاع)، وفضلا عن تفوقه فى الخطابة فإنه كان متفوقا أيضا فى قول الشعر. ويروى أنه القائل: "البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر" وقالوا: إنه كان يفد على قيصر فيكرمه، ثم ما لبث أن انصرف عن الدنيا، واتجه إلى عبادة الله، وعاش على الكفاف، وشغل نفسه بوعظ الناس حتى توفى عام ٦٠٠م .

ويروى أن الرسول ﷺ قال عنه : "رحم الله قسا، إنى لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة[١] وحده".

وحول خطبته فى سوق عكاظ جاء حديث رسول الله ﷺ بروايتين مختلفتين، أما الأولى فيقول فيها : "رأيته بسوق عكـاظ علـى جمـل أحمر، وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مـات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت".

والرواية الثانية ذكرها صاحب الأغانى مقترنة بوفد إياد الذى قدم إلى رسول الله ﷺ والتى قال فيها الرسول ﷺ لوفد إياد: ما فعل قس بن ساعدة؟ قالوا: مات يا رسول الله.

قال : "كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق[٢]، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة، ما أجدنى أحفظه "فقال رجل من القـوم: أنـا أحفظه يا رسول الله. قال: "كيف سمعته يقول"؟ قال: سمعته يقول: "أيها الناس اسمعوا وعوا .. الخطبة.

وخلاصة ما يمكن أن نصل إليه من كل ذلك أن رسـول الله ﷺ استمع إلى قس قبل أن يبعث ، وأنه أعجب بكلامه، وأشاد به، وذكـر أنه متفرد فى عبادته، ودعا له بالرحمة.

ومن الواضح أن كثيرا من نماذج الخطابة فى العصر الجاهلى لا يمكن الاطمئنان إليه والثقة فيه، لصعوبة حفظ النص النثرى الطويـل

---

(١) الأمة: الرجل المتفرد بدين ، كقوله تعالى : "إن إبراهيم كان أمة ...".
(٢) الأورق: (لونه أبيض إلى أسود).

ولولع العرب بالشعر وتعلقهم به أكثر من غيره من الإقرار بحاجتهم في الخطابة للحض على القتال؛ والدعوة إلى السلم وحقن الدماء والاستعانة بها في المناسبات الاجتماعية المختلفة كالزواج والإصهار إلى الأشراف والاستعانة بها في الدخول على الملوك والأمراء وهذه خطبة قس بن ساعدة الإيادى ولعلها أصدق النماذج الجاهلية في هذا اللون الأدبى.

نص الخطبة :

أيها الناس اسمعوا وعوا، إنه من عاش مات، ومن مـات فـات، وكل ما هو آت آت . ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن فى السماء لخبر، وإن فى الأرض لعبرا، ما بال النـاس يـذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يا معشر إياد؟ أين الآبـاء والأجداد ؟ وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مـالا وأطـول آجالا؟ طحنهم الدهر بكلكله وفرقهم بتطاوله :

فـى الـذاهبين الأوليـن من القـرون لنـا بصـائر

لمـا رأيـت مـواردا للمـوت لـيس لهـا مصـادر

ورأيـت قـومى نحوهـا يسـعى الأصـاغر والأكـابر

لا يرجـع الماضـى إلـى ولا مـن البـاقين غـابر

أيقنـت أنـى لا محـالة حيث صـار القـوم صـائر

ولست بحاجة إلى تكرير ما قاله طه حسين مـن حيـث إنكـاره للخطابة الجاهلية وأن ما قيل على ألسنة خطبائها المشهورين لا علاقة له بالعصر الجاهلى، إلا من حيث التعبير عن أنماط من الحياة فى ذلك العصر لأنه إسلامى النشأة والتكوين.

ومن خطبة أكثم بن صيفى أمام كسرى إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكهم، وأفضل الملوك أعمها نفعا، وخيـر الأزمنـة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجـاة والكـذب مهـواه،

والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطئ ...... آفة الرأى الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، وحسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة ... إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماس، شر البلاء بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرئ"[1].

والملاحظ أن ما وصلنا من الخطابة الجاهلية يعتمد على الفقرات القصيرة والسجع أحيانا والدعوة إلى الإصلاح والإرشاد، واختلاطها بفنون أخرى كالحكم والوصايا وتدبيجها أحيانا بالأشعار وعنايتها بالألفاظ ومحدودية الخيال وتنوع الأسلوب بين الخير والإنشاء مما يجعل الفواصل الموضوعية بين الكثير من نماذج النثر الفنى قليلة ولا تشكل خطوطا فاصلة بين لون وآخر .

ولا تبتعد المفاخرات وسجع الكهان كثيرا — من حيث الخصائص الفنية — عن الحكم والأمثال والخطابة ، إلا أن قضية الرفض والقول بالوضع أو النحل أقرب للقبول فى المفاخرات وسجع الكهان، ذلك لأن هذه لم تحظ بعناية العرب فى العصر الإسلامى، لما فى معظمها من إثارة للفتن، وتكلف فى الصناعة اللفظية التى لا يكتفى بها فى تقبل الفن الأدبى بشكل عام .

---

(١) نقلا عن كتاب الأدب العربى بين البادية والحضر صـ٢٣٧ .

فهرس الكتاب

كتب للمؤلف

١ ـــ شعر الحماسة فى العصر العباسى الثانى	١٩٨٤
٢ ـــ ياقوت الحموى أديبا وناقدا	١٩٨٨
٣ـــ امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين	١٩٨٩
٤ـــ الغموض فى شعر أبى تمام	١٩٨٩
٥ـــ شعراء الطائف فى الجاهلية والإسلام	١٩٨٩
٦ـــ فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الأولى)	١٩٨٩
٧ـــ من روائع الأدب العربى فى العصرين العباسى الثانى والأندلسى	١٩٩٠
٨ـــ من روائع الأدب العربى فى العصرين الأموى والعباسى الأول الثانى والأندلسى	١٩٩١
٩ ـــ أوزان الشعر ـــ دراسةفى العروض والقافية	١٩٩٤
١٠ـــ فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الثانية)	١٩٩٥
١١ـــ دراسات فى الأدب الجاهلى	١٩٩٨
١٢ـــ أطوار الأدب العربى فى العصر الإسلامى	١٩٩٩
١٣ـــ دراسات فى الأدب الأندلسى	١٩٩٩
١٤ـــ مناهج البحث فى الأدب واللغة والتربية	٢٠٠٠
١٥ـــ رحيق المعرفة	٢٠٠١
١٦ـــ تاريخ الأدب الجاهلى	٢٠٠١
١٧ـــ أدب البيئة	٢٠٠٥
١٨ـــ دراسات فى الأدب الحديث (طبعة خاصة)	٢٠٠٥

تطلب الكتب المذكورة من دور الطبع والنشر الآتية:

١ـ المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ٠ ٩ درب الأتراك خلف الأزهر الشريف ٠ ت ٠٥١٢٠٨٤٧

٢ـ مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى بالقاهرة ت : ٠٢٩٥٦٧٧١٠

٣ـ مكتبة الآداب ٤٢ ميدان الأوبرا ـ القاهرة ٠

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية
٢٠٠١/٣١٤٥